رواية

حنّا مينه

الشمس في يوم غائم



حنا مينه

الشمس في يوم غائم

رواية


دار الآداب ـ بيروت

الشمس في يوم غائم

حنّا مينة/روائيّ سوريّ

الطبعة الثامنة عام 2008

ISBN 978-9953-89-027-2

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

قراءة... بطريقة ما

بقلم: الدكتورة نجاح العطّار

المقدِّمة ليست جواز سفر، والقرّاء ليسوا خفراء حدود..
أرفض الصيغة تمرّدًا على التقليد..

وأرفضها إدانة لكل جوازات السفر المفروضة على الفكر، مقدِّمات وحدودًا...

وأرفضها تكريمًا للكلمة، إنسانًا كانت، وكتابًا، هما الأقوى، والأبقى، دهرًا، فدهرًا، فدهرًا...

ثمّ أرفضها لأنّ الفنّ نشوة إحساس بالحقيقة وبالجمال، وسفارة لهما إلى الدنيا، وصلاة باسمهما من أرضنا إلى سدرة منتهانا، ونداء يتخطّى، ويا عجز القيود والسدود، وغباءهما أيضًا.

أكرِّر..

المقدّمة ليست جواز سفر، والقرّاء ليسوا خفراء حدود..
كلاهما الكاتب والقارئ، أكرم في التصوّر، لأنّهما في ذات

التصوّر، كاتب وقارئ، في معنى المعنى لا في اسم الاسم.

وأكرِّر..

أرفض الصيغة، لكل الأسباب التي ذكرت، وفوقها، لأنّ الفنّ في واقع الإبداع حقيقة، ولأنّه في تأثيره سحر، والسّحر في الجمال كل الجمال، وكيف يشرح سحر الجمال؟

لنقرأ الأثر، إذن، كلّ على طريقته..

والأثر الذي بين أيدينا رواية، وأنا أحب الرواية، بالرغم من أنّ هذا الحب، لهذه الأداة التعبيريّة، لا يعطي قيمة لعمل بعينه، لأنّه حب للرواية وليس لكلّ رواية.

ولماذا؟

لأنّني أرى أنّ الرواية في معنى الخلق، رؤيا أكبر من الرؤيا، وقدرة خارقة على استيعاب رحابة الحياة، وتمثّل غنى التجربة، بنوع من المعاناة المضنية، لصياغة عالم كامل، الواقع نواته، ولكنّه، في الإبداع، دفقة من الألق والإلهام، تنبض بالصدق والشفافية.

ثمّ إنّ عمليّة الاستبصار الروائي، إضاءة لمتاهات البنى الخفيّة لعالم الذات، وللعالم الخارجي، وما أكثر النوافذ المغلقة، وما أشقّ أن نسمع أخفى الهمسات، ونلتقط أدقّ الجزئيات، ونرسم بحساسيّة شبكيّة مفرطة ملامح وظلالاً للأحداث والأشخاص، يكون من شأنها، فنيًّا، أن تقيم

البناء الحدثي، وتجسّد الشخوص، في التنامي المتكامل، وفي القدرة الخلاّقة على نفخ الرّوح في حفنة الطين.

العمل الرّوائي شاق، والفنّان أيّ فنّان، قد يجد نفسه في مأزق. يسعف اللّون ولا يسعف، ويستجيب الوتر ولا يستجيب، وتظلّ الكلمة أقلّ طواعية وأشحّ عطاء، ويظلّ الرّوائي فيلسوفًا في جانب، وفنّانًا في جانب، ومسؤوليّته، على مستوى جمهور القرّاء، هي الأكبر، وعظمته ـ إن هي تحقّقت ـ خلود يعطي للزمان التّاريخي معنى المستقبل.

وقد يعي الرّوائي دوره ويمارس حرّيته، ويفتح قلبه للوجود حتى يصبح جزءًا من نبضه. . وقد يغدو مجرّد لاقط، يصوّر ويصف ويسطح، لا تنفتح له آفاق، ولا ترفرف في ذهنه أخيلة، ولا يكون لنفسه أعماق، وآنذاك تغيب هذه الصلة الخاصة والوثيقة بالذات وبالغير، ويصغر معنى الفنّ حتى يسقط في هوّة اللاّفن.

وفي الحالين، تظلّ هناك مشكلة صعبة، هي لقاء الرّوائي والقارئ في نقطة تكوّن المنطلق لرحلة تنعتق فيها أشواقهما معًا، وتلتقي خطواتهما، أو يظلاّن عابرين في طريق يحجب غباره أحدهما عن الآخر. .

في عالمنا العربي، ما تزال الرواية تعابث صخرة سيزيف، وتراوح بين السفح والقمّة، وبتوجّس يقبل القارئ عليها،

رغم شدّة تعلّقه بها، وبإشفاق يتحدّث عنها النّقاد.

ولولا استثناءات قليلة ـ نجيب محفوظ قمّتها ـ لكانت الرّواية، ككلّ شيء في حياتنا، هامشيّة، مرهقة، تقليديّة، لم تتعلّم بعد كيف تنهض على قدميها.

ورواية «الشّمس في يوم غائب» من تلك الاستثناءات بغير شكّ، على تميّز هو طموحها وربّما شموخها، في هذا التّصاعد المتوتّر للحدث من مستويات الأسطورة والرّمز والواقع، تلتحم في وحدة عضوية كل جزء يحيا فرديّته وكلّيته معًا، في محاولة للتعبير عن بعد للوجود، هو بعد البحث عن الحقيقة، والانتصار لها باستمرار البحث عنها، هذه العمليّة المضنية التي لا تحمل على الأسى بل على الزهو، لأنّها كل حكاية الدأب الإنساني المثمر على مدى التّاريخ.

ذلك أنّ الحقيقة موجودة، كما أنّ الشّمس موجودة، ولكن الشّمس كثيرًا ما تُحجب بالغيوم، والحقيقة بالزيف والتزوير، وشأن الإنسان، في الثقة بوجود الحقيقة والبحث عنها، كشأنه في الثقة بوجود الشمس وتوقّعه إشراقها، وهذا اليقين يصبح بالعمل طريق الخلاص الذي سيأتي لأنّه لا بدّ أن يأتي، كما أنّ الشّمس ستشرق لأنّه لا بدّ أن تشرق، وتبقى المسألة: كيف؟ ومتى؟

إنّ أحدًا في اليوم الغائم لا يستطيع أن يتنبّأ بذلك. ولعلّنا

نحن، والرّواية منّا ولنا، أن نكون ضمن المقصودين بها، فوراء الغيم في سمائنا شمس محجوبة، وهذه الشّمس ستشرق يومًا، ونحن نثق، أو يجب أن نثق، بأنّها ستشرق، ولكن كيف؟ ومتى؟.. هذا هو السؤال الذي يستأثر باهتمامات الإنسان العربي وهمومه، ويتّسع فيغطّي مساحة الرقعة الواسعة لعالمنا الفسيح.

غير أنّ العظمة، عظمة الإنسان، في أيّام الشدائد، أيّام الغيم، أن يؤمن بمجيء النّهار، ويقظة الدنيا، وأن يدقّ الأرض ليوقظها، وأن يمعن في هذا الدقّ كلّما أمعنت هي في النوم، ويجتاز بالتضحية والتمرّد غور الدم، ويترك للعاصفة الغابة العتيقة، والمدينة الهرمة، والبيت القديم، والنفوس التي شاخت قبل الأوان.

بطل هذه الرّواية، في تجسيد الحياة، هو الحياة، وبالظلمة والريح والمطر يتعمّد.. إنّ في داخله شيئًا يريد أنْ يخرج كأنّه النقمة والغضب: وفي معانقة للكون فتح ذراعيه ورقص، دقّ الأرض ورقص.. لقد علّمه الخيّاط ـ هذا الموسيقي والمحرِّض ـ أن يفعل ذلك، لأنّه وجد لديه الرغبة في الانعتاق من الرتابة، والاحتجاج على الركود، والحاجة إلى توكيد الوجود في محيط ماعت فيه الموجودات، ومن التخمة تبلّدت. غير أنّ الفتى «أبى إلاَّ أن تكون له حركاته الخاصة، المعبّرة عن ذاته، عن مشاعره

وأشواقه، وأن يمعن فيها انعتاقًا واحتجاجًا وابتهالاً» من خلال رقصة هي، في دلالتها، حركة الحياة ومعركتها المستمرّة، بكل ما فيها من عنف ولين، وبساطة وتعقيد، مع تفاعل وجداني صميمي، بالجوّ والموسيقا، يشكّل نوعًا من تناغم الوجود الذاتي مع المطلق، في معركة الصراع الرهيبة والممتعة، القاتلة والمحيية.

بهذا التعبير، تصبح الرقصة توكيدًا للوجود الإنساني من خلال فعل الإنسان فيه؛ وبكلمة أخرى، تصبح عمليّة إنشاء حياتي على النحو الذي يختاره الحيّ. وقد اختار بطل الرّواية الرقص أداة لهذا الفعل، لكن فعل الرقص كان محكومًا بأن يظلّ بلا أصالة، بلا ثمرة، لو لم يعانق هدفًا خاصًا وعامًّا في آن: خاصًّا في الرقص للصورة التي ستخرج من الصورة، كما قالت الأسطورة، وعامًّا بدقّ «الأرض النائمة» لإيقاظها كما قال الخيّاط.

«أن نعزف، أو نغنّي، أو نرقص للاّشيء، فهذا زيف. لا بدّ أن يكون ثمّة شيء، إنسان ما، فكرة ما، وعندئذ يكون للعزف أو الغناء أو الرقص معنى. أن نعيش للاشيء، هكذا لأجل العيش، لتمضية الأيّام، فهذا هو الموت».

نقيضه هو الحياة، والحياة، بذلك، تأخذ بعدها، بكل عمق هذا البعد وامتداده... تكون لأجل شيء، لأجل إنسان، لأجل قضيّة، وباطل كل عمل، جسدي أو عقلي، لا

تكون له غاية أو قضيّة، وخائب الإنسان، مهما تكن مواهبه، إذا لم تكن له غاية أو قضيّة.

لقد كشف الخيّاط ـ معلّم الرقص والمحرِّض على الثورة ـ بكلمات بسيطة وعميقة هذا التّعارض بين قطبي الوجود: الحياة والموت، وقطبي الفعل الوجودي: الغاية واللاّغاية، وأبان لتلميذه، بالأسطورة والرقصة، أنّ الغاية لا تتحقّق لذاتها، ولا تتحقّق بالعمل الملول، وأنّ كل شيء يتوقّف على الاستمرار، فمن يقرع بابًا يُفتح له، ولكن عليه، لكي يُفتح له هذا الباب، أن يقرع ويقرع إلى ما لانهاية.

والغاية، كما في الرّواية، هي الطرف الأقصى لخط السير، هي «الكفاح في البر والبحر» كما في **الشراع والعاصفة**، شوقًا إلى العدالة ومعانقة للشهادة من أجلها، وظمأ إلى نبع أشدّ صفاء.

لقد رقص الفتى كما علّمه الخيّاط، ثمّ لم يلبث أنّ رقص كما أراد هو. صار لرقصه غاية، ولدقّه على الأرض غاية، الأولى تجلّت له في الابتسامة، والثانية في غور الدم، وكان هدفه، من بعد، رقصًا وسعيًا، أن يحظى بصاحبة الابتسامة، وأن يردم غور الدم، أو أن يتّخذ موقفًا على أحد طرفيه، في المعركة الدائرة بينهما في مدينته.

وكما يحدث لضابط الإيقاع، أو يخيّل إليه أنّه حدث، فيخرج التمثال من التمثال لكثرة ما عزف له بصدق وحرارة،

يحدث للفتى أو يخيّل إليه أنّه حدث، فتخرج الصورة من الصورة، لكثرة ما رقص لها بصدق وحرارة أيضًا. ومنذ تلك اللّحظة تنبض في وجدانه عينان سوداوان لامرأة من عالم الأقبية والصقيع والمآسي، عالم اللّيل الذي يبدو أحيانًا دون نهاية.. وبأشدّ من ذلك، تنبض في وجدانه ابتسامة لامرأة من عالم آخر، عالم المستقبل والتطلّع وإشراقة النّور في القلوب التي تعذّبها الظلمة.

إنّ رقصة الخنجر هي التعبير الرمزي عن واقع لا يفهمه أولئك الذين «تكون حياتهم تانغو دائمة». إنّها فعل وحركة، مجابهة وتحدٍّ، دقّ للأرض وقرع على جدار المجهول، ثمّ هي انطلاق من كل ركام الماضي في محاولة لبلوغ صميم الآتي، وانعتاق من أسر الحياة للارتفاع على وضاعتها وامتلاكها. وفي هذا الافتراق عن الحياة والالتحام بها، يغدو الراقص هو الرقصة ذاتها، واللّحن ذاته، بكل إيحاءاته، وظلاله، وانسياباته، ومستوياته، وبه يحقّق تناغمًا داخليًا أقرب ما يكون إلى المعجزة.

زوربا رقص مرّة في عمليّة تحدٍّ للحياة، وتمرّد على مآسيها، واندماج في كلّيّة الوجود.. كان رقصه يضيء كالومض بعض زوايا اللاّشعور، ويشف عن ألوان من الانفعالات والأحاسيس لا تؤدّيها الكلمات، ويحقّق بالحركة التحامًا صوفيًا بالكون، وتحرّرًا أو انعتاقًا كبيرين. وراقص

الخنجر هنا يجاوز زوربا، مرتبطًا بالتطلّع الأسمى إلى سبر الحقيقة واستشفاف المبهم، وإيقاظ الهاجعين، وتحقيق العدالة وإنصاف الإنسان.

وهنا تعانق الأسطورة الواقع، ويتجسّد التّاريخ حاضرًا ومستقبلاً، ويكون للرمز مدلول على أكثر من مستوى، وينبثق من الرقص معنى أزلي، أغواره بعيدة، وآفاقه تطوي الغيب.

«في الزمن غير المسطور في كتاب، كان معبد، وكانت صورة في معبد، وفتى يهوى الصورة التي في المعبد».

وظلّ الفتى يرقص حتى رأى الصورة تخرج من الصورة، وحين حاول لمسها، والبكاء على صدرها، لم يقع إلاً على حجر، والصورة المرسومة على حجر، وانقطع اللّحن ولم يبق إلاً الفتى، والسراج الذي تؤرجح ذبالته الريح، والسكينة الباردة لمعبد مهجور.

عندئذٍ أقام الفتى في المعبد، وظلّ يرقص إلى أن جُنَّ، فقيّدوه بالسلاسل، ولم يلبث أن مات «وحلّت روحه في أبدان الراقصين، من جيل إلى جيل، حتى يومنا هذا».

الأسطورة في براءة الحلم الأوّل، في النسيج البدائي لخيال الإنسان، عبر شاعريّته المفرطة وحساسيّته الطفوليّة، ترميزًا لبحثه الدائب، العقيم حينًا، والخصب حينًا، ولكن المتجدّد أبدًا، وراء صورة بعيدة، يطوي من أجلها

المسافات، في حركة لا بداية لها ولا نهاية، كانت منذ كان وستظلّ ما ظلّ.

ونحن إذ نستعيد في حاضرنا ألق هذا الحلم الأوّل وبراءته وانسيابه، يزداد إحساسنا بمعنى الأسطورة الواقعي، وارتباطه بحياتنا وتطلّعاتنا، ونمضي في ضوئه مع لوحات الرّواية الشفّافة، الحيّة، التي تفجّر ما هو كامن فينا، وتطلقنا من إسارنا، وتجعلنا ننساق وراءها مسحورين، بحثًا عن صميميّة الأشياء، عن الحرِّية في الحياة، والحياة في الحرِّية، عن الانعتاق من المواضعات البالية، والتعريفات الجامدة، عن الارتباط بما هو أصيل وحقيقي.. حتى لتضيع الحدود بين الأسطوري والرمزي والواقعي، فنخال الخيّاط حينًا رمزًا أو أسطورة، وحينًا واقعًا، وهو، في الحالين، طاقة متمرّدة، تتبدّى في نتائج ما تصنع، في أسلوب تعاملها مع النّاس والأشياء، في المصرع الغادر الصّامت الذي تلقاه، حين يُحذف من الوجود، وهو أنقى ما يكون وجودًا...

لقد استعاض الخيّاط براءة الأشياء، استعاد حرِّية التعامل مع الحياة، واستعادها كذلك ضابط الإيقاع حين التهبت الشعلة المقدّسة في نفسه. الخيّاط يُنطق العود، وكل شيء عنده يمكن أن ينطق «المهم كيف نتفاعل مع الأشياء»، والعود ليس خشبًا.. «ليس خشبًا ما احتضن، الأوتار جوارح»... غير أنّ هذا لا يتحقّق إلاَّ إذا عرف الإنسان

كيف يعطي نفسه لما يفعله، وإلاَّ إذا تعلّم «أن يمرض في الشيء» الذي يهواه. أمّا أصابع ضابط الإيقاع فقد ماتت حين مات القلب، ثمّ عادت للحياة حين عاد هو إليها.. ذلك أنّ الإنسانية إرث في العطاء متواصل: «تتعلّم أنت فأصير أنا فيك ـ قال له معلّمه ـ أوقع بأصابعك، وما تبقى تراب يعود إلى تراب».

ومثل الأسطورة، يعطي الرّمز في الرّواية أكثر من معنى، وينحو أكثر من منحى، في حركة إغناء للواقع لا في حركة بديلة عنه. وهو ـ على وضوحه ـ يتّخذ شكلاً فنيًّا مميّزًا وخاصًا.. تحسب أحيانًا أنّك أدركت المقصود منه ثم تكتشف أنّ الأفق الذي رسم ينأى عنك، ليرسم أفقًا آخر كلّما اقتربت منه.. وأنّ دوائر كثيرة تتبدّى أمام ناظريك، تحدّد معاني وأطيافًا ورؤى لا تعرف كيف تعزلها أو ترى أيّها الأساسي: الخيّاط أم المرأة ذات العينين السوداوين أم المرأة ذات الابتسامة، أم الفتى الذي يعيش خارج السور وانتماؤه النفسي والفكري إلى داخله، والذي يعرف كيف يصغي للأرغن، وكيف يتفاعل مع النغم، وكيف يجد طريقه على الأرض، وكيف يسبح في غيوم بنفسجية بلا حدود.

تذكّرني هذه اللّوحات المتداخلة في الرّواية برسم لسلفادور دالي، وقفت أمامه مرّة مستغربة، إذ لم أر إلاّ خطوطًا دقيقة تشبه شبكة العنكبوت، قد رُسمت بإحكام

شديد، وبإرهاف لا يوصف. وحين تراجعت إلى الوراء خطوات، وفي نيّتي أن أنصرف عن تأمّل اللّوحة، دهشت للحياة تدبّ في الخطوط، وللوجوه ترتسم من عدم. وعندما ابتعدت قليلاً إلى الوراء، اتّضحت الرؤية أكثر، وغدت اللّوحة أغنى. وببلوغي أقصى القاعة، امّحت الخطوط المتداخلة تمامًا، وظلّت على الحائط لوحة تحمل كل سمات الفنّان.

أنا أزعم أنّ هذه الرّواية، من حيث غناها، تحتاج إلى ما تحتاج إليه مثل هذه اللّوحة من إمعان في النظر، وتقصّ للخطوط، وتجاوز للقراءة الأولى إلى قراءة تعطي للعمل بُعده الوجودي الكبير.

الصورة هنا ـ على خلاف اللّوحة ـ لا تتبدّى، في القراءة الأولى، خطوطًا مرهفة فحسب، ولكنّها أيضًا قد لا تكشف، دون تأمّل، تناغمها الداخلي، واندغامها الحقيقي في الحياة واقعًا وشعرًا ورمزًا.

وفي خلال عمليّة التأمّل، سيكتشف القارئ، في الزوايا الصغيرة، حكايا صغيرة ممتعة، تتولّد من حكايا، على طريقة ما صنع أجدادنا من قبل، في تجنّب المباشرة، وطرح الأفكار من خلال الأقاصيص، مع تباين، بالطبع، في اللّمسات وفي المنحى، ومع رفيف شاعري خاص وواقعي في الوقت ذاته. عراك الديكة حكاية، والقرار النّهائي في

مصير الديك الذي رفض القتال، حكاية... و«فخارنا الذي أعيد حرقه»، والفاخوري الذي يزعم أنّ فخّاره الأجود، والذي يكذب علينا ونصدّق، حكاية أخرى.. «ذلك أنّ فخّارنا سيّئ لا يمسك ماء ولا يتحمّل صدمة». وكذلك الحديث عن قبيلة الذكور، وعن شيء في هذه القبيلة اسمه صداقة الرجال، يطلب من ينتمي إليها أن يمنح صداقة رجل لرجل..

أمّا المرأة فحضورها في الرّواية حضور أساسي ووجودي، لا بالنسبة للرجل وحده، بل بالنسبة للحياة أيضًا.. هي حقًّا العامل الحاسم، وقد تجلّت تعبيرًا عن السلب في نهاياته، وعن الثورة العاصفة في أقصى حدودها، وعن الأمل والحلم والتطلّع في أجمل تبدياتها.

ابنة العم صورة واقعيّة وغير واقعيّة، تجسّد المرأة الرازحة تحت عبء قرون من التّاريخ، أورثتها البلادة والخوف وعدم الثقة، تحت أسماء وعناوين كثيرة ومغرية..

والمرأة الثانية، من ذلك العالم الضبابي، عالم اللّيل والأقبية، تجسّد التصميم القاطع على التحدِّي والثورة، وتمارس إنسانيّتها، وتثبت أنّ المجتمع قد يفرض عليها كل ألوان الهوان، إلاَّ شيئًا واحدًا لا تقع عليه المصادرة، هو نفسها، وإلاَّ تصميمًا جديًّا على رجم الذين يرجمونها وهم الجناة.

المرأة فعلاً ألصق بالحياة وبالخلق، ولذا كان اختيار الرّواية لبطلات يجسّدن هذا الدور، في سلبه وإيجابه، أقرب إلى صدق الواقع، وأصالة النظرة.

وأمّا الحب بمعناه الحقيقي، فكان دائمًا فعلاً لم يتحقّق.. أغنية بعيدة، تفنى في الصمت ولا تفنى، وقصيدة تظلّ في دائرة الحلم، تظلّ صورة لا تخرج من الصورة، ويظلّ الشوق ومضًا في أفق العمر، ينادي ويستحثّ، ويهب الأخيلة والأجنحة، ويصنع المعجزة والمغامرة، ويدفع بالمرء، عبر «الظلمة والريح والمطر، إلى السفر في الظلمة والريح والمطر»، ليلاقي الرجل المرأة في الروح كما التقاها في الجسد، وليكون الحب في أزليته شيئًا يعلو على معنى الرغبة في آنيتها.

* * *

بعد ذلك يدور في الذهن سؤال: لماذا لم ألخِّص الرّواية ولم أطرح حدثها الأساسي الذي يغري، على وضوحه، بحديث طويل؟

وفي الجواب أقول: ذلك ليس من شأني، فأنا هنا لست بناقدة ولا دارسة...

الرّواية، من بابها الواسع، طرح جدِّي للصراع الاجتماعي، تجسّده بُنى رسّخ الظلم الطويل، والحرمان

الفاجع، تناقضاتها، وعمّق كذلك الغور الأسود الذي يفصل بينها، حتى انقطعت الجسور أو كادت، وتباعد الأفقان، ولم يعد من سبيل إلى تقارب المفاهيم. . ثمّة جيلان، يمثّلهما الأب والابن، يدخلان في معركة: الرفض، والتحدِّي، ودقّ الأرض حتى تميد من تحت أقدام المستغلّين التافهين، هدف الابن، بينما الأب سادر فيما ألف، يضحّي بكل شيء في سبيل الحفاظ على وضعه ومكاسبه، وتدور وراء الكواليس بينهما معركة، غريبة ومشوّقة، دامية ومأسوية وممزّقة، تنتهي بستار أسود يُسدل بينهما، إذ ينطفئ النور، ويسود الظلام، ويستحكم الانفصال الكلِّي.

وخلال ذلك، عبر الرّواية، يحدث التخلخل، وتهتزّ الأرض، ويعنف الدقّ. . . النصر أمل لم يتحقّق بعد، ولكنّه يظلّ أملاً كبيرًا يحمل معه بشائر مستقبل أفضل، تتطوّر فيه البُنى الاجتماعيّة، وتختلف الأوضاع، وتغدو أكثر إنسانيّة.

وكلّ هذا، وعلى امتداد الحدث، سياق روائي، يُقرأ ولا يُلخَّص، ما دامت الرّواية في مستواها الاجتماعي والواقعي في متناول القارئ، بل هي أوّل ما يراه حين تترابط في ذهنه هذه الخطوط، وتبدأ اللّوحة بالتشكّل.

تبقى الأبعاد الإنسانية الأخرى التي تمنح اللّوحة عظمتها، والتي تربطها ربطًا صميميًا بالإنسان، وهذه يحسن أن تكون موضع تأمّل إيجابي، لأنّها البعد المشع في هذا العمل كلّه.

كلمة أخيرة. . .

في الرّواية رصيد من الواقعيّة كبير، يخيّل للقارئ معه أنّ الحياة تستيقظ من جديد دون أن تكون هناك محاولة لإعادة تنظيمها، وأنّ الواقع يتفجّر فيعطي شخوصًا يحيون فعلاً على الأرض، بملامح مميّزة، وصفات غير مستعارة أو مُسقطة، وعفوية لا تتوافر إلاً للّذين قد وُجدوا فعلاً، ومارسوا حيواتهم وتناقضاتهم ومسرّاتهم وأتراحهم جميعًا.

إنّ رسم الشخوص أمر غير سهل، ورسمهم بهذا الشكل المتميّز الذي تقدّمه الرّواية يحتاج إلى فنيّة كبيرة لا تتوافر إلاّ لقلّة من الرّوائيّين. فمن خلال العمل، من خلال الحدث، تتضح ملامحهم، ويذوب الوصف والحوار والواقعة في كل يغنيه جزؤه، ويفيض هو على الجزء حتى تتكامل الصورة.

وبالطريقة ذاتها، تتحوّل الأفكار الكامنة التي تشكّل رؤى الرّواية، إلى صور حسيّة تتفاعل مع الواقع، وتغذّي الحدث، وتزيد في تعميق الخطوط وشدّ أواصرها.

يضاف إلى ذلك، تلك الرّوح الساخرة التي تسم أكثر النصوص التصويريّة، كما تسم الحوار الذاتي، والمواقف التي تصطدم فيها دراميّة الإحساس بصغار الموقف وضخامة المأساة.

يساعد الرّوائي في هذا، قدرة كبيرة على التصوير غير المباشر الذي يحتضن الواقع كلّه بلقطة حاسمة أو بعبارة ذات

إيحاء كبير، «كلّنا ساقطون.. في قاع البئر نحن». «أسطوانة القناعة تدور، ونحن نغوص في الوحل»، وكذلك شاعرية مفرطة ذات طابع غنائي، تعرف كيف تذوب في الأرغن والغيمة، وتتعالى على محدوديّة الأشياء وتتخطّاها.

وإذا ما نظرنا إلى الرّواية بمنظار كلاسيكي، وجدناها تجيد حبك العقدة، كما تجيد حلّها، فالخاتمة رائعة، تأتي بعد أن يتصارع الشيطان والملاك، ويشتدّ التوتر، ويحبس القارئ أنفاسه، لا يدري كيف يخلص الابن من الأزمة دون أن يخون أفكاره.

ولئن كانت هذه الرّواية ملتزمة فإنّها نموذج للالتزام الذي ينبع من الذات ولا يأتي مصطنعًا، سطحيًا، تُحشر فيه الكلمات والأفكار، دون أن تنبع من الحدث ومن واقع الشخوص. ليس المهم أن نطرح شعارات، بل إنّ طرح الشعارات لا يكون عملاً فنّيًا. حين تكون للكاتب قضيّة يعيشها بكل أبعاد نفسه، فإنّه يعرف كيف يعرضها من خلال واقع نتصوّر أنّه مُعاش فعلاً، وأنّه حقيقة تتمثّل في كلمات. كل شيء يأتي في موضعه عفويًا متوترًا وطبيعيًّا دونما قسر أو فرض أو إسقاط. والعمليّة صعبة، حين لا يلتقط الكاتب إيقاع الحياة الداخلي، بحيث يتحوّل بين يديه إلى شيء من نوع الشعر بل السحر، يمارس من خلاله حرّية الذات في التّفاعل مع الوجود والاندغام فيه.

تبدأ الروايةُ متوتّرة وتستمرّ متوتّرة حادّة، آسرة ومشوِّقة، ليس فيها فجوات ولا استرخاءات، وتجمع ببراعة كبيرة بين القصّ والشعر والغناء، وينتهي منها القارئ كمن يفيق من حلم.

وإذا كان من مقاييس نجاح العمل ما يتركه في النّفس من أصداء، فإنّ هذه الرّواية ـ على ما تمارسه من محاولة في كسر الأطواق وتحرير الإنسان من داخله ـ تترك في النّفس تساؤلات كبيرة، لا تتبدّد أصداؤها بسهولة.

قال الخيّاط للفتى: «ليتكلّم قوسك إن كنت عازفًا، وقدماك إن كنت راقصًا، وزندك إن كنت مقاتلاً» وأنا أضيف: وقلمك إن كنت كاتبًا.

ولقد تكلّم قلم الكاتب، وهذا حسبه...

تكلّم فأعطانا رواية تستحق أن تسمّى رواية.. وكفى!

ـ ١ ـ

حين كنت في الثامنة عشرة من عمري، كانت لي هوايات تناسب ذلك العمر.. من هذه الهوايات محاولة العزف على أية آلة موسيقيّة تطولها يدي: عود، كمان، بُزق، أو شبابة، كتلك التي يعزف عليها شباب يمرّون تحت النوافذ في منتصف اللّيل. كنت أرغب في أن أصبح موسيقيًّا لاستخراج شيء ما في قلبي، شيء أحسّه ولا أستطيع التعبير عنه بالكلمات.

وعندما اخترت الكمان لم أقصده بالذات. فقد أفلست فرقة طرب جاءت بلدتنا على الساحل، لأنّ النظّارة، وكلّهم من الرجال انقسموا حيالها فريقين: فريق تحرّش بفتيات الفرقة، والآخر صفّر للعازفين، ثمّ تطوّر ذلك إلى معركة بالأيدي والكراسي، فأوقفت الفرقة عملها، لقناعتها أنّ الوقت لا زال مبكرًا على بلدتنا لتتذوّق الموسيقى بدون تصفيق وتصفير وخبط أرجل ورقص بالخيزرانات، وأنّه لا زال مبكرًا أكثر بالنسبة لاعتبار الموسيقيّين في تخت معهم بنات أكثر من قوّادين بربطات عنق على شكل فراشات، وأنّ زمنًا طويلاً يجب أن يمرّ قبل أن يستطيع أهل هذه البلدة

ضبط أعصابهم أمام امرأة تغنّي عارية الأطراف.

لقد أصيبت الفرقة ـ وهي أوّل فرقة تغامر وتزورنا ـ بخسارة معنويّة ومادّيّة، فتعزّت عن الأولى بأنّها تضحية في سبيل الفنّ، ولم ينفع العزاء في الثانية، لأنّه كان على الفرقة أن تدفع أجر الفندق الرخيص الذي نزلت فيه، وأن تأكل وتؤمّن نفقات السفر، فاضطّرت إلى بيع آلاتها، وكان أن اشتريت الكمان بثمن بخس، كما يشتري النجّار حطام قارب بعد عاصفة، ثمّ بعته كما اشتريته، عندما أدركني ـ وأنا الثري ـ إفلاس لا معنى له، ككلّ الإفلاسات التي تدرك الشباب اثر حماقة صغيرة أو نزوة طائشة، ثمّ اشتريته هو نفسه، بثمن غالٍ، عندما حصلت على مال من أهلي، ورغبت في أن أحتفظ به كذكرى من الفرقة التي غامرت وزارت بلدنا.

وأحب، قبل كل شيء، أن تعلموا أنني لم أتعلّم العزف رغم مثابرتي على الدروس لبعض الوقت، لأنّ أحد معلّميَّ اكتشف مشكورًا أنّ من السخف المضيّ في المحاولة، طالما أنّ أذني غير موسيقيّة وأنّ علامتي في الصبر صفر مع الشفقة، وأنّني خُلقت، كما قال، لأيّ شيء سوى أن أكون موسيقيًّا، فاقتنعت منه، وعدلت عن المحاولة إلى غيرها.

ومع الأيّام، وإلى جانب العيبين اللذين اكتشفهما معلّم الموسيقى في شخصي، اكتشفت، أنا لذاتي جملة عيوب،

أبرزها أنّني ابن غير عاقل لعائلة عاقلة جدًا، وأنّني جامح النزوات، شديد الانفعال، أكره ما يحبّه أهلي، وأريد شيئًا أجهل ما هو، وأنّني، في نظر والدي، لا أصلح لعمل مجيد ونافع، مثل إدارة الأملاك وتنميتها، وهي المهمّة التي كان يعدّني لها، ويعلّق آمالاً عليها.

ولكي أكون أمينًا في تدوين أشيائي، لا بأس أن أزيدكم علمًا بأنّني سريع الولع بالشيء سريع الضجر منه، لا أطيق صبرًا على حياة أهلي المترفة، الرتيبة، وهذا ما جعلهم ينظرون إليّ كولد شاذ، ومع أنّني متفوّق في المدرسة، فما كان لي جَلَد على مواصلة الدروس الموسيقيّة، لذلك كنت أبدّل الآلات والمعلّمين باستمرار. فقد بدأت، كما يليق بابن عائلة ثرية، بالعزف على البيان، على يد أستاذ، وتوقفت لأنّ الجلوس على مقعد، طوال ساعتين للتمرين، فوق قدرتي على الاحتمال. وأُغرمت بالناي، بتحريض من شاب كان جنديًا في أحد الأيّام، باعني نايه على أساس أن يعلّمني، ثمّ لم أر وجهه بعد ذلك. وانتقلت إلى العود، عملاً بنصيحة حلاّق عجوز، رغم أنّ العود ملك الطرب، فلمّا اشتريت الكمان، شرع كهل إيطالي، كان يعطي دروسًا على النوتة لابنة عمّي، بتعليمي الموسيقى وفق الأصول الحديثة، لكنّ الحلاّق اعترضني وقال إنّه يستطيع أن يفعل ذلك أفضل من الإيطالي «آكل المعكرونة»، وأخذ الكمان فجمع وترين من

أوتاره، وأخرج منهما صوتًا يشبه صوت الزمر، مدّعيًا أنّ هذا هو الفنّ الشرقي الأصيل، وإنّ طريقة الإيطالي «فالصو»، وما آخذه عنه في سنة يحفّظني هو إيّاه في شهر، لأنّه يفهم النوتة أكثر من «آكل المعكرونة». وللتأكيد على صدقه جاء بورقة وقلم فرسم أربعة أوتار، ووضع نقاطًا عليها اسماها دعسات وقال يكفي أن تتعلّم الدعسات لتحفظ «النوتة»، وأنّ الإيطالي دجّال ومحتال يريد ابتزازي. فوافقته على كلامه ولا أدري لماذا، وصرفت الإيطالي الذي أسف جدًا لقراري، ثمّ مللت الحلاّق بسبب ثرثرته التي سلّتني في البدء وأضجرتني في النّهاية، وانتقلت إلى خيّاط، هداني إليه أحد أصحابي، وقال إنّ له في العزف باعًا طويلاً.

وقد كنت، خلال هذا التنقّل في طلب الموسيقى، أملّ الدروس بعد حصة أو اثنتين. كنت أرجو هذا المعلّم أن يعزف لي بدلاً من أن يعلّمني، وأفضّل على درسه ذاك أن أغازل ابنته وهو يدوزن الآلة، وعند الإيطالي كنت أثرثر مع أيّة تلميذة أو تلميذ يأتيان للغرض نفسه، وتعلّمت عند الحلاّق بعض الدواليب الموسيقيّة، وكان هو يصاحبني على «الطبلة» لترسيخ البشرف في مخّي، ويفعل ذلك بعد الدروس عادة، ويسميه «التحميلة». كان يهزّ كتفيه وهو يعزف، فسألته «لماذا»؟ فقال: «هزّ الكتفين للانسجام»، وبعد أن خرجت زوجته رشق أوتار العود رشقة عرضانيّة وهمس في أذني «ولِلفت نظر السيدات

أيضًا»، ثمّ شتم الإيطالي المسكين وقال: «أيَّ عازف كان سيصنع منك آكل المعكرونة هذا؟ الموسيقى الشرقيّة. . . إنّها طرب، انسجام، نغم يهتزّ له الجسم» قلت: «الإيطالي أكّد لي أنّ الموسيقى شيء من الرّوح، من الدماغ»، فأوقف العزف وصاح: حيوان، لماذا لم يقل من البطن أيضًا؟ وكيف كنت ستتعلّم البشارف وهي الأساس؟ الموسيقى من الجسم، من الجسم كلّه. . تعلّم هزّ الكتفين، ولكن لا تقل هذا لغيرك. . أنا أعلّمك أصول المهنة كلّها.

الخيّاط وحده فهم مشكلتي. هو الذي اكتشف نفوري من الرتابة وحاجتي إلى الحركة. أكّد أنّ الإيطالي أفضل لتعليم الموسيقى لو كنت سأتعلّمها حقيقة. ولكنّني قلق، ويكفي لو تعلّمت العزف على الكمان هواية. أقترح أن تبدأ بالعود، لأنّ الانتقال منه إلى الكمان، في مثل وضعي، أسهل. ولقد أحببت الخيّاط ووثقت به، ولازمته للدراسة والحديث، فإذا مللنا، كان يعزف للسماع، ويوقّع برجله على الأرض، ويعلّم بعض الفتيان «رقصة الخنجر» التي سرعان ما أُغرمت بها، ورغبت في تعلّمها.

الغريب أنّ التلاميذ والجيران، الذين كانوا يتجمّعون على الباب والنوافذ، أظهروا الرغبة نفسها، فتألّق الخيّاط سرورًا لقراري، وطفق يعزف رقصة الخنجر، ويوقّع برجله اليسرى، ويحفّظني كيف أنقل قدمي، وأخطو، وأدور، وأبسط

ذراعيّ، أو أحرّكهما، ويهتف حين يعنف الإيقاع ويشتدّ دقّ القدمين بالأرض «أيواه. . . أيواه».

ولما جاء دور التمرين على الخنجر، أعطاني مدية غير قاطعة، وعلّمني كيف تُمدّ الساق إلى أمام، وتُثنى الركبة في زاوية منفرجة، ويشرع الراقص بإرسال الخنجر فوق سطح الفخذ دون أن يلامس الثياب أو ينغرز في الجسم، وقال لي بعد فترة: «أنت ماهر في الرقص يا ولدي، وجسمك رشيق مطواع، وفي داخلك شيء يريد أن يخرج، كأنّه النقمة أو الغضب، مع أنّك لا تشكو شيئًا، وعائلتك غنيّة، وكل ما تريده موفور، ولست على خلاف مع أهلك». وبكلّ بساطة وصدق، حدّثته عن كرهي لبعض الأشياء في بيتنا، وعن كآبة لا أدري سببها، ونفوري من الأحاديث التي أسمعها على مائدتنا، فسألني: «مثل أيّ شيء؟» وأجبته: «مثل صورة جدّي وحديث خطيب أختي ورقصة التانغو»، فضحك من كل قلبه وقال بصوت عالٍ «أفهمك، أفهمك، أنت زهرة في حقل من الشوك، نعم أنت زهرة في حقل من الشوك»، وردّد بخفوت للمرّة الثالثة «أنت زهرة في حقل من الشوك»؛ وشعرت، من تقطيبة وجهه المفاجئة، أنّه يحمل حقدًا مريرًا على هذا الشوك. وواصلنا التدريب، والأحاديث، حتى كان يوم عيد، فقال لي قبل حلوله بأيّام: «أحضر يوم العيد خنجرًا، وسترقص به لأوّل مرة».

كان والدي يملك مجموعة من الخناجر وأسلحة الصيد ورثها عن جدِّي، فانتقيت من بينها خنجرًا صقيل النصل، وأحضرته معي يوم العيد، ولما أخرجته للرقص، تدخّلت زوجة الخيّاط قائلة إنّه من الخطر الرقص بخنجر قاطع كهذا، لأنّ عائلتي ستُنزل بهم غضبها إذا أصابني مكروه، لكنّ الخيّاط انتهرها، وباركني قائلاً: «هيّا يا فتاي، لا تخيّب أملي، لا تلتفت إلى أحد وإلاَّ طعنت نفسك»، وقال للجيران الذين تسارعوا للفرجة، ووقفوا شبه حلقة في الداخل وعلى العتبة والنوافذ: «صفِّقوا، أنتم، بإيقاع، فأقلّ خطيئة تهلك الراقص»؛ ففهم الحاضرون أنّها تميته، واشتدّ حماسهم، وقالت امرأة الخيّاط «أوقفوا رقصة الشيطان هذه» وصاح بها زوجها «لا تنعبي كالبومة» وقال للحاضرين، راميًا إلى تشجيعي، «لا تخافوا، اضبطوا الإيقاع فقط».

عندما بدأ العزف، ودوّى التصفيق بإيقاع كما أوصى الخيّاط، شعرت برجفة في يدي. ارتبكت وكدْت أعدل، لكنّ عينين فاتنتين كانتا أمامي، ورأيت على ثغر امرأة ابتسامة صافية كالشمس في سماء زرقاء، فاندفعت إلى الحلبة، شاعرًا أنّ قلبي يخفق بسعادة لا عهد لي بها، وأنّ تلك الابتسامة قد نفذت إليه، ولأجلها، ولكي أكرمها، فإنّي قادر على الرقص ولو كان فيه موتي.

دققت الأرض بقدمي مفتتحًا الرقصة كما علّمني الخيّاط،

وأرسلت قدمًا في إثر أخرى، على الطريقة الشركسيّة، ورحت أدور في الغرفة، وخصلات من الشعر تتساقط على جبيني، كشلة حرير على رأس فرس جموح، وأنا أزهو منتشيًا بالابتسامة التي أمامي. وقال رجل «إرفع الشعر عن عينيك» فردّ الخيّاط «لا تتدخّلوا، صفِّقوا فقط، صفِّقوا بقوّة». وعلى الأثر زادت حدّة التصفيق، وخيّل إليّ أنّني أسمع تصفيقة متميّزة، مموسقة، تعزف لحنها الخاص، لحنها الذي يقول إنني لك، لك، لك.

رفعت رأسي وواجهت الابتسامة عن قرب، وعندئذ سقطت الجمرة المقدّسة في الأحشاء. دققت الأرض بقدمي اليمنى، برشاقة، لكن بقوّة، بزهو تعرفه قدم الراقص وحدها، وللحال تغيّر الإيقاع، تباطأ، تعمّق، كهمس من وراء زجاج، ثم تدفّق، وتسارع، وطغى وتوتر إلى حدّ العنف.

جاءت إذن اللّحظة الحاسمة. صرت وسط الحلقة، وكان عليّ، وفق ما علّمني الخيّاط، ويعرفه الراقصون والجمهور، أن أدفع قدمي اليسرى إلى أمام، واجعل من الركبة قوسًا منفرج الزاوية، ثم أَهوي على الفخذ بالخنجر، في حركة كالبرق الخاطف. ولقد قدّر الجميع أنني فاعل ذلك، واحتبست الأنفاس بانتظار رؤية هذه الحركة التي هي أخطر وأجمل ما في الرقصة.. لكنّني، بدلاً من القيام بها، قفزت

في الهواء عائدًا إلى الدوران، تاركًا انطباعًا بالتردّد في المغامرة، فهتف الخيّاط «لا» ووقف والعود في حضنه، وفي هيئته تعبير زجري حاد، وفي اللّحظة نفسها قفزت مبتسمًا، متهلّلاً، محييًا الثغر الذي ابتسم، فأدرك الخيّاط مغزى قفزتي، وصاح فخورًا «أيواه! رائع يا فتاي، يا بهلواني العزيز!».

درت دورة كاملة، خفيفًا كطائر السنونو، ومتموّجًا مثله، وفتحت ذراعيَّ، والخنجر في كم القميص، وأومأت للعازف بأنّي على استعداد؛ وتحوّل اللّحن، بمهارة أستاذ، من السرعة إلى البطء، إلى الإيقاع الشديد، العميق، المتّزن، ودققت الأرض بقدمي في مكان من الحلبة دون أن أنظر أمامي، وعلى الأثر سمعت التصفيقة المتميّزة ترنُّ فوق الموسيقى، فوق الأكفّ، فوق قدرة الآخرين على التمييز، وغمرني سرور لأنّ تحيّتي وصلت، وتلقيت جوابها، وهتفت في ذاتي: «يا إلٰه السموات تقبّل نذري».

كان الخيّاط قد روى لي أنّه قبل آلاف الأعوام، في الزمن غير المسطور في كتاب، كان معبد وكانت صورة في معبد، وفتى يهوى الصورة التي في المعبد. لقد رآها منقوشة على الجدار الصخري، فيما كان يقدّم نذرًا، ويحرق بخورًا، مبتهجًا بشفاء والدته المريضة. تأمّل الفتى الصورة وكأنّه يعرفها. لم تكن غريبة عنه، ولكنّه لم يتذكّرها، وحاول

برجوعه إلى البيت أن ينساها، فلم يفلح، فعاد إلى المعبد ليلاً ومعه سراج، وراح يحدّق في الصورة، ويتأمّل صاحبتها التي التقاها يومًا، وأحبّها يومًا، ولكنّه لا يعرف أين و. . متى!

سمع الفتى، وهو راكع أمام الصورة كبوذي مترهب، نغمًا انسيابيًّا خيّل إليه أنّه يعرفه أيضًا، وأنّه عاشه، ورقص له، وكانت صاحبة الصورة في الحشد المتعبّد، ترى رقصته وتبتسم له، فنهض عن الأرض، وفتح ذراعيه، ودار على نفسه، وانطلق يرقص ويرقص، والنغم ينداح، وهو يواصل الرقص. ثمّ رفع رأسه فجأة فرأى الصورة تخرج من الصورة، رآها تبرز وتتشكّل وتتجسّد امرأة لا حدّ لفتنتها، لا شبه لشفافية وبياض بشرتها، وعلى ثغرها ابتسامة مضيئة، كماسة على قماش عندمي. بهت الفتى لحظة، وألقى بنفسه عليها محاولاً لمسها، تقبيلها، البكاء على صدرها، فلم يقع إلاّ على حجر، والصورة المرسومة على حجر، وانقطع اللّحن، ولم يبق إلاّ الفتى، والسراج الذي تؤرجح ذبالته الريح، والسكينة الباردة لمعبد مهجور.

كان عسيرًا عليه أن يصدّق أنّ ما رآه لم يكن إلاّ وهمًا. كان واثقًا أنّ الصورة خرجت من الصورة، وأنّه رآها، وأنّها، لو رقص لها، ستخرج إليه ثانية. فتح ذراعيه، وأخذ يرقص ويرقص، وينحني على الصورة فيقبّلها، ويتوسّل إليها،

ويناجيها، ولكنّ الصورة ظلّت صورة، فأقام في المعبد، ورفض بإصرار مغادرته، ولم تُجدِ فيه دموع أمّه، ولا تضرّعاتها ولا نصائح الجيران، أو رقى العرّافين، أو صلوات رجال الدين، وقيل إنّه جنّ، فقيّدوه بالسلاسل وصارت أمّه تحمل إليه طعامه، ولم يلبث أن مات وحلّت روحه في أبدان الراقصين من جيل إلى جيل، حتى يومنا هذا.

أنا أيضًا فتحت ذراعيَّ ورقصت. أنا أيضًا حلّت فيّ روح الفتى. لقد رأيت، كما رأى، امرأة، ابتسامتها كماسة على قماش عندمي. كانت تبتسم لي، تحييني، فحييتها، ورغبت مرّة أخرى، في تحيّتها، في مغادرة الحلبة والاندفاع إليها، لكنّ الخيّاط صاح بي: «هيّا يا فتاي، هيّا»، وأعطى للإيقاع حسمه الذي يأمرني بالإذعان للرقصة فامتثلت، وأحسست أنّ قدميَّ انفصلتا عن جسدي، وراحتا توقّعان لحنًا يعزفه قلبي، كأنّ جنون الفتى قد انتقل إليّ، وكأنّني تحت تأثير قوّة لا تُقاوم، قوّة خارقة ومجنونة.

وتدخَّل الخيّاط، كالسائس الذي يضمر مهرًا، أو المروّض الذي يدجّن نمرًا، ليكبح من جماح راقصه الأرعن، الذي تمرّد عليه وخالف أوامره، وأبى، وهو في الحلبة، إلاَّ أن تكون له حركاته الخاصّة، المعبّرة عن ذاته، عن مشاعره وأشواقه، وأن يمعن فيها انعتاقًا واحتجاجًا وابتهالاً وتوكيدًا.

تدخّل الخيّاط بغضب وقسوة. وصاح بي منتهرًا: «إلى الأمام، قدمك اليمنى إِلى أمام، هيّا، ماذا تنتظر؟» ومرّة أخرى، ربّما للتشجيع، ربّما للإثبات، لنفي الوهم، ابتسمت لي، فاستللت الخنجر من كمّي، وشحذته على فخذي، ورنّ التصفيق مدوّيًا، ورنّ معه في أذني، صوت هاتفًا:

«يا جميع الأمم صفّقوا بالأيادي... اهتفوا بصوت الابتهاج لحبيبي، أبدع جمالاً من البشر حبيبي».

كم استمرّت الرقصة بعد ذلك؟ وكيف انتهت؟ إنّ الكلمة، حين تأتي في مكانها، قادرة على احتواء عالم بكامله. أنا لا أملك هذه الكلمة، ولست بقادر على وصف ابتسامة هي العالم بكامله. لكنّ هذا العالم أومض كبرق، ومثله انطفأ. الصورة عادت إلى الصورة، ولم أعثر على صاحبتها منذ توقّف العزف وانتهت الرقصة. وقال لي الخيّاط: «إيه يا فتى، ماذا حدث لك اليوم؟ جننت؟ لماذا أطلت الرقصة إلى هذا الحدّ؟ ومن أين لك كل هذه الحركات؟». أقسم إنّ قلبه كاد يتوقّف خوفًا عليّ، إذ كنت مسيّرًا بإيحاء سحري، كالراكض في منامه على جدار في الطابق العاشر، وأنّ عينيه كانتا، بصعوبة تتابعان ضربات الخنجر المشحوذة على الفخذ، من يمين ويسار. لقد دفعت بعنفوان، الركبة إلى أمام، وبحذق اللاّعب الماهر، أمام ملكة من عهد روما، قامرت على مصيري، جعلته على مفترق حاسم: الموت أو المخدع.

وتحدّث إليّ بمحبّة وفرح حديثًا طويلاً ومثيرًا بعد ذلك.
«هذا هو ـ قال لي ـ هذا هو الرقص الحقيقي. تعلّمته في بلاد بعيدة، سعيدة، ونذرت نفسي لتعليمه الآخرين. أحيانًا أنجح وأحيانًا أفشل، والاستمرار في النّهاية، يقرّر كل شيء. أنا مستمرّ. سأعلّم الرقص ما دمت حيًّا، وسيتعلّمه كثيرون، سيدقّون، بأرجلهم، أرضنا النائمة، ابنة الكلبة، ليوقظوها، وستستيقظ. الباب الذي يُقرع، يُفتح، والرصد، حين نعالجه بالحركة اللاّزمة يُفكّ. لقد رقص في هذا المكان، شباب مثلك. إنّما أنت.. اسمع، هل أحسست أنّ قلبك يثب لشدّة تسارعه؟ قلت: لا، فخفق بيده على كتفي وقال: «أمّا نحن، أنا وجميع الحاضرين، فقد أحسسنا بذلك. كنت قادرًا، وأنت ترقص، وتسيطر علينا، أن تجعلنا نعزف ونصفّق حتّى ندمي أناملنا وأكفّنا.. لقد تأخرت في اللّعبة. خيّل إليَّ أنّك ستتراجع عنها، أو أنّك ستمزّق لحم فخذك لشدّة انفعالك. قلت في نفسي: «فتاي خائف أو مضطّرب»، لمت نفسي لأنني دفعتك إلى التجربة قبل الأوان.. وبدا عليك الذهول للحظة. وكنت أعزف وأتابعك، فجأة تهلّلت. ماذا حدث؟ لماذا ابتسمت؟ هل رأيت أحدًا؟ هل ابتسمت لأحد؟ امرأة مثلاً؟ هذا يحدث.. أن نعزف، أو نغنّي، أو نرقص، للاشيء، فهذا زيف.. لا بدّ أن يكون ثمّة شيء، إنسان ما، فكرة ما، وعندئذٍ يكون للعزف أو الغناء أو الرقص معنى. أن نعيش للاشيء، هكذا،

لأجل العيش، لأجل تمضيّة الأيّام، فهذا هو الموت. . . تكون كالمسافر الذي جمع حوائجه بانتظار قطار النهاية، تكون مثلي، الآن، حيث الجليد يزحف وينشر صقيعه في فراشي، وقلبي، وكياني كلّه. . اسمع يا فتاي، حين لا يكون لك شيء فلا ترقص، لا تعزف، لا تكتب، لا تتكلّم. الإنسان لا يخاطب نفسه. وإن فعل مرّة اقتنع بعدم الجدوى في الثانية. ليكن لك شيء، اخترعه، ولو في الخيال، لا تبق وحيدًا، لا تنم مع جسمك مثلي».

قلت: «أنت يا سيدي لك زوجة».

فنهض مستثارًا ثمّ انحنى عليّ وقال:

ـ أعرف، أعرف، ولكنّي أنام مع جسمي، أتفهم ما أقول؟ وأنت كنت ترقص مع جسمك، ثم لاح لك شيء، رقصت لشيء، لإنسان ما، هذا واضح، واضح تمامًا.

غضب والدي حين علم بالحادث، اعتبر سلوكي مشينًا، وتردّدي على بيت الخيّاط للرقص ـ وللرقص بالخنجر خاصّة ـ عملاً في منتهى الرعونة بالنسبة لطالب بكالوريا Deuxième partie قالها بالفرنسيّة وكأنّه يتلمّظ الحروف، فأردفت أمّي قائلة بأسف شديد Il étudie la Philosophie aussi.

وأضاف والدي بنوع من القهر: «نعم يدرس الـ Philosophie، ووالده ذو مكانة في السراي، وأخته

مخطوبة لرئيس قلم، وأسرته محترمة، تتبادل الزيارات مع أرقى أسر المدينة». كان يركب الياقة المنشاة على قميصه الأبيض، والخاتم الضخم يلمع في خنصره الذي ضاق عليه بسبب السمنة. فلمّا أتمّ ذلك التفت إليّ زاجرًا: «الآن فهمت لماذا صرفت المايسترو. أنت لا تريد أن تتعلّم العزف ولا تسعى إليه، وهذه النقود التي تنفقها، والوقت الذي تضيعه، والأوباش الذين تعاشرهم أكبر دليل على انعدام روح المسؤوليّة لديك، فاختر بين العودة إلى «المايسترو» وأخذ العزف عنه، على أساس «النوتة»، كما تفعل ابنة عمّك، وبين أن تقلع عن تعلّم الموسيقى كلّها، والانصراف إلى دراستك، ريثما تعود إلى معهدك في بيروت لاستئناف الدراسة. هذه إرادتي ويجب أن تعمل بها، يجب أن تتذكّر ابن من أنت».

ألقى موعظته بطريقة انفعاليّة مسرحيّة، وهذا ما أدخل الاشمئزاز إلى نفسي. كان قد أتمّ لبوسه، وتقدّمت الخادم فربطت له شريط الحذاء، وألبسته السترة وناولته الطربوش، فنفضه بسبابته ووضعه على رأسه، ثمّ أنزله في طاسة الرأس حتى منتصف الجبين، ضاغطًا عليه من أعلى باليد التي يرفل خنصرها بالخاتم، متضايقًا قليلاً من الياقة المنشاة ذات العكفتين عند العنق، وتناول عصاه ذات الرأس المفضض وخرج دون أن يقول كلمة أخرى.

ابتسمت أختي وهي تذهب وتجيء في الصالون لترتيبه. كان خطيبها قد سمع بقصّة الرقص وانزعج لها. أبدى هذه الملاحظة بنبرة تحريضيّة «النَّوَر[1] وحدهم يرقصون على هذا الشكل لجمع الفلوس». فقالت أختي «ولكنّ الجميع يرقصون.. وحتى أنت نفسك»، قال: «نعم.. هذا صحيح.. أرقص التانغو في الكازينو.. هناك يرقصون التانغو.. أمّا الرقصة التي تعلّمها أخوك فتُرقص في الشارع».

رأيته مرّة يرقص التانغو. كان قصيرًا. كفّاه قصيرتان. أصابعهما قصيرة. ساقاه قصيرتان، أشبه بخنوص ممتلئ. وكانت مراقصته طويلة. لا أدري لماذا اختارها هكذا. لعلّها المصادفة. ولعلّها لم تكن طويلة بالشكل الذي بدا لي، غير أنّ فارق الطول بينهما لفتني. وفي هدوء موسيقى التانغو وبطئها الحالم، حاول تقريب رأسه من عنقها، فلم يبلغ صدرها.. كاد، وربّما كنت مبالغًا، أن يلتصق ببطنها. فنظرت إليه ضاحكًا، ولاحظ والدي ضحكتي فعبس، وقال بجفاء: «لا شيء يدعو للضحك، إنّه صهرك» ولم أكن بحاجة إلى الكلمة الأخيرة. فأنا أعرف أنّه صهري، ولكنّني لم أستطع ضبط نفسي، وكان هذا سيّئًا، وسيّئًا بخاصّة لأنّه موجّه إلى شخص مَرْضي عنه من والدي. فهو، في نظره

(١) النّوَر: الغجر.

«رئيس قلم» وخطيب أختي، وكل ما عدا ذلك لا قيمة له. وكان والدي، ورئيس قلمه، ووالدتي، وكل موظفي السراي من الطبقة الغنيّة، يعتبرون الكازينو علامتهم الفارقة. يقولون في نوع من مباهاة: سهرنا في الكازينو. رئيس القلم يرفض القهوة، أحيانًا، لأنّ رفضها يتيح له أن يقول: «أخذت قهوتي في الكازينو». ولكي أسخر منه كنت أقول: لم يحضر اليوم «مسيو كازينو». وبكت أختي لهذا التحقير، فأقلعت عنه احترامًا لها.

قالت أختي بعد ذهاب والدي «ستعود إلى المايسترو كما فعلت أنا، وكما تفعل ابنة عمّك، يا إلٰهي، لماذا تحب المشاكسة؟ ولماذا تكرهها، المسكينة؟ مع أنّها تحبّك»! كانوا، في العائلة، يتحدّثون عن ابنة عمّي بمودّة ظاهرة، باعتبارها الوريثة المقبلة لنصف أملاك الجدّ التي انتقلت إلى أهلها. وكان يحلو لأبي أن يضرب بها المثل كلّما أراد توبيخي بسبب العزف اللّعين. ولم أكن أكرهها كما يقولون، ولكنّني لا أطيق عويناتها الطبيّة. كنت أشفق عليها ولا أحبّها. أنا لم أستطع يومًا أن أستلطف امرأة بعوينات طبيّة. وكانت هي تلاحظ ذلك، وأمّها تكرهني بسببه. وحين نزورهم في البيت، ويطلبون منها أن تعزف تردّد والدتها عبارتها المألوفة «ليست على استعداد اليوم». ويتبيّن بعد قليل، أنّ ابنة عمّي على استعداد للعزف، وتتلقّى التصفيق

والاستحسان بوقار مثل عزفها، مثل رقصة التانغو التي يرقصونها، مثل حياتهم التي هي «تانغو» دائمة. . وكانت مصيبة لهم أنّني أنا وحيدهم، وطالب البكالوريا Deuxième partie الذي يدرس Philosophie يتمرّد على تانغوهم العزيزة، ويرقص رقصة الخنجر رقصة النَوَر، عند الخيّاط اللّعين.

قلت لأختي ساخرًا: «سأدرس الموسيقى عند المايسترو كازينو»، وركضت إليها فقبّلتها لتفادي زعلها. ضحكت لمزاحي قليلاً، ثم قالت ناصحة: «سافر إذن إلى بيروت، لا تغضب والدك لأمر تافه كهذا. أرحه واسترح، أو لا تعد إلى الخيّاط، اترك رقصة الخنجر هذه. . لماذا أنت مُغرم بها إلى هذا الحد؟». . ومع أنّي لم أرد مشاكستها أو إهانتها، فقد وجدت الفرصة سانحة للانتقام من والدي بشخصها، فقلت: «لأنّها رئيسة قلم» فخبطت ما بين يديها من ثياب على الكنبة، وانسحبت من الصالون احتجاجًا. تحرّكت أنا إلى النّافذة فصفّرت لحنًا، ثم خرجت إلى السوق، وقصدت الحلاّق الكهل فجلست عنده.

قال الحلاّق: «إسمع يا صديقي، لو بقيت عندي كنت ختمت البشارف حتى الآن. أرني أصبعك الوسطى»، أريته إيّاها. فقال: «معلّمك غشّاش ابن كلب. لماذا لم يربط لك الأصبع الوسطى؟ في العزف على الكمان لا تُستخدم الأصبع

الوسطى.. يجب إهمالها.. إعفاؤها.. لو كنت قاسي القلب لقلت يجب قطعها.. ولأنّ معلّمك هذا الإيطالي المنحوس، لم يفعل ذلك، فهو يريد إطالة تعليمك لابتزاز فلوسك.. قل له هذا على لساني.. وإذا أردت أحضرني درسًا من دروسه فأقول ذلك في وجهه واصفعه عند اللّزوم».

كان يتكلّم في المرآة.. يخاطب صورة الزبون الذي يقصّ شعره لا الزبون نفسه. وفي فراغ يتكتك بمقصّه وينتش برأسه بضع شعرات من قفا الرأس، ثم يلتفت إليّ، ويتكلّم ويعود إلى المرآة ينظر في صورة الزبون طالبًا تأييده.. لكنّ الزبون كان قد أغفى على التكتكة المتناغمة للمقصّ العصفوري، فغمزني الحلاّق وقال: «انظر.. على تكتكة هذا المقصّ ينام الطفل والشيخ.. أهدهد من يجلس على الكرسي فيستسلم للنوم كأنّه في فراشه.. وأنا لا أرضى بهذا، إذا نام الزبون تعذّر تحريك الرأس بالشكل الملائم. مطاوعة الرأس عند الحلاقة ضروريّة. برشاقة أرفعه إلى أعلى، وأخفضه إلى أدنى، وأميله يمينًا ويسارًا، ولا أفتح فمي. لمسة من الأنامل تكفي لتنبيه الزبون. فإذا نام أفسد عليّ عملي. عندئذٍ أضغط على صدغه فيفيق. ينتبه مذعورًا كأنّني انتشله من حلم، فلا يكاد المقصّ يستأنف تكتكته حتى يغطّ في النوم ثانية».

توقّف عن الكلام لحظة ثم أضاف: «ابتعدنا عن الموضوع. اليد الموسيقيّة لا تخبّئ نفسها. يدي موسيقيّة

بالفطرة.. وكنت أتمنّى أن أجعل لك يدًا مثلها».

قلت: «في رأي معلّمي أنّ الأذن لا اليد هي الموسيقيّة». صاح الحلاّق: «تيس، وشرفك تيس، وبقرنين. الأذن تسمع أمّا اليد فتعمل، هل يعزف هذا الدجّال بيده أم بأذنه؟. وبعد هذا تبقى عنده؟ اتركه وتعال إليّ.. العزف على الكمان..».

قاطعته: ـ أنا أعزف على العود الآن.. تركت الإيطالي.. أتعلّم الضرب على العود عند الخيّاط..

ـ هذا الأجرب الملعون..

ـ ولكنّه ماهر..

ـ ماهر؟ وما أدراك بالمهارة، أنت؟ يخدعك.. قل لي إذن من أيٍّ مقام تبدأ بشرف «تاطروس»؟

ترك الزبون وذهب فأنزل العود ووضع رجله على الكرسي فدوزنه وناولني إيّاه.

ـ خذ أعزف لأرى.

ـ أنا لا أعزف الآن.. أرقص..

ـ ابنُ الفاعلة.. يخلّصني تلاميذي ويفسدهم! لو أنّه يعلّمهم عزفه السيء لكان ذلك نصف مصيبة، أمّا أنْ يغريهم بالرقص... التيس بقرنين يغريهم بالرقص، وماذا علّمك من الرقص؟

ـ رقصة الخنجر.

ـ رقصة الخنجر؟ آه يا ابن الفاعلة! ومن أين تعلّم هذه الرقصة؟ اللّعنة على عبد الحميد..

أفاق الزبون فترك العود ورجع إليه. تكتك بمقصّه بضع مرّات ونظر في المرآة، وقال له:

ـ تأمّل هذا الشاب! كان يأخذ العزف عنّي، فأغراه الخيّاط ونشله مثل الشعرة من العجين، وبدل أن يعلّمه العزف يفسده بالرقص، يقول إنّه سيعلّمه رقصة الخنجر، اللّعين.

قلت:

ـ بل علّمني إيّاها.. أنا الآن أرقصها، وبخنجر حقيقي.

ـ ترقصها؟ وبخنجر حقيقي؟ قل بملعقة فأصدّق، قل أقوم بحركات وأصفّق بالملعقة أو خشبة على فخذي فأقول: آمين. أمّا رقصة الخنجر، اسمع يا ولدي! هذه الرقصة خُلقت للشركس لا لسواهم. لو كان معلّمك شركسيًّا أطبقت فمي.. هل سمعت ببلاد الكرج؟ تعرف البطة؟ راقبت الحجل؟ لا فائدة. أنت صغير وهذا اللّعين يتلاعب بك...

تطلّع في المرآة إلى صورة الزبون وأكّد:

ـ يتلاعب به، الخنزير.

ظلّ الزبون يحملق في المرآة لحظة ثمّ تصاعد بجذعه الذي غرق في الكرسي أثناء النوم. ولعلّه فعل ذلك تحريكًا لأعضائه التي تخدّرت، أو تعبيرًا عن ملل أو تذكيرًا للحلاّق بوجوده على الكرسي، وتكتك الحلاّق بمقصّه وقال لي:

ـ سأذهب معك إلى الخيّاط. أقول له: أعزف بشرف «تاطروس» فإنّ فعل رميت له الطّاعة. أمّا أنت فلا تَعُد إلى الرّقص.. لا تَعُد إليّ ولكن لا تَعُد إليه.. إذهب إلى الإيطالي. هذا أفضل، سأقول ذلك لوالدك، سأخبره الحقيقة ليمنعك من التردّد على هذا التيس الدجّال.

قلت وأنا أنهض:

ـ لا تتعب.. والدي يعرف، وقد منعني..

ـ أحسن والله.. وأنت؟

لن أمتنع.. سأرقص رقصة الخنجر.

ـ ولكنّها ليست رقصة الخنجر هذه؟

ـ بلى، وقد رقصتها بخنجر حقيقي، بخنجر جدِّي ذاته.. وصفّق الحاضرون.. صفّقوا طويلاً.. وبحماس، آه لو رأيتني.. أنا لا أنسى ذلك.. وكانت هناك..

انطبق المقصّ في ضربة حاسمة، قاطعة للهواء، وقفز الحلاّق نحوي وعوى:

ـ من التي كانت هناك؟

ـ . . .

ـ من التي كانت هناك . .

ـ . . .

ـ لماذا سكت؟ وهل كنت أحتاج لأن تقول لي كي أعرف؟ التيس ذو القرنين . . نعم، هذا القوّاد . . أعرف أساليبه، أنا لن أسكت عليه بعد اليوم . .

قالها وعيناه في المرآة. وسمعته وأنا أخرج يضيف:

ـ العرص . . بهذه الأساليب يخلّصني زبائني.

تسكّعت قليلاً وكأنّني أبحث عن ظلّي في يوم غائم. الحلاّق العجوز مثل والدي المتزمّت، وخطيب أختي «رئيس القلم» وبنت عمّي بعويناتها الطبيّة. لا أحد منهم يفهمني ولا يريد أن يصغي إليّ. أنا لن أكون موسيقيًا. لا أصلح للعزف، ولا صبر لي على تعلّمه. لقد أُغرمت بالموسيقى مصادفة. فقد كنت أسير في الشّارع الممتدّ من السراي إلى المستشفى، ومررت بكنيسة لاتينيّة هناك فسمعت الأرغن. كانت نغمات رخيمة عميقة، كحمحمة الموج على الحصى تنداح من النوافذ العليا لواجهة الكنيسة القوطيّة. توقّفت عن المسير وأنصتُّ. استندت بظهري إلى الجدار. مددت رأسي إلى الداخل فشاهدت شموعًا تشتعل. أحسست أنّني تحوّلت إلى شمعة تشتعل بهدوء وسلام في العراء. كان الوقت شتاء، والطريق مقفرًا، فجلست على درج الكنيسة، وذبت من

الداخل. جاءت النغمات إليّ، وحملتني في الهواء. دخلت الغيوم. صرت غيمة. نفحتني الريح فانسقت معها.. هناك تقلّبت، انفصلت، التحمت، تدحرجت ككرة من نديف رمادي، تفرّقت وتصاعدت إلى الأعالي كمركبة إيليّا التي حدّثنا عنها معلّم المدرسة، ولكن دون أن أحدث رعدًا. تصاعدت بددًا مخمليًا لم يلبث أن تفرّق وغاب وغاب وغاب. توقف الأرغن.. وانطفأت الشمعة، وعادت الغيمة جسمًا ملقى على الدرج، ونهضت فسرت.

هل أنا غيمة تبحث عن ريح تحملها بعيدًا؟ يا رياح الأراغن، في جميع كنائس الأرض. هلمّي إذن واحمليني مرّة أخرى. الكمان غير الأرغن. أنا لن أكون كمانًا ولا أرغنًا. عبثًا يحاول أهلي. وابنة عمّي ذات العوينات الطبيّة ليست كمانًا ولا أرغنًا، عزفها على البيان، لا يشبه الأرغن، وعزف الإيطالي على الكمان لا يشبه عزف الأرغن. وأنا أبحث عن عزف أرغن. الخيّاط أراحني، قال لي: «أن ترقص خير من أن تعزف» هو ذاك. رقصت.. تفجَّرت رقصًا، ومن جديد، أحسست بأنّني أُحمل إلى بعيد، وكمركبة إيليّا تصاعدت إلى الأعالي، هادرًا كالرعد، وفي ضياء الشمس ذبت، وهناك رأيت التي رآها الفتى في الأسطورة. ترى كنت أحلم؟ أرقص وأحلم؟ سحرني الخيّاط؟ كنت مسحورًا، ولن أقوى، لو رقصت، على

رؤيتها؟ . . «في الزمن غير المسطور في كتاب، كان معبد، وكانت صورة في المعبد، وفتى يهوى الصورة التي في المعبد».

استعدت كلمات الخيّاط. معزوفة الخنجر ورقصته. الحلقة من حولي، الوجوه المحتشدة على النوافذ والباب. الأيدي المصفّقة. التصفيقة المتميّزة، الابتسامة المتميّزة. . واحترت في أمري، شككت بحقيقة ما رأيت. لم يكن شيء من ذلك. كنت أحلم. كانت تلك هي الصورة. كنت تحت سيطرة حكاية الصورة. ولن أقول ذلك لأحد، فهم لا يصغون إليّ، ولن يصدّقوني أيضًا. والدي ألقى موعظته وهو يشنق نفسه بالياقة المنشاة المستعارة، والحلاّق ثرثر حتى لم يدع لي مجالاً للكلام، وأمّي تهتمّ بخطيب أختي، وأختي «برئيس قلمها» وذاك بالكازينو. . وأنا؟

«في اللّيل، على فراشي، طلبت من تحبّه نفسي فما وجدته. إنّي أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، في الشوارع، أطلب من تحبّه نفسي. طلبته فما وجدته. وجدني الحرس الطائف في المدينة، فقلت: أرأيتم من تحبّه نفسي؟».

وأنا أطلب من تحبّه نفسي، ومن تحبّه نفسي صورة، فكيف تخرج الصورة من الصورة؟ تراها كانت حقيقة، وصفّقت حقيقة، وابتسمت حقيقة؟

أرقص للصورة؟ وأين، في أيّ معبد، في أيّ بلد تكون؟ الفتى ذاك، أسعد حظًّا منِّي، كان أسعد حظًّا منِّي، ولكنّ الخيّاط قال: «أن نقرع يُفتح لنا» فأيّ باب أقرع؟ تُراه يهديني؟ فما دام قد أوصاني بالقرع، فلا بدّ أنّه يعرف الباب الذي يجب أن أقرعه.

* * *

ـ ٣ ـ

أنفقت بقيّة نهاري في تجوال سخيف. ولكي أنسى ذهبت إلى مكان ونمت مع سيّدة لي بها صلة. كانت شهيّة، بلغت معها قمّة النشوة. واستشعرت الرضى، ولم أفكّر، طوال ساعات، بالابتسامة وصاحبتها، غير أنّ اللّيل حمل إليّ نوعًا من الكآبة الجارحة.

تقلّبت على فراشي طويلاً، ونهضت، في منتصف اللّيل، وانطلقت في الشوارع، وطرقت باب السيّدة وضاجعتها بإلحاح ثانية، وكان تصرّفي سليمًا، فما إن عدت إلى البيت حتّى استغرقت في رقاد امتدّ إلى الضحى، فلمّا أفقت، كان أوّل ما خطر لي السبب الذي من أجله اكتأبت أمس، وطفت على سطح أفكاري ذكرى الرقصة وما وقع لي فيها، وتجلّت في خاطري كل التقاطيع الرائعة للجسم والوجه والثغر، فالتهبت من الداخل، وعبثًا غالبت مخيّلتي لأبعد الصورة منها، وعبثًا استعرضت الجسم الآخر، للمرأة التي نمت معها، أو لأية امرأة أخرى عرفتها، وأحسست ببرودة الفيروز الأخضر في أصابعي وأنا أتخيّلها تنساب على تلك الجسوم،

واتّضح لي أنّ مشكلتي لا تكمن في الحاجة الماديّة وحدها، وأنّ شوقًا لا ينطفئ ينبع من كياني إلى شطر ضائع منه، شطر حبيب وعزيز كالرّوح، كالحياة التي أُعطيتها وأنا موجود بفضلها، بل إنّ الحياة في تلك اللّحظة بدت لي تافهة، خاوية، إذا لم تمتلئ بها.

كانت لدارنا حديقة كبيرة، ولديَّ كتب وأسطوانات، وكنت أجيد السباحة وأملك فلوكة صغيرة، وعندي أصدقاء وصديقات، وقد استعرضت كل هذه التسليات لامتنع عن مفاتحة الخيّاط بأمري، وباشرت بعضها، ولكن واحدة منها لم تصرفني إليها.. وبعد جولة قصيرة في الحديقة، فتحت باب الدّار وانطلقت باتّجاه دكّان الخيّاط، وكلّي رغبة أن أعرف ما إذا كان الذي رأيته حقيقة أم وهمًا.

للأسف، لم يكن الخيّاط موجودًا.. وسألت عنه فقال لي رجل يعمل عنده إنّه لا يعرف متى يأتي، وبعد أن تفحّصني مليًّا سأل بفضول ودود:

ـ أنت الذي رقص رقصة الخنجر؟

كان يلبس قنبازًا، وعلى كرسي خشبي مقشّش يجلس واضعًا رجلاً على رجل، يخيط قطعة بين يديه، منحنيًا عليها بضيق وتعب. رأسه حليق. أذناه صغيرتان، في وجهه ملاحة، وفي صوته بحّة ملحوظة. قلت في نفسي: الخيّاط

أخبره بذلك ولا شكّ، غير أنّ الرجل أوضح لي الأمر دون أن أسأله.

ـ سمعت ذلك في الحيّ، مدحوا رقصتك كثيرًا. بعضهم بالغ فزعم أنّه لم يرَ أجمل منها. وقالوا إنّك كنت توقّع بقدميك لحنًا عجيبًا، وكنت تبتسم لشيء ما، وكدت تغرز الخنجر في فخذك حين وثبت وسجدت على ركبة واحدة، للشيء الذي كنت تنظر إليه.

حاولت تضليله فقلت:

ـ هذا غير صحيح، أنا لا أذكر ذلك.

ـ قال الرجل بطيبة:

ـ ربّما.. الراقص أو العازف لا يراقب نفسه. إذا فعل تعثّر، كمن يركض أو يقفز وهو ينظر إلى حركة رجليه..

قلت:

ـ ولكنّه لا يضيع عن الدنيا، يذكر ما وقع له على الأقلّ.

فتأمّلني بهدوء كبير كخبير يتفرّس في تمثال، وقال كأنّه يلخِّص تجربة في رأي اطمأنّ إلى صحّته:

ـ يا بنيّ أن تعزف أو ترقص أو تحب، يعني أن تضيع عن الدنيا. تعود إليها، يعني تفيق من حلم لذيذ، أو تشفى من مرض... هل كنت.. عفوًا.. أنت صغير، تستطيع، يا

بنيّ، أن تظلّ صغيرًا؟ لا؟ واأسفاه، اركض إذن. . . اركض. . . أنا أيضًا أركض، نحن جميعًا نركض، إلى أين؟ في الأربعين نتلفّت إلى وراء، وفي الخمسين تصرخ الحسرة فينا. لا تركض إذن، تمهّل. . . اشبع من الدنيا. . . اشبع منها. . . جميلة هي، جميلة وحقّ الله. . . غب من نبعها. ما تراه عكرًا اليوم سيصبح صافيًا كالبلّور غدًا، ولكن بعد فوات الأوان. . لماذا أنت حزين هكذا؟

ـ لست حزينًا. . لا أريد أن أكون حزينًا أبدًا.

ـ الحزن لا علاقة له بالإرادة. . أنا أيضًا لا أريد أن أكون حزينًا.

ـ هل سبق لك أن رقصت؟

ـ نعم، رقصت كما يرقص النّاس. . . لم أكن ماهرًا فيه، ولم أعط نفسي له. . تفهم ما تعنيه هذه الكلمة؟

ـ أيّة كلمة؟

ـ أن تعطي نفسك للشيء.

ـ يعني أن تحبّه!

ـ أكثر، تعشقه عشقًا. وحين لا تفعل ذلك، وحين لا تعطي نفسك للشيء لا يعطيك الشيء نفسه. . لا تصل فيه إلى اللّذة.

ـ لكنّ النّاس يرقصون دون أن يعشقوا الرقص.

ـ نعم، ويعزفون، ويغنّون، ويحبّون أيضًا. أنا لا أتحدّث عن هؤلاء. أقصد الذين يعبدون العزف أو الغناء، أو الرقص، أو الحب... يمرضون فيه، يبلغون اللّذة.

قال ذلك ببطء وسهولة، وكأنّه يورد أفكارًا جاهزة مثل الثياب المعلّقة على المشاجب في الدكّان، وأدركت من كلماته أنّه يمارس الخياطة بغير عبادة، يخيط كما يرقص، بغير مهارة، وأنّه مضطّر لذلك اضطّرارًا.

دعاني إلى الجلوس فجلست، أحببته ولم أعرف اسمه. أنفه الصغير أرضاني. البحّة في صوته أيقظت إحساسًا غامضًا في ذاتي. وبغير جهد، توصّلت إلى قناعة بأنّ هذا الإنسان يتعذّب مثلي.

أنهى خياطة الكم ورفع الجاكيت على يده اليسرى، وباليمنى مسّدها ليستوثق أنّها في موضعها، ثمّ قال بصيغة إخباريّة بحتة:

ـ كنت عازفًا في زماني..

«وهذا معلّم جديد» قلت في نفسي.

عبدت العزف زمنًا وبرعت فيه..

أدخل الخيط في ثقب الإبرة. بذل مجهودًا بصريًا في إدخاله، وتابع قائلاً:

ـ بعد ذلك هجرته.

ـ مللته!؟

زوى بين حاجبيه وقال:

ـ الكلمة جيّدة: مللته، نعم وربّما ملّني. المهّم: افترقنا، لماذا افترقنا؟ لا أعرف بالضبط. الجو، ذاك، تبدّل. كبرت يا بنيّ. قبل الأوان كبرت. شفيت من مرضي بسرعة. لم تقتلني الحمّى.

«عن أيّة حمّى يتحدّث»؟

ـ كنت ضاربًا على الدفّ.. ضابط إيقاع كما يُقال اليوم، كانت أصابعي تتكلّم. وحين أوقّع بها لحنًا راقصًا، تقسيمة ما، مقامًا أو بشرفًا، أبعث الحركة في الجماد. أجعل الحجر يرتعش، يختلج، تدبّ فيه الحياة. كانت لي أصابع..

حطّ نظري فورًا على يديه. كانت أصابعه كاملة، فابتسم لحركتي العفوية وقال:

ـ لم ينقص منها شيء. خمس في اليمنى وخمس في اليسرى. موجودة وكاملة، لكنّها ميّتة. الأصحّ حيّة. ما ذنبها هي؟ القلب هو الذي مات. انطفأت النّار، كان هنا (ووضع يده مكان القلب) موقد وانطفأ... هذه هي الحياة. يشتعل فيك شيء فتحترق، تلتهب، ثمّ تنطفئ، تبرد، يتحوّل الجمر

إلى رماد. . السلام عليكم. ودّع دنياك، استعجل الرحيل، أو عش مثلي، حاملاً في جنبك الأيسر خشبة يابسة. ولكن اسمع! انس ما أقوله. . . لا تسمّم روحك. . . لماذا أدين نفسي أمامك؟ ما علاقتك بكلّ هذا؟ ولكنّك أثرتني. . كنت مثلك عاشقًا. . انصرف الآن، يكفي. الخيّاط لن يأتي اليوم، وأنا ذاهب، لديّ شغل.

عدت أشدّ كآبة إلى البيت. الغيمة ترافقني. هبطت فوقي. ظلّلتني. مثل دخّان غمرتني. ملأتني بشعور رمادي معذّب. عاشق أنا؟ ومن التي أعشق؟ كانت هناك. رقصت لها. الخيّاط رأى والنّاس رأوا. ليس وهمًا إذن؟ لم أكن أحلم. من الغيب نادتني وأنا ناديتها، من ينادي ومن ينادى؟ كيف، بأيّة لغة، ولماذا؟ «في الزمن غير المسطور في كتاب، كانت صورة، وكان فتى يهوى الصورة. .»، أليس هذا كلّه خدعة؟. . ربّما خدعني الخيّاط. سحرني هذا السّاحر كما قال الحلاّق. يريد أن يبتزّني. لم يعلّمني العزف. لست صالحًا للعزف. أذني غير موسيقيّة. أرقص. ورقصت. هو لم يعلّمني الرقص، مستحيل، كنت أعرفه قبله. متى؟ يا دماغي المسكين! سدّ يقام، وماذا بعد السدّ؟ قبل العام، والشهر، واليوم، والسّاعة، والثانية، قبل اللّحظة التي تكوّنت فيها ثمّ ولدت. أين كنت؟ من أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ سدّ. . هو لم يعلّمني الرقص؟ لم يخترع الأرغن ولا

اللّحن أو الأسطورة. وذلك المجنون؟ وهي؟ والصورة؟ «آدم نام.. ويد الله نسلت منه ضلعًا. أخذت شطرًا.. وعن هذا الشطر كان يبحث... أعطاه الجنّة، كل ما في الجنّة.. وبدا حزينًا.. الغيمة فوقه، داخله، وشعور الوحدة يعذّبه.. يا ربِّي، يا ربِّي إنِّي حزين». ولكي لا يحزن ردّ شطره إليه، تمّمه، فاغتبط آدم، واستراح، صار كاملاً. ونحن مثله، نبحث عن الكمال، عن شطرنا الضائع. الخيّاط قال إنّه ينام مع جسمه. زوجته معه وهو ينام وحيدًا، أليست ضلعه إذن؟ أليست الزوجة ضلع الرجل؟ وكم من الرجال، إذًا، لم تكن زوجاتهم ضلوعهم، يعيشون بغير ضلوع؟ «رئيس القلم» سيعيش بغير ضلع. مستحيل أن تكون أختي ضلعه. إنّها ضلع رجل آخر، لعلّه مثلي، ومثل الخيّاط، وضابط الإيقاع، يبحث عنها في مكان ما، في بلد ما.. وستحمله الرياح المباركة إليها، اليوم، أو غدًا، بعد الزواج أو قبله، وقد لا تحمله أبدًا، فإذا لم يُقرع الباب، فلن يُفتح له أبد الدّهر.

عاشق يتفلسف. أكان الفلاسفة عشّاقًا؟ تستطيع والدتي أن ترتاح، فابنها يدرس الـ Philosophie على الطبيعة، في قلبه لا في الكتب.

بعد الغداء جرَّبت النّوم. ما حسدت إلاّ الذين ينامون. يتمدّدون على أسرّتهم، ويقولون بثقة: سننام ساعة، نصف ساعة، وينامون. تأتيهم الإغفاءة، كأنّها جارية من عهد بني

عثمان، تنتظر الإشارة لتنسلّ من ناحية ما إلى السرير.

«الجارية» لم تأت. العشق والنوم ضرّتان. في اليقظة أيضًا تأتي الأحلام. وفي يقظتي حلمت بحبيبتي، تخيّلتها في وقفتها، والقوام أميري، والخصر والنهد، والعنق أبيض. يا إلٰهي كم كان جميلاً وأبيض! والثغر موشّح بالعندم. وماسة كاللّوزة تشّع على العندم، وتصفيقة حلوة مموسقة، متميّزة، تعزف لحنها الخاص، لحنها الذي يقول: «أنا لك، لك، لك». . وانتهت الرقصة، وخفت اللّحن، وغابت الصّورة. اختفت ذات الابتسامة، كانت سرابًا؟ عادت سرابًا، عادت سحابًا؟

«مَن هذه الطالعة من البريّة كأعمدة من دخان، معطّرة بالمرّ واللّبان؟ أنت جميلة يا حبيبتي، عيناك حمامتان من تحت نقابك. شعرك كقطيع ماعز رابض على جبل جلعاد. أسنانك كاللّؤلؤ الصّادر من الغسل. شفتاك كسلكة من القرمز. فمك حلو. خدّك كفلقة رمّانة. عنقك كبرج. ثدياك كخشفتي ظبيتين توأمين، ترعيان بين السوسن. كلّك جميلة يا حبيبتي، ليس فيك عيبة واحدة».

ـ ٤ ـ

أين اختفى الخيّاط؟ لم أعثر عليه في البيت ولا الدكّان، ورفض الرجل الذي عنده أن يخبرني بمكانه قائلاً إنّه لا يعلم. ولو وجدته لاقترحت عليه أن نذهب إلى الصيد. وقد قرّرت مضاعفة المبلغ الذي أدفعه له لقاء تعليمي العزف. وكنت حتّى الآن، أقيم علاقتي معه على أساس أنّه يعلّمني العزف، لأنّ أحدًا، في مدينتنا، لا يتعلّم الرقص، ولا يدفع مالاً لو تعلّمه.

ولقد تساءلت عمّا تدرّه المهنة على الخيّاط. فهو لا يزاولها مواظبًا كالآخرين، وما كان دخله من تعليم العزف يُذكر، وهذا سبب فقره ونقيق زوجته أغلب الظنّ؛ وقد احترت في أمره، ولم أتوصّل إلى قناعة فيما إذا كان ساحرًا كما قال الحلاّق، أو حكيمًا كما تراءى لي.. ولم أجزم إلاّ بشيء واحد، أنّ هذا الإنسان أحجية، ولكنّه ليس شريرًا، وهو محدِّث بارع، وأنّه استأثر بمحبّتي وإعجابي، وسيدّلني على تلك المرأة التي رأيتها وأنا أرقص، ولسوف أبذل له ما يريد في سبيل ذلك.

تسكّعت في أماكن شتّى. ودخلت خمّارة فطلبت كأسًا لم أشربه. كان جو الخمّارة قذرًا. فقلت أَذهب إلى مقهى على البحر وأشرب البيرة المثلّجة. وكما يفعل الشباب، طلبت الزجاجة وملأت كأسي وابتعت علبة سجائر ودخّنت، ولكنّني فعلت ذلك بسرعة، كمن ينجز مهمّة، كمن يشرب مرطبًا لإطفاء ظمأ. غادرت مكاني إلى السينما، وكان الفيلم دراميًّا، لم تحتمله أعصابي، فخرجت وعدت إلى التسكّع. فكّرت بزيارة بيت عمِّي ونفّذت الفكرة فورًا.

كانت ابنة عمِّي في البيت، تعزف نوتاتها عند الأصيل، وقد فوجئت بزيارتي إلى درجة الارتباك، واحتارت فيما تفعل، حتى أقنعتها بإلحاح أن تعود إلى العزف كأنّني غير موجود، فإنّ هذا سيدخل السرور إلى قلبي، لأنّني أريد أن أسمع فقط، أن أسمع كل ما يمكنها أن تعزفه.

ولم أتبيّن حقيقة مشاعرها إزاء طلبي. ظنِّي أنّها تقبّلته كمنقذ من ورطتها معي. فهي تضع عويناتها الطبيّة، وأنا أكره العوينات الطبيّة، ومعنى هذا أنّنا سنتحدّث دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر. كان العزف إذن مخرجًا، وكان في وسعها، عن طريق النغم، أن تتحدّث إليّ وإلى نفسها دون أن تجد ذلك الحرج الذي ينتابها إذ تواجهني.

كنت أجلس قرب النّافذة المطلّة على الشّارع، وما كاد العزف الجميل ينشر الأنغام الأسوانة في الصالون، حتى

تركت مقعدي ووقفت إلى النّافذة، ومن فرجتها أرسلت بصري إلى السّماء. لاحقت السحب. دخلت فيها. عاد الأرغن إلى سمعي. كان البيان يعزف وصوت الأرغن يتعالى. وفكّرت «هل سمعت ابنة عمّي الأرغن مثلي؟ لا غيمة فوقها. تكون في داخلها؟ ضلع مسروق ـ قلت في نفسي ـ شطر ضائع. صورة ما. آه يا ابنة عمّي. يا ضلعًا بنظارتين طبيّتين. من أيّ جسم نسلت؟ شطر من كنت، ومن أيّ إطارٍ ستخرجين يا صورة تنتظر من يرقص لها؟

كانت تعزف لنفسها، فهل نسيت أيضًا وجودي؟ أمّها تكنُّ لي العداء بسبب موقفي من النظارات الطبيّة. ساءت الحال أكثر حين علمت بتردّدي على الخيّاط ورقصي الخنجر. لم تخرج من غرفتها ولا استقبلتني. أنا لا آبه لها ولم آت لأجلها. جئت لغير ما سبب. جئت لأنّني لا أدري ما أفعل بوقتي. وها أنا أقف على النّافذة وأسمع نغمات تتناثر في الجو، تدوّي، تتمدّد، تتلاشى، ومن جديد تنبثق، تتوالد، تحوم، مرنة، داوية، ثمّ خافتة، كالآهة المكتومة، كالهديل البعيد ليمامة مستوحشة.

توقّف العزف! «آه لو ترفع النظّارات الطبيّة». ظلّت جالسة.. ضغطت أصابعها على مفاتيح البيانو بعصبيّة، وتراخت الأنامل وتسارعت فتعالى خرير ماء، لطمة ودوّى وتر القرار.. اهتزّ وبعثر في الجوّ دوائر نغميّة ظلّت تنداح

حتى ابتلعتها البحيرة الكبيرة للصمت المرين.

نهضت وسارت نحوي منكّسة الرأس. رقّ قلبي. لماذا قالوا لها إنّني أكره النظّارات الطبيّة؟ وقفت إلى النّافذة مثلي. كلانا يتطلّع منها إلى الفضاء. لاحظت كتفيها المتهدّلتين. من صاد هذه البطّة؟ من كسر جناحيها؟ على الماء يطير بط، وصيّاد في دغل يترصّد البط، يطلق عليه، بطّة تموت، ولكنّها تموت في الجوّ، وجدت من يطلق عليها.. بطّتي، ابنة عمّي، لم يُطلق عليها أحد.. تطير ولا يُطلق عليها أحد؟ لماذا لا يُطلق عليها أحد؟

على حافة النافذة وقفت، وفي السكينة كان نغم. النغم لا يفنى في الصمت. يندغم فيه. وفي الصمت، من حولنا، كانت أنغام، يا لحزن الأنغام وحنينها الظامئ. وفي الأفق، عند خط التماس، غيوم بيض. ونحن، ابنة عمّي وأنا. في الغيوم البيض. كلانا يطير. زوج من البط يطير. الذكر مصاب، أطلق عليه الصيّاد، ولم يقتله، ولم يلتقطه، تركه ليبحث عنه، والأنثى سليمة، مصيبتها أنّها سليمة، وأنّ صيّادًا لم يُطلق عليها، ولم يبحث عنها.

ـ خذني معك.

قالتها ولم ترفع نظرها إليّ. تجنّبت أن ترفع نظرها إليّ، ودون أن التفت سألتها:

ــ إلى أين؟

ــ إلى ذلك الخيّاط.

استدرت إليها:

ــ وماذا عند الخيّاط؟ ترقصين الخنجر؟

ــ أتعلّم المعزوفة.

ــ ولماذا؟ أنت لن تعزفيها لأهلك.

ــ أعزفها لنفسي..

ــ وإذا سمعوها؟

ــ ليسمعوها..

وسكتنا.

خيّل إليّ أنّ يدًا تحطّ على يدي، وأصابع حارّة، ممتلئة، تستريح على أصابعي، وضغطًا متموّجًا من العقلات ينتشر على ظاهر كفّي. كنت قد استدرت إلى الداخل وظلّت هي إلى الخارج. نقف متعاكسين وكلّ منّا، بغير تصميم، لا ينظر إلى الآخر. لا شيء على يدي، وهم، رغبة. قد تكون رغبت في أن تفعل ذلك، ولكنّها لم تفعل. لا شيء على يدي، إحساس بحرارة جسم قريب فقط. الخاصرتان متجاورتان. لا ترفع عينيها إليّ. الحاجز. من قال لها إنّني أكره العوينات الطبيّة؟

ـ تتعلّمين المعزوفة؟ تبحثين عن المتاعب إذن!؟ إحذري. . ثمّ لأجل من هذه التضحية؟

ارتعشت رمّانة الكتف الأيمن. الرمّانة اليسرى ارتعشت أيضًا. رأيت ذلك وأنا ألقي عليها نظرة جانبيّة. كانت تتّكئ بزنديها على الحافة، والرأس ينحني على الحجر البارد. البطّة عادت من رحلتها. صيّاد لم يُطلق، وراقص لم يرقص والعزف لم يجدِ. اهترأت المعزوفات. أوراق النوتات تمزّقت، ورؤوس الأنامل تدبّبت والباب لم يُقرع.

ـ اعزفي التانغو ـ قلت لها ـ في الكازينو يرقصون التانغو. والدك، والدي، أختي، رئيس القلم وكلّ الأصدقاء يرقصونها، فما بالك أنت. .

صاحت مقاطعة:

ـ لا تقلّ شيئًا عنّي. . دعني. . أنت لا تعرف، لا تعرف. .

احتوت كفّي قذالها بحركة مبهمة تجهل نفسها. إنّي لا أحمل أيّة عاطفة وديّة نحوها، بينما يدي تترجم عن مشاعر خاصّة. سقط الحاجز. انحدرت الكفّ إلى الرقبة. صادفت نتوءًا من عظام. الرقبة حنطية، مزغبة، مزروعة في تجويفة الكتفين، وعلى جانبها اختلاج في الأوردة. ماذا لو قبّلتها من هنا؟ ابن عمّها أنا، صديقها، زميلها، إنسان يقف إلى جانبها.

«من هنا؟ آه. . كفّه على شعري، على رقبتي، ها هي تدبّ. نملة كبيرة تدبّ. . يا لدغدغة النّمل الكبير حين يدبّ. صارت كفّه على كتفي. . والآن سيرفعها. سيسندها إلى الحافة أو يدعها تتدلّى إلى جانبه. لن يضعها على وجنتي ولا خدِّي. لا يريد أن يرى وجهي ولا خدِّي. إنَّني ألبس عوينات طبيّة!».

فُتح الباب. رفعت يدي عن كتف ابنة عمِّي بلا مبالاة. ظللت حيث أنا. نحن متعاكسان في وقفتنا. برز وجه. كانت هذه امرأة عمي. سيّدة تجاوزت الأربعين. رقبتها قصيرة. وجهها طافح، مدوّر، كالوجه القناع. تباغتت. حييت. ابتسمت:

ـ أنت هنا؟ وذلك الخيّاط؟ صحيح أنّك رقصت في الشّارع؟ أنا لم أصدّق؟

ـ صدّقي. .

ـ رقصت كالغجر؟

ـ تمامًا. .

ـ وماذا قال النّاس؟

ـ لم أسأل أحدًا؟. .

ـ ووالدك؟

ـ ليقل ما يشاء.

ـ وخطيب أختك..

ـ رئيس القلم؟

ـ لقد أفسدوك.. خدعكَ هذا الخيّاط اللّعين. وأمس في الكازينو..

وقالت ابنة عمّي:

ـ كفى يا أمّي.. هو لا يحبّ الكازينو.

ـ ولكن والده يحبّها..

ـ ولا تحبّ والدك ولا خطيب أختك أيضًا.

وقالت ابنة عمّي:

ـ وأنا لا أحبّ خطيب أخته..

ـ يجوز. قالت امرأة عمّي، ربّما أنا أيضًا لا أحبّه، ولكنّه ابن عائلة ورئيس قلم.. وأخلاقه حسنة.

ـ ولهذا لا أحبّه. أنا لا أحبّ الأخلاق الحسنة.

غاصت رقبتها القصيرة، الآن، بين كتفيها وتمامًا، ومن وراء نظّارتيها البيضاوين رمتني بنظرة أزورار.

ـ لا تحبّ الأخلاق الحسنة؟

تعمّدت إغاظتها.

ـ بل أكرهها..

ـ تكرهها أيضًا؟ أين تربيتك؟ والأخلاق السيئة، الفاسدة مثل أخلاق هذا الخيّاط؟

احتجّت ابنة عمّي بنزق:

ـ لماذا تحقدون كلّكم على هذا الخيّاط؟ هل لأنّه فقير؟

ـ لأنّه خدع ابن عمّك. أغراه بترك المايسترو.

ـ بل لأنّ ابن عمّي تصرّف بحرّية (وأضافت بالفرنسيّة) Comme il faut.

قالتها تعبيرًا عن شعور بالضيق لا دفاعًا عنّي فقط. واعتبرت امرأة عمّي هذا الجواب تحدّيًا، فقابلته بتقطيبة صامتة، مؤنّبة، وعادت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

تبادلنا، ابنة عمّي وأنا، ابتسامة قصيرة راضية، ولم نتكلّم. عادت إلى البيان وشرعت تعزف لحنًا من نوع الفالس، وتركت خواطرها تسبح مع لحنها، وبدا لي أنّ سرورًا ينبض في أناملها، وأنّ ما قالته قد أبهجها بقدر ما أحنق والدتها.

خرجت من بيت عمّي شاعرًا بعرفان الجميل. ههنا قلب مثل قلبي ينشد الانعتاق.. وتمنّيت، من كلّ جوارحي، السعادة لابنة عمّي، وتساءلت: من أيّة جهة، ومع أيّ ريح، ستأتيها السعادة إذن؟

وعلى الفور انثال حنان دافئ في صدري. حنان كالذي يصاحب الحزن الرقيق في الأمسيات الخريفيّة. ونبض قلبي بإحساس لاهف، كأنّ التي رأيتها تنتظرني، وأنِّي سائر إلى موعدها. ومع مضي الوقت، وهبوط اللّيل، انطفأ ذلك الإحساس الحلو، وحلّ مكانه شعور بفقدان الشيء الذي أبحث عنه، وشعور بالعذاب الأبدي لفقدان الشيء الذي أبحث عنه.

«قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه. قد غسلت رجليَّ فكيف أوسخهما. حبيبي مدّ يده من الكوّة فأنّت عليه أحشائي. قمت لأفتح لحبيبي فتحوّل وعبر. نفسي خرجت عندما أدبر. طلبته فما وجدته، دعوته فما أجابني. وجدني الحرس الطائف في المدينة. ضربوني، جرحوني، حفظة الأسوار رفعوا إزاري عنِّي، أحلّفكنّ يا بنات إن وجدتنّ حبيبي أن تخبرنه بأنِّي مريضة حبًّا».

* * *

ـ ٥ ـ

ساءت حالتي النفسيّة يومًا بعد يوم. تحوّل التهيّج السعيد إلى همود كئيب كالذي ينشأ عن خيبة أمل، وجاءت رومانتيكيّة الشباب فضاعفت أزمة الشعور المأساوي. انسرب أسف رقيق لاذع في ذاتي لفقد ذلك الوجه العزيز ذي الابتسامة الومضيّة، وتهيّأ لي أنّ صورة صاحبته لن تبارحني قط، وأنّ شيئًا لن يعزيني عنها.

وحين كنت أصل في تفكيري حدّ اليأس، كنت أشفق منه على حبِّي، فأجدّد الأمل. كان الأمل المعذّب خيرًا من اليأس المريح، وكان السفر خلاصًا بذاته، لكنّه يحمل معنى التخلِّي عن الأمنية في اللّقاء، وهكذا تركت نفسي نهبًا لرياح الحيرة، كقارب قُطعت مرساته، واستسلم إلى النوء.

وشاءت المصادفة أن يغيب الخيّاط عن البلدة. كنت أسأل عنه في الدكّان، فيبتسم ضابط الإيقاع بلطف، ولا يفيدني في شيء، لأنّه لا يعلم شيئًا. وقد جذبني هذا بوداعته، وبطابع الحزن المبهم الذي يوشحه.

كنت ألقاه جالسًا على الكرسي نفسه، في الوضع نفسه،

وبيده القماش، وإبرته تدخل وتخرج، وأنامله مضمومة عليها، فأتأمّله، في حركته الرتيبة، وانحناءاته المتعبة، وأدرك مدى عذابه الرّوحي.

كانت أنامله، خاصّة، تستأثر بتفكيري. وأذكر قوله «إنّها ماتت» فتعتادني صورتها وهي حيّة، توقّع ألحانها، فأتساءل: «لماذا، إذن، ماتت؟ ولماذا مات القلب، ثمّ لماذا، عندنا، تموت القلوب مثل الأطفال، مثل الأزهار، قبل أوانها؟».

«ويا بني ـ قال لي الخيّاط ذات مساء ـ نحن من صلصال، مثل سائر النّاس في سائر البلدان من صلصال، ولكن صلصالنا المفخور لم تنضجه النّار جيّدًا. الفاخورة لا تنضج كلّ الخزف، في كلّ فخرة تبقى، في جوانب الأتون، فخّارات غير ناضجات. هذه يعاد حرقها. وفخّارنا أعيد حرقه. أُحرق كثيرًا ولم ينضج. ملعون صلصاله تقول؟ ظنّي أن لا، ولكنّ مشكلته في الذي يتولّى صنعه. في الصيف الماضي كنت أذهب إلى الفاخورة. كنت أراقب الأدوات الخزفيّة التي تُصنع وتُشوى في هذه الفاخورة. أحسبها أجود وأقوى من كلّ فخّار الدنيا. الفاخوري قال ذلك وأنا صدّقت. كذّب عليّ وصدّقت. يكذّبون علينا ونصدّق، دائمًا نصدِّق. ثمّ إنّ عاملاً كشف لي الحقيقة. قال «لا يخدعك ما يقولون، فخّارنا هش، عادي، لا أمل في تحسينه ما دامت الفاخورة هي نفسها، وصاحبها هو نفسه». إنّه يعيش على

خدعة أنّ فخّاره خير فخّار، وينشرها في النّاس، ولا أحد ممّن حواليه يجرؤ أن يقول له الحقيقة. وهو كسول، مغرور، وفاخورته باردة بائسة. يكذّب ويستمرّ في كذبه، يخدع ويربح من الخداع. لا يعمل، لا يجدّد، ولا يفعل إلاَّ ما يحلو له، ما دام أحد لا يرغمه على غير ذلك. انظره في المقهى، يتكوّم حول ناركيلة وكأس، وزوجه ترفل بالحليّ والثياب، وأسطوانة القناعة تدور، ونحن نغوص في الوحل، بطوننا فارغة، وجلودنا صفراء، وفخّارنا لا يمسك ماء ولا يتحمّل صدمة».

الإبرة تدخل. الإبرة تخرج. القلب مات. الأنامل ماتت. صارت تعمل بمكوكيّة، كالزند في عجلة القطار، محكومة بالدافع القسري للقمة العيش.

سألني ضابط الإيقاع، مهتمًّا بأمري:

ـ هل يضايقك أهلك بسبب رقصة الخنجر؟

ـ يؤنّبونني عليها. لا يحبّون أن أرقصها، يفضّلون التانغو عليها.

قال:

ـ اسمع يا صديقي، الذين يرقصون التانغو لا يحبّون الذين يرقصون الخنجر. قد يتفرّجون عليهم ولكنّهم لا يحبّونهم. كان عليك أن تظلّ عند المايسترو تتعلّم العزف على «النوتة» مثل ابنة عمّك.

قلت:

ـ ابنة عمّي ملّت «النوتة» أيضًا. طلبت أن ترافقني إلى الخيّاط لتتعلّم معزوفة رقصة الخنجر.

ـ جائز. شابّة هي. بارك الله بالشباب، ولكن لماذا تريد أن تتعلّمها؟

ـ هكذا..

ـ هكذا لا يمكن.. اسألها.

ـ ستتعلّمها لنفسها..

ـ لن تتعلّمها إذن. لن تبرع فيها. المرآة تعطيك ما تعطيها. الحديقة تزهر لأنّ لها بستانيًّا يعتني بها. ابنة عمّك مخلوق، وتريد أن تتعلّم المعزوفة لأجل من يرقص عليها.

خطر لي أن أجيب: «ولكن لها عوينات طبيّة» ثمّ عدلت وقلت:

ـ ليس من يرقص الخنجر في بيت عمّي.

ـ وأنت؟

ـ أنا؟ مستحيل.. لن أرقص في بيت عمّي.. هناك يعشقون التانغو البطيئة.

ـ سترقص يا بنيّ.. ستعزف هي وترقص أنت.. حتّى لو

لم تكن موجودًا سترقص في خيالها وقد يفعل هذا سواك.. الخيّاط قال إنّ فتاة خرجت من الصورة ورقصت، فلماذا لا يخرج لابنة عمّك شاب يرقص؟

اقتربت من ضابط الإيقاع وفي عينيّ توسّل. لقد سمع الحكاية إذن، وفي وسعه أن يفيدني عنها. ليقل لي شيئًا وسأصدّقه. الحلاّق ثرثار. ذهبت إليه فلم يدع لي مجالاً للسؤال. إذا قال ضابط الإيقاع إنّ قصّتي خرافة استرحت. أنا بحاجة لمن يقول لي إنّها خرافة. أعرف ذلك واحتاج لمن يقوله. سأتوقّف عن البحث. الوجه الذي رأيته خدعة بصر، والابتسامة خصلة شمس على قطعة خشب محفور عليها ملامح وجه.

قلت:

ـ أنت تصدّق الخيّاط يا سيدي؟

ـ ولماذا لا أصدّقه؟ قد كنت شابًّا مثلك، أنا أيضًا. ومثلك ابتسمت لي امرأة يومًا، وفي ليلة مقمرة خرجت إليّ من تمثال في الحديقة بين الأشجار.

راودني شكّ في صحّة ما يقول. رأسه الكروي الصغير الأشيب، الحليق، اتّخذ شكل كرة من دخان، ترز لمعانًا من وقبين في الجبهة، وشرع الفم يتحرّك والشفتان تصدران كلامًا عميقًا كأنّ صاحبها في بئر.. البحّة في الصوت لم تكن غريبة، وتفّاحة آدم الناتئة في العنق ترتفع وتنخفض،

ورسم جبراني رصاصي على ورق أبيض، كلّ ما بقي منه.
«لقد سحره الخيّاط، سلبه عقله، وسيسلبني عقلي، وهذا هو السبب في الرعب الذي داخل أهلي عليّ. الخيّاط ساحر. هذه هي الحقيقة. عرفت الآن. وهذه الأسطورة اختراع. الوجه والابتسامة والمعزوفة والرقصة اختراع. سحر ساحر، كما في ألف ليلة وليلة، كما في الحكايات عن الجن. وسأخبر والدي، هذا المساء، بكلّ شيء».

راح ضابط الإيقاع يتكلّم، وأنا أصغي. كنت أسمع، والكلمات ترنّ، بإيقاع منغوم، كالضربات المفردة، الداوية، على مزهر يتقدّم قافلة في الصحراء، والصمت، يرجعها ويمتصّها. دمّ، دمّ، دمّ، وكنت أرتعش لدقّها، ولكنّي لا أفكّر فيها. كان الخيّاط يملأ خيالي، وفي أعماقي أراه، وأسمع، في داخلي، نقراته على العود، وأتابع المشهدين بوقت واحد: مشهده، المشخّص في كلماته، ومشهدي، المشخّص في كلماتي، ولم ينبّهني ضابط الإيقاع مرّة. لو فعل لاستردّني إليه، وأنقذني من انفصامي. لم يلحظ شرودي، وربّما نسيني، وربّما كان ساحرًا هو أيضًا، وإلاّ لماذا أحسّ، أمامه، كأنّني مسلوب، ومنوَّم، دون أن أفقد الوعي؟ وسمعت ضابط الإيقاع يتابع: «قلت للذي علّمني الإيقاع: لو كنت أعرف التحنيط لما تركت أصابعك تفنى. كنت أجتزّها بعد الموت وأحنّطها، وأحملها معي، لأسمع

منها، وهي في سكونها، ما كانت توقّعه وهي تتحرّك» فضحك. وقال: «الأفضل أن تحمل معك أصابع حيّة. حين تتعلّم أنت، أصير أنا فيك. أوقِّع بأصابعك، وما تبقّى تراب يعود إلى التراب.. اضرب.. اضرب يا ولدي، كلّ أصبع، كلّ عقلة في أصبع، لها دور، لها وقع، لها صوت وصدى. دع الرقّ يتكلّم. لا تعمد إلى خشخشة الدفّ[1]. هذه تستر الضعف، ولا أريدك ضعيفًا. كن ضابط إيقاع بحقّ، فإذا لم تستطع فلا تكن عرّيف إيقاع.. اترك المهنة». ولقد عملت بنصيحته. أخذت الإيقاعات عنه، في غرفته البائسة، حيث مات ولم يدر به أحد. صرت، هكذا، ضابط إيقاع، وعملت مع تخوت كثيرة، وعلى دفّي تثنّت قدود لا حصر لها، وهمت بقدود لا وصف لها، وهذا كلّه من طبيعة المهنة، إنّما ليس عن هذا أحدّثك. ما أريده جرى بعد ذلك... جمعيّة نسائيّة اعتزمت إقامة حفلة. دعيت لتدريب الفتيات على رقص السماح. لبّيت الدعوة وبذلت جهدي. ضحكت في سرِّي من بعض السيّدات. يا للمظاهر! قرفت، وسمعت زوجة الحاكم تناديني: «يا دربكاتي!» فلم ألتفت. تفاهة! قال لها عازف: «هذا ضابط إيقاع يا سيِّدتي، وغدًا، في الحفلة، سيقود التخت كلّه». لم تفهم السيّدة. كانت طاووسة حاكم. ولم أردّ عليها..».

---

(١) الدفّ: هو الآلة الموسيقيّة المعروفة بالخشخش.

قلت في نفسي: «هي من أنصار التانغو إذن. . مثل امرأة عمّي».

وأردف ضابط الإيقاع: «ليلة الحفلة كنت مشمئزًا. عزّ عليّ أن أتخلّى عن الفتيات فلا أقود رقصاتهنّ، ولكنّ الحركات الطاووسيّة لبعض سيّدات الجمعيّة الخيريّة سبّبت لي غثيانًا. كنت في الكواليس، وراء المسرح، وقبل الحفلة بساعة أجرينا الإعادة الأخيرة. كانت سيّدة تمسك ورقة ما، تذهب وتجيء منذ الظهر، مع أنّ موعد إلقاء الكلمة في المساء. وفي صباح ذلك اليوم جرى توزيع الهدايا على الأطفال الفقراء، ويا للزحام للظهور في الصور. . . كلّ سيّدة أمسكت هديّة وتصدّرت الصورة وهي تقدّمها لطفل. إلى الجحيم كلّ ذلك. كان اشمئزازي يزداد، وطلبت من السيّدات الابتعاد عن الكواليس قليلاً، لإتمام الإعادة وضبط الرقصات، ولكنّهنَّ انحشرن كلّهن هناك. كنّ يذهبن، ويجئن، وليس من شغل لهنّ. . . وكانت صاحبة الورقة تنشرها مرّة، وتستعملها مروحة أخرى، وتقطع المسرح، ولا جمهور، وهي تقرأ في ورقتها اللّعينة، فتعطّل الرقص أو تثير الهزء. . . وكانت الإعادة مهزلة. خمس فتيات بدينات، حُشِرن بين الراقصات، ترضية لأمهاتهنّ اللّواتي هدّدن بترك الجمعيّة. احتججت على كثرة العدد، فتقدّمَتْ زوج الحاكم وأمرت فتاتين بمغادرة الحلقة. . . كانتا أبرع الفتيات رقصًا،

ومديرة المدرسة لم تستطع إبقاءهما، ونظرت إليّ، إحداهما، وهي تهمّ بمغادرة المكان.. وعندئذٍ تدّخلتُ. أعدتهما. بإصرار فعلتُ، وقيل لي، تلك اللّيلة، إنّني ضربت أفضل إيقاعاتي، وإنّ الدفّ كان يتوثّب بين يديَّ، وأصابعي، كلّ عقلة فيها، كانت توقّع أنغامًا ساحرة، وأنا أنظر باتّجاه وجه، وأنفعل كلّما قابلني ذلك الوجه.

«ضابط الإيقاع يخترع ـ قلت في نفسي ـ وقع، هو أيضًا، ضحيّة وهم؟ قصّتانا متشابهتان. أنا أيضًا كنت أرقص وأنظر إلى جهة معيّنة، إلى وجه معيّن، وكانت أسطورة الخيّاط في ذهني، وها هي في ذهنه.. لقد سحَرنا كلينا». هممت أن أقول له ذلك، وكدت أفتح فمي، وأنا أنظر إليه مشدوهًا، ومن هيئتي ينبعث تساؤل ملحاح، متوسّل. لكن ضابط الإيقاع كان يحرّك فمه بالكلام، ومن البئر يأتي صوته ذو البحّة المنغومة:

«في اليوم التّالي طلبت صاحبة الوجه فما وجدتها، لا في المدرسة ولا في الجمعيّة وجدتها، ومديرة المدرسة تغابت وسخرت منّي، وزوج الحاكم لم يعد لي إليها سبيل، ولا أحد يعرف من كانت تلك الفتاة، ولا أين توجد، ومثلك، طوَّفت الشوارع، وحدَّقت في النّوافذ، وتجوّلت في الحدائق العامّة والمنتزهات، وسقطت مريضًا، آخر الأمر».

«أُدْخِلْتُ المستشفى للمعالجة. لم تكن بي علّة ظاهرة.

الطبيب قال إنّ لديّ فقر دم. عالجوني ببعض المقوّيات، ونصحوني بالإكثار من الرياضة، والتنزّه، وقراءة القصص المسلّية. أخيرًا أُرْسِلْتُ إلى أحد المصحّات، وهناك تابعوا تقويتي، وتركوا لي حرِّية التجوال في حدائق المصحّ، لأنّ مرضي لا يستدعي البقاء في السرير.

«تصدّق يا بني أنّني رأيت ذلك الوجه، في ذاك المصحّ؟ نعم رأيته.. كان بين أشجار السرو، وأدغال الياسمين واللّيلك، تمثال نصفي لامرأة راكعة، مقام على قاعدة حجرية عالية. وكنت قد مررت به كثيرًا فلم آبه له. ثمّ واجهته يومًا.. التقت عيوننا، فأحسست بيقظة تنتظم جسمي وعقلي وتذكّرني بصاحبة الوجه.. كانت هي بعينها، منحوتة ومتجمّدة في المرمر.

مكثت عندها قليلاً. مسحت على خدّيها براحتي، داعبت شعرها، عاملتها كما لو كانت حيّة بقربي. ثمّ انتبهت إلى نفسي وإلى تصرّفي فغادرتها إلى غرفتي. حين تكون في كتابك، تحت وسادتك، صورة من تحب، تسحبها حينًا بعد حين، تنظر فيها، تبكي لها، تضحك، تناجيها، تقبّلها، تعاملها كما لو كانت حبيبتك نفسها. وكذلك حدث لي. صرت أزور التمثال، أقبِّله، أناجيه، وأستشعر الهدوء والراحة بقربه. ثمّ واتتني فكرة: لماذا لا أوقّع له على دفِّي؟ تملّكتني الفكرة واستبدّت بي. لم أنفّذها فورًا. كان دفِّي

بعيدًا، ومن المستحيل أن أطلب إحضاره، أو أصارح أحدًا بما اعتزمت. خشيت أن يثبّتوا جنوني. . . وبعد ظهر أحد الأيّام، هربت من المستشفى واشتريت دفًّا. . خبّأته تحت سترتي، وأخفيته تحت سريري. وفي اللّيل، في ضوء القمر، تسلّلت من النّافذة وذهبت إلى الحديقة. وهناك، أمام تمثالها، وبحرص شديد على ألاَّ يسمع أحد، ضربت إيقاعاتي. فعلت ذلك كما لو في الحلم. عشت حفلة الجمعيّة من جديد: الألحان والرقصات والثياب والقدود والحركات، الوجوه. . . كلّ شيء، كلّ ما صار، في تلك الحفلة، بُعث أمامي. بُعثت هي أيضًا. رأيتها بين الراقصات، فاندفعت إليها. . لكنّني واجهت التمثال، وكانت يداي تمسكان بذراعيه. . بالحجر البارد، تسلّلت عائدًا إلى غرفتي. كنت متعبًا، ضائعًا، وبثيابي استلقيت على فراشي. من حظّي أنّ زميلي المريض غادر الغرفة ذلك اليوم، وبقي سريره فارغًا. كنت وحيدًا، وبوسعي أن أبكي أو أضحك أو أفعل أي شيء يهدّئ أعصابي. وجدت الراحة في الأنين، فتراخى الجسد، ورفّ نعاس فاستسلمت إلى خدر لذيذ. نمت؟ لا. . كانت عيناي مفتوحتين. وفي فضاء الغرفة طيف أبيض يلامس الأرض أو يكاد، ويمضي، مرسلاً ذراعيه في حركات إيقاعيّة، يدور على نفسه، ويضمّ الساعدين إلى الصدر ويفردهما، ويصنع من أصابعه شموعًا بيضًا، ويرسم بها تهاويل، وأنا أتابعه، دهشًا، معقود اللّسان، لا أصدّق ما

أرى. فلمّا استطعت الجلوس، خفق بذراعيه، وارتفع إلى حافة النّافذة وانسرب كالدخان الأبيض. لم أتمكّن من اللّحاق به، فجعلت أراقبه. كان مثل السحابة، مثل الحمامة، وقد تهادى وحوم، ثمّ حطّ على قاعدة التمثال.

راجت في المصحّ إشاعة تقول إنّ المرضى سمعوا ضربًا على الدفّ، وغناء موشحات تلك اللّيلة، لكنّ أحدًا لم يذكر أنّه رأى طيفًا أبيض. وحدي الذي رأيته. ولم أقل لإنسان. كان ذلك قمينًا بجْعلي هزأة. غادرت المكان بعد أيّام، وقصصت الواقعة على الخيّاط، فأكّد أنّ ذلك لم يكن وهمًا، وأنّ فتاة التمثال خرجت من الرخام، وأنّي، لو تابعت العزف لها، لبعثت الحياة فيها».

ـ ٦ ـ

عاد الخيّاط بعد أسبوع فأزمعت الذهاب إليه. لكم تعذّبت في غيابه، وحاولت نسيان الرقصة والصورة كليهما. خُيّل إليّ بعد قصّة ضابط الإيقاع، أنّ الأمر قد توضّح: أسطورة الصورة نسج على أسطورة التمثال، وهذه نسج على أخرى مثلها. وهمٌ تفرّع عن وهم، ولا شيء غير ذلك. لكنّ السفينة المضطربة في الموج، لا تبقى في اتّجاه واحد. سرعان ما أقنعتني قصّة ضابط الإيقاع بقصّة الخيّاط، وما دام الرقص هو الوسيلة الوحيدة، كما كان العزف هو الوسيلة الوحيدة، فعليّ أن أرقص، حتّى تخرج الصورة من الصورة، كما خرج التمثال من التمثال. ليحدث ذلك مرّة واحدة ــ قلت في نفسي ــ مرّة واحدة على الأقلّ، وبعدها أسافر، وأنسى مع الأيّام.

كان الخيّاط قد صار إنسانًا عزيزًا عليّ. وما إن سمعت بعودته حتّى داخلني سرور وهدوء، وكأنّما رؤيته هي التي أبتغيها لذاتها. وقد ندمت على ما راودني من شكّ في أمره، مبعثه الحلاّق العجوز. وهكذا قصدته قبل الظهر، على أمل أن نتحدّث، ونحدّد موعدًا لاستئناف الدروس.

كان بيته في الطّابق الثّاني لبناء قديم. الطّابق الأوّل قبو مهجور كما بدا لي في الزيارة الأولى. بابه قنطرة حجريّة معقودة على شكل قوس، ووراءه امتداد مظلم. وكان الباب خشبيًّا، فيه شقوق يظهر منها نثار التبن، وإلى جانبه، بالحجم والشكل نفسيهما، باب خشبي آخر، كنت قد رأيت حمارًا معقورًا يخرج منه، يشدّه صاحبه من رسنه ويشتم، وفي الوسط مدخل حجري، يتصاعد منه درج تآكلت بلاطاته، يؤدّي إلى بيت الخيّاط في الطّابق الثّاني، الذي يتألّف من غرفة مستطيلة، تُستخدم للنوم والطبخ والجلوس، وفيها الحلبة التي رقصت فيها، ومقابلها، وعلى جوانبها، غرف يسكنها آخرون، ويستخدمونها للأغراض نفسها.

لفتتني في غرفة الخيّاط نافذة تطلّ على باحة القبو الذي تحته؛ ولأمرٍ ما، أثارت النّافذة اهتمامي، خاصّة وأنّ زوجة الخيّاط نهتني عن الإطلال منها بحركة تنمّ عن استهانة أو عدم رضى، فلمّا غافلتها وضبطتني أحاول الإطلال، قالت بصراحة زاجرة «لا تنظر إلى تحت»، فاستثارت بذلك فضولي إلى أقصى حدّ.

تصوّرت عالم القبو في لوحة يشكّل الحمار الذي رأيته جزءًا منها، ويشكّل الأطفال، بكلّ ما في الأحياء الفقيرة من فقر، جزءًا آخر... وبينهم أمّهم، وطفل رضيع يحبو في التراب، ودجاجات وكلب. وكان تصوّري هذا ناشئًا عن لوحة أخرى رأيتها أو قرأتها في كتاب ما.

ولقد حرصت أنا، منذ نهتني زوجة الخيّاط عن النظر من النّافذة، على ألاَّ أخالفها، لكنّ القبو وباحته وعالمه ظلّ يستثير صورًا غامضة مشوّقة في ذهني، فما إن أَمُرَّ في الزقاق، وأنا في طريقي إلى بيت الخيّاط، حتّى تأخذني رغبة في النظر من شقوق الباب الخشبي، لأعرف ما في باحة القبو، واكتشف السرّ الذي من أجله منعتني زوجة الخيّاط من النظر إلى تحت.

وحدث، يومًا، وأنا أقصد الخيّاط مبكرًا، أن رأيت، لأوّل مرة، واحدًا من سكّان القبو. كانت امرأة تقف على بابه. وقد نظرتْ إليَّ، من بعيد، وبتقصّد، وخيّل إليَّ أنّها ابتسمت. لم يكن أحد سواي في الزقاق، وروّعتني نظرتها المتفرّسة، المثقلة بإغراء شهيّ، فلمّا اقتربت منها انسحبت إلى الدّاخل وواربت الباب وظلّت خلفه مترصّدة.

تجاوزتها ببطء، وكدت ألج القوس الحجري لأرقى الدرج حين انعطفت فجأة برأسي نحوها. كانت، كما توقّعت، قد أخرجت رأسها إلى الزقاق، وأتاح لي القرب أن أستوعب طلعتها، وأرى عينيها السوداوين اللّتين تغزلان ألقًا أنثويًا. تأكّدت أنّها كانت تترصّدني، وتراقب ما إذا كنت سأصعد إلى بيت الخيّاط، وأحسست بنوع من الحدس، أنّها تناديني دون أن تتكلّم.

لم أجد الخيّاط في البيت، ولم يسؤني ذلك. هذا ذريعة،

أمام نفسي، للعودة ثانية. سأجتاز الزقاق مرّة أخرى، وقد أجدها على الباب. لسوف أرصد الباب. لن أطرقه. لا أملك الجرأة. هو يناديني. نداؤه تبقّع على ظهري. العين، تلك، نفذت إلى قلبي. رأيت قميصها. ليلكيًّا كان، وتحت اللّيلك؟ النّافذة تطلّ عليها. آه لو بوسعي أن أبقى وحيدًا في الغرفة. زوجة الخيّاط تُظهر لي كثيرًا من اللّطف والحفاوة. تعتبرني تلميذًا ذا فائدة، ولذلك دعتني إلى الجلوس، مع أنّها لا تعرف أين ذهب زوجها ولا متى يعود. أطلب منها ماء؟ لن تغادر الغرفة لإحضاره. الجرّة هنا والطاسة، وهي أمامي، على الخوان، تسدّ سبيلي إلى النّافذة. «لا تنظر إلى تحت»! وماذا تحت، إذن، يا معلّمتي؟ أتحسبينني جاهلاً؟ لقد رأيتها، فمن تكون؟ زوجة صاحب الحمار؟ آه يا معلّمي، أنا في مثل وضعك، بل أسوأ منك حظًا. أنا ممنوع من النظر عبر النّافذة، ولن أحظى برؤية الذين في القبو... لم أعد أفكّر بالحمار واللّوحة الشعبيّة. حزمة العشب لم تعد تشغلني. باقة ورد، أربطها بخيط وأدلّيها. لتأخذها ولتهزأ بي بإخراج لسانها. هي تعرف أنّي هنا. تتوقّع أن أطلّ عليها من النّافذة، سيّدة البيت تسدّ بجسمها النّافذة، ما بقي هو أن أذهب، ولكنّي سأعود.. أعلم أنّي سأعود. فلأنصرف الآن..

انصرفت.. نزلت الدّرج الحجري وأنا أخبط قدمي. لعلّها في الطّابق الأرضي، تسمع الخطى فتلاقيني.. ها أنا

على العتبة، خطوة وصرت في الزقاق. . الباب مغلق تمامًا.

توقّفت لحظة. تردّدت فيما أفعل. مضيت، وشيء ما، في التّينة التي على جدار بيتها الخارجي، خشخش، التفتُّ. لا أحد. لا عصفور: وَهْم؟

في البيت كان والدي قد تصدَّر مائدة الغداء والتهم طبقه الأوّل. «رئيس القلم» كان إلى جانب شقيقتي، ومن جنح الدجاجة المطبوخة انتزع عظمة رفيعة ذات فرعين فاقتسماها وتراهنا في لعبة التذكّر. كانت والدتي أكثر سرورًا به من شقيقتي، فهي تتقبّل ملاطفاته ومدائحه للطعام بكثير من الاعتبار والتقدير. وكان الوالد يختزن ملاحظاته إلى حين حضوري. وعندما جلست في مكاني الفارغ خيّم صمت. وجهي عبّر عن رفض للمزيد من الكلام حول «رقصة الخنجر»، فانصرف الحديث إلى موسم الزيتون، وخبث الفلاّحين وسرقاتهم. قال والدي: «سأرى قائد الدرك اليوم في الكازينو، وأقول له إنّ رجاله ينامون، بينما كرومنا تُنهب، وإنّ وكيلنا ضبط فلاّحة تمرش الزيتون في طرف الكرم، فضربها، وحبسها، ثمّ سلّمها إلى الدرك، وبعد أيّام أطلقوا سراحها. . هذا تهاون»!

قالت أختي مستنكرة: ضربها؟

قال رئيس القلم: والضرب لم يعد يكفي.

قال والدي: اقطع يد الفلاّح اليوم تفرّع غدًا.

أكّد رئيس القلم: نعم تفرّع.

تساءلت أختي: ولكن لماذا؟ لأجل حفنة زيتون؟

ـ يادست[1] صاح رئيس القلم.

ـ برافو، قالت أمّي، ربحت.

ـ نحن أطعمنا الفلاّحين، قال والدي.

ـ هذا صحيح، قالت أمّي.

ـ وإذا لم نضع لهم حدًّا؟ أردف رئيس القلم محرِّضًا.

قال والدي مستثارًا:

ـ سأتحدّث غدًا مع المستشار..

أوضح رئيس القلم:

ـ وسيفهم عليك أكثر من قائد الدرك.

قالت والدتي:

ـ قد نجده اللّيلة في الكازينو.

ـ في حفلة الرقص، أجاب رئيس القلم.

قال والدي:

---

(١) كلمة فارسيّة تعني غلبتك.

ـ وربّما لقيته على طاولة البريدج. . (والتفت إليّ) بودِّي أن أقدّمك إليه. .

قال رئيس القلم:

ـ سيكون سعادته مسرورًا بالاستيضاح منه عن رقصة الخنجر.

ـ سعادته معني بالتانغو أكثر. . وسيكون سعيدًا بمراقصتك!

صاح والدي:

ـ لا أسمح، لا أسمح.

امتقع رئيس القلم، وبحركة مسرحيّة نزع الفوطة وأشعل سيكارة ونهض عن المائدة. والدتي لحقت به. شقيقتي واصلت طعامها. الوالد أصدر أمره:

ـ ستعتذر إليه.

«في الماضي كانوا يتبارزون. نبالته أهينت. حسنًا نتبارز».

ـ أريدك أن تعتذر إليه.

«في أيّ عصر نحن؟ فلاّحة وحفنة زيتون. . . مستشارنا يلعب البريدج، يتفضّل فيراقص النساء في الكازينو. يشرب الأنخاب ويرتّب بعض القضايا. سعادته حارس كروم».

ـ أقول لك اعتذر إليه.

«الأفضل أن يلحّ والدي في طلب الاعتذار وأمعن أنا في رفضه».

ـ ألا تعتذر؟

«هل يسمع رئيس القلم؟ أرجو أن يرفع والدي صوته».

ـ منذ متى هذا العناد؟ أتهين صهرك بحضوري؟

«ما دام قد ذكر الإهانة فالصّمت يعني تأكيدها. سأظلّ صامتًا. في وسع والدي أن يضربني، لكنِّي سأظلّ صامتًا».

ـ قلّة أدب!

«لا بأس.. هذه تفيد أحيانًا».

قال والدي وقد بلغ قمّة ثورته لأجل «كرامة» صهره المقبل، وبدأ يبلعها مقهورًا:

ـ مصيبة!

ثمّ ألقى بفوطة المائدة على كرسيه وانسحب إلى الصالون يدخّن، وبقينا أنا وشقيقتي ساكتين، نتابع طعامنا، ونتبادل النظرات من طرف خفِّي. لو تكلّمت أختي، واستشعرت أنّني مسستها بإهانة خطيبها لاعتذرت إليها، الأخوّة وحدها لا تشفع في هذه المواقف. لقد أهنت خطيبها. خطيبها المفروض أن يكون حبيبها أيضًا. وسكوتها كان تعبيرًا عن

محبّتها لي، فهل هو كذلك بالنسبة إليه؟ أشكّ. أختي مثل أمِّي. تتزوّج بدون حب. أبي رضي، فرضيت هي. عالمها الداخلي راكد مثل بركة ماء، وها أنا ألقي فيه حجرًا. شكرًا لبعض الأحجار.

فرغت من طعامي وأنا أصطنع اللاّمبالاة نكاية. مررت في الصالون إلى الباب الخارجي دون أن ألتفت إلى الجالسين فيه. كان رئيس القلم يقول لوالدي بصيغة تخفيف للإهانة:

ـ هذه أَخلاق شبيبتنا اليوم!

لم يردّ عليه والدي. كان غير قادر على هضم هذا العصيان لإرادته.

في الطريق صادفت ابنة عمِّي. اضطربت وهي تواجهني بعويناتها الطبيّة. أبلغتني أنّها ذاهبة إلى شقيقتي هربًا من درس «المايسترو». كانت العبارة جاهزة على شفتيها، كأنّها هدِّية تحملها إليّ. أظهرت عدم فهم لموقفها وعدم اكتراث به. سلبيّتي امتصّت حماستها، أطرقت وغاضت فرحتها. تقاربت كتفاها فتقوستا. أخذتني عليها شفقة فدعوتها للسير معي في نزهة قصيرة، وبغير كلام وافقت. بدت مستسلمة منكسرة، ولم ترفع رأسها إليّ كأنّها تخشى ذلك، وهذا ما جعلني أضجر، وأسير معها وكأنّني وحدي.

ـ ٧ ـ

استأنفت أخذ العزف عن الخيّاط. كنت أرقص أيضًا، وسألته عن ضابط الإيقاع دون أن أطلعه على حديثي معه. قال لي: «هذا فنّان»، وأضاف بعد أن هزّ برأسه «الآن لا شيء»، وأردف «خسارة»!

وقلت «أصابعه ماتت»، فلاحظ «لم تمت.. أنا لا أؤمن بموت الإنسان ما دام حيًّا.. أعني ما دام قادرًا على ألاَّ يموت». «ولماذا لا تقول له هذا»؟ «قلته.. نصحته، ولكنّه لا يريد». «لا يريد ماذا؟» «أن يحيا».

تجنّب، بمهارة، أن يلامس الوتر الذي أغريه بالعزف عليه. كان أميل إلى الكلام المتقطّع، وقد تغلّفت رقّته بقشرة من القسوة الناشئة عن همّ داخلي. وقال لي وهو يبتسم مشفقًا:

ــ حسبتك لن تعود إليّ. لقد ضايقوك، أليس كذلك؟ كنت أتوقّع هذا..

ــ يريدونني أن أتعلّم عند المايسترو..

ـ ولماذا لا تفعل؟

ـ لا أحبّ المايسترو..

ـ أواثق أنت من ذلك؟. رقصة الخنجر نزوة بالنسبة إليك. غريبة عليك وعلى جوّك، وستجلب لك متاعب. أقدّر ظروفك، وأعذرك إذا تركتها.

«هو أيضًا يريدني أن أتركها، ولماذا إذن؟ وما الصعوبة فيها؟ أيّة متاعب ستجلب لي؟ يخاف عليّ؟ على نفسه؟ يعمل لإبعادي عن الحيّ؟ قالت له زوجته إنّني حاولت الإطلال من النّافذة؟ ماذا وراء النّافذة؟ وتلك المرأة بقميصها اللّيلكي؟ والأسطورة؟ والصورة؟».

وقال الخيّاط: «يا بنيّ، القناعة بالشيء لا تكفي للإقدام عليه. الجرأة أيضًا. تحبّ رقصة الخنجر؟ تحبّ امرأة؟ تحبّ أن تعمل شيئًا مفيدًا؟ الرغبة، حين تتحوّل إلى عمل، تصطدم بالرفض، بالممانعة، بصعاب كثيرة. بعض النّاس لا يقوى على مواجهة الصعاب، لا يجد لذّة في ذلك أو لا يستمرّ.. وقد تكون واحدًا من هؤلاء، ومن واجبي أن أنبّهك. تستطيع أن تذهب إلى المايسترو، وتتعلّم على النوتة، وترضي أهلك، وتفعل ما يفعلون. أنا ليس لديّ نوتة، ولا أحبّ النوتات المكتوبة لإدخال السرور والهدوء والرّاحة على قلوب مستمعيها. رقصة الخنجر لا نوتة لها، مثل ريح

العاصفة. . وأنا أحبّ هذه الريح، وأكره الهواء المكيّف، هواء المراوح. . ».

كان الخيّاط صادقًا. وكنت أعرف أنّه ينصحني بصدق، ولكنّه كان معذّبًا بشيء لا يريد أن يفصح عنه، ونقمة تلوّن كلماته. لو قال لي: «تمرّد على أهلك» لطاوعتهم. لو قال لي: «رقصة الخنجر أجمل من رقصة التانغو» لأثار ريبتي. ولو أنّه أشاد بمعزوفاته واحتقر «النوتات» لقلت إنّه مخادع. . إنّ له قصّة، هذا الإنسان، مثل ضابط الإيقاع ومثلي. . . تراه يحبّ صاحبة القميص اللّيلكي؟

ـ انتظرتك بشوق (قلت له) أين كنت هذه المدّة؟

ـ في الصيد.

ـ ولماذا لم تخبرني؟

ـ كنت تأتي معي؟

ـ بل أنا الذي فكّر بدعوتك إليه.

ـ وأهلك؟

«أهلي يكرهونك. أنت تعرف هذا، وتكرههم بالمقابل، ولكن لماذا، يا إلٰهي هذا العداء المتبادل؟»

ـ «أهلي لا يوافقون طبعًا، ولكن أنا أريد. . لسوف نذهب إلى الصيد معًا، ذات يوم.

ـ وسأكون مسرورًا . . إنّما لا تستطيع أنت. . اسمع. . هل تحبّ الفلاحين؟

ـ أحبّ بعضهم. . قرأت عنهم في الكتب.

ـ يعني نحبّهم في الكتب، طبعًا. . كثيرون يحبّون الأشياء في الكتب، ماذا يقولون عنهم في بيتكم؟

أخبرته فلم يدهش. سألني عمّا فعلته خلال غيبته. فتح لي الباب، فقرّرت أن أسأله بدوري:

ـ هل قصّة الصورة حقيقيّة؟

ـ ربّما. . الأسطورة حقيقيّة وغير حقيقيّة أيضًا.

ـ وهل خرجت صاحبة الصورة من الصورة؟

ـ خرجت.

ـ وهل يخرج صاحب التمثال من التمثال؟

ـ هذا يحصل.

ـ كيف؟

فابتسم وهو يقول بجدِّية:

ـ قلت لك مرّة إنّ الباب يُفتح لمن يقرعه. تذكّر هذا. الآن، هيّا إلى الدرس. . .

لم أرقص هذه المرّة. أحببت عزفه ورجوته أن يستمرّ.

«أنا لن أتعلّم العزف. لسوف أرقص. من يقرع الباب يُفتح له. سأقرعه إذن. سأرقص للصورة حتّى تخرج من الصورة، وسأمرّ بالزقاق حتّى أكتشف سرّ صاحبة القميص اللّيلكي».

ثلاثة أيّام مضت وبابها مُغلق. مررت بالزقاق، في طريقي إلى الخيّاط، وفي طريقي إلى الأحياء الفقيرة. مررت بدون هدف، لأجل الزقاق وحده، لكي أراها، وبدوت متسكّعًا يلفت النظر وهو يحوم حول قبو لا يعرف عن سكّانه شيئًا، ولم ير من الذين فيه سوى الحمار والمرأة.

ولقد أرهقت ذاكرتي في مقارنة تلك التي رأيتها تبتسم وأنا أرقص بالتي رأيتها على الباب وأنا أعبر الزقاق، ولم أصل إلى نتيجة. كانتا جميلتين ومختلفتين. ابتسامة الأولى والقميص اللّيلكي للثانية. استشعرت انفصامًا في ذاتي حيالهما. روحي تهيم وراء صاحبة الابتسامة، وجسمي يصرخ بنداء جنسي نحو صاحبة القميص. كنت أريدهما معًا، وأحتاجهما معًا، وأعلم أنّ أيًّا منهما لا تكفي بديلاً للأخرى.

في اليوم الثالث، بعد الظهر، قُدّر لي أن أراها. كانت على الباب، في ذلك القبو الذي استهوتني اللّوحة التي رسمتها له مخيّلتي. كان في الباب ثقب، وفي جدار الحوش ثغرة، وفي التينة فوق الجدار، كنت أسمع خشخشة، فهل كانت خلال هذه الأيّام تترصّد تردّدي على الزقاق وتعرف

مواعيده؟ وهل وقفت حيث هي اليوم متعمّدة لأمرّ بها وأحيّيها؟

حزمت أمري وحيّيتها.

التحيّة فقط؟ يا قلّة التجارب! وحتّى هذه، جفّ لها حلقي، وقد لا تكون سمعتها. ماذا يقول والدي، و«رئيس القلم» وامرأة عمّي، لو نُمي إليهم أنّ ابنهم تجاوز خطيئة أخذ الموسيقى عن الخيّاط وخطيئة رقصة الخنجر، إلى خطيئة ولوج أقبية مظلمة، عفنة، يتجاور فيها التبن والحمار والإنسان؟

«. . كان جدّك. . اسمع. . أنظر إليه. . كان قنصلاً فخريًا. تعرف ما هو القنصل الفخري؟ كان لا يمشي على الأرض، وعلى درج السراي يتقدّمه قوّاص ليفتح له الطريق. الوالي بنفسه كان يقف له قائمًا؛ وجَدّتُك لا تدخل فراشه إلاَّ من أسفل السرير. كان يفكّ مشنوقًا، وعلى بابه، على بابنا هذا، يُقبل النّاس، كالغنم في الظهيرة، بانتظار أن يخرج ويحظوا منه بلفتة، أو يصغي، وهو يسير، إلى شكاواهم. . ثمّ هذا أنا. . وهذه الأملاك، وسمعة هذا البيت، ومكانتي في المدينة. . أتقدِّر ما هي المكانة؟ ما أظنّ. . إلى النّار فولتير وروسو ومونتسكيو. أرسلتك للحصول على شهادة، لا لتقرأ هؤلاء الأوغاد. . أنت حفيد هذا الجد. . اسمعْ. انظرْ إليه. . إكرامًا لذكراه. . أقول لك إكرامًا لذكراه. . لا تعذّب

روحه، لا تلوِّثها، لا تجعلني أخجل بك أمامه يوم القيامة، لا تدعني أحني رأسي وأنا أمرّ أمام صورته. . يا بنت هاتي الياقة وتعالي اربطي الصبّاط. . قولي لستّك حين تفيق أنا بانتظارها في الكازينو. . سنتعشّى هناك. . البسطون يا بنت. . سأتركك مع جدّك الآن. قل لي بماذا يوحي إليك؟ تأمّل وجهه. . وفكّر أنت، حفيده، كيف تتصرّف تكريمًا لذكراه».

جعلت أذهب في الزقاق وأجيء. .

الباب موارب. وهي وراء الباب. . جدِّي لم يعرف هذا الزقاق. . وأبي لم يطأ عتبة كهذه. لو رآني لصعق. قد أتسبّب له في سكتة قلبيّة. «هل أخون ذكراك يا جدِّي إذا دخلت؟ وقميصها اللّيلكي؟ أيّهما أجمل: قميصها أم ياقتك يا جدِّي؟».

اهتزّ الباب. انشقّ قليلاً. دعوة إلى الدخول. قد تكون الريح. . مضيت في الزقاق إلى آخره، وعدت وأنا أرتجف. «عفوك يا جدِّي، حفيدك سيخون ذكراك. القميص اللّيلكي أشدّ فتنة من ياقتك اللّمّاعة. الفرقة التي أفلست وباعت آلاتها الموسيقيّة تتشرّد الآن. أنت لم تعرف التشرّد. كنت لا تمشي على الأرض، ولم ترقص رقصة الخنجر، وستّي كانت تدخل سريرك من ناحية القدمين. كيف كنت تداعب نهدها؟ بقفّاز؟ وحلمته، تأخذها بملقط؟ آه يا ستِّي المسكينة، كنت

ضحيّة القنصلاتو الفخرية. كان ذلك زمن القنصليّات. كنتِ تنامين مع فرمان السلطان.. وحبلتِ منه، وولدتِ فرامانات صغيرة.. وكان عليّ أن أكون فرمانًا، أضرب الفلاّحين وأرقص التانغو، وأنحني للمستشار، وأدير ظهري للقميص اللّيلكي، وأمسك الحلمة بملقط، واستوحي الياقة اللّمّاعة وجلد الغبغوية المترهّل كفخذ امرأة في السبعين».

في فتحة الباب كفّ. انطبقت الأنامل على الكفّ. لم يبق لي خيار. قدمي أجرأ منّي. قد كنت دائمًا، في تصرّفاتي، مدينًا لقدمي.. هل فكّر أحد، قبلي، بأن يشكر قدمه؟ ولماذا إذن، على الجدران، لا تعلّق للقدم صورة، ولا يقام لها في الساحات تمثال؟

قال والدي: «في عائلتنا لم تزلّ قدم بأحد»! المصيبة، يا والدي، أنّ أقدامنا لم تزلّ. العائلة كلّها فرس كريم تلاقح بعضها من بعض حفاظًا على أصلها. نحن دودة وحيدة ينكح رأسها ذنبها وبالعكس. شرفاء مثلها، وطفيليّون أيضًا. نعيش في بطون الآخرين، ونسبّب لهم المتاعب، ونثير غيظهم واشمئزازهم، وسنسقط، يومًا، في الماء الحارّ، ونُلقى في البالوعات فتجرفنا مع الأقذار.. ونكاية بعائلتنا، وبجدّي، وبالقنصلاتو الفخريّة، زلّت قدمي.. زلّت، زلّت.. دخلتْ بي القبو، وتوقّفتْ حيرى.

مستطيل من الأرض، على نصفه، من ناحية الشرق،

جدران ذات فوهات كهفيّة. وحدي في المستطيل الحجري المترب. كنت قد أغلقت باب الدّار ورائي. صرت محجوبًا عن عيون المارّة. القدم عاودها التردّد. إلى أيّ فوهة أسير؟ وأين ذهبت صاحبة القميص اللّيلكي؟ قد تصرخ إذا اقتحمت البيت، ومن نوافذ الطابق الأعلى، من نافذة الخيّاط أو غيرها، يطلّ النّاس ليشهدوا فضيحتي. سارق، زانٍ، منتهك حرمات. «يا جدّي العزيز مجدك في خطر، عرفت إحساسًا كالذي أعرفه الآن؟ قد كانت الدودة الوحيدة تضاجع غير نفسها.. وكانت ستّي لا تدخل فراشك من ناحية القدمين، والشمس تغيّر مسارها، تهبط بجلالها ككرة ضوئيّة، وتدخل أحد هذه الكهوف، وتبدّد، مرّة، هذا الظلام».

يدي في جيب بنطالي. تقوّس كتفاي ووجب قلبي: المغامرة، والتوفّز الذي يسبقها، ورعدة كالتي تصيب مقتحم غرفة امرأة في منتصف اللّيل. «ليتك يا جدّي جرّبت اقتحام غرفة امرأة في منتصف اللّيل، بدون عصاك المفضّضة، وبدون قنصلاتك الفخرية، هكذا، مثل حفيدك، مثل الإنسان الذي يتحوّل إلى عصب متوتّر، وأمامه، حين يتخطّى العتبة أو يقفز من النّافذة، جسم عاري الكتفين، عاري الأطراف، حارّ، فاتن، لكنّه مرعب ومثير، وعلى فراشه تحوم أشواقك التي جُنّ بها الخوف، وأنت ترتعد ولكنّك، عن طيب خاطر، مستعدّ أن تدفع حياتك ثمنًا لاحتواء الجسم الذي

أمامك، والدخول معه في معركة قبل أن يهمد، مرتعشًا، محمومًا، متقطّع الشهقات، قبل أن يختلج ويغيب بين ذراعيك، ويجرّك معه إلى اختلاجة الغيبوبة».

تلقّفتني أوّل فوهة في الجدار الكهفي. كان داخلها مظلمًا بأكثر ممّا قدّرت. وتحرّك هيكل في انحناءة الجدار، وصدر عنه شخير إنسان مصاب بالربو. كان ورائي تمامًا. لم أره عند دخولي. بدا لي أنّ ثمّة هياكل أخرى، سوداء، في العمق الأفقي للقبو. ولقد فقدت، للحظة، قوّة الحركة. كدت أصرخ، وأنتزع قدمي، لأثب خارجًا، لكن ارتباكًا أصاب جهازي كلّه. ثمّ استعدت السيطرة على حواسي وهدأ اضطّرابي قليلاً. . استندت إلى الجدار، بحيث أصبح الهيكل الربوي على يميني. حدّقت باتّجاهه محدّدًا النظر في ضغط بصري متوتّر، ومن اهتزاز دوائر الظلمة، تبعًا للحركة في وسطها، لاح لي زوال كروي أسود، يصدر عنه تنفّس يقترب أكثر فأكثر باتّجاهي. كانت يدي المدلاة على الجدار، الملتصقة به بحركة لاإراديّة، هي الهدف. وفي اللّحظة التي طالها اللّسان الممتدّ، بحرارته ولزوجته، انثالت الكفّ وهوت. . هوت بقوّة الدفاع عن النفس واستماتتها، فوق جمجمة حيّة، لم يصدر عنها صراخ، ولا نحيب، ولا ردّ فعل مضاد، وكلّ ما فعلته انتفاضة خفيفة، اهتزّت لها أذنان طويلتان، ونهض الهيكل على أربع، خارجًا من المنحنى

الجداري، وخبط بالقدم على الأرض، لينفض عنه القش، وعندئذ فقط تذكّرت وفهمت، وكشّرت في ضحكة تشنُّجيّة: كان ذاك هو الحمار، الصديق الذي فكّرت أن أدلي إليه بحزمة عشب من النّافذة.

لم أتقدّم أكثر. زايلني الخوف والرغبة معًا، وتقشّعت الظلمة عن بعض الظلال. كانت، في أحد المنحنيات، حركة.. كان شبح، ثمّ آخر، وكتم النفس، ومطّ الحمار بوزه ورفعه إلى كتفي، فانسحبت إلى الباب، وعلى عتبته وجدتها: كانت تبتسم، وحين تمكّنت، بعد المفاجأة، من تحريك شفتيَّ للكلام، وضعتْ كفّها على فمي، وسحبتني من يدي وهي تنظر إلى أعلى، إلى نافذة بيت الخيّاط.

الغرفة المواجهة لمدخل الحوش، على الطرف الآخر من المستطيل، تشبه، في عقدها الحجري، بقيّة غرف القبو، باستثناء الإضاءة. شبّاك فُتح مؤخّرًا فوق الباب، زوّد الغرفة بنور إضافي، فأصبحت صالحة للسكن، وفي وسع النظر الحاد، الفتيّ، أن يقرأ كتابًا بدون مصباح. في الصدر دولاب خشبي، وعلى الجانب سرير مقابله خوان، وبعض الكراسي كبيرة وصغيرة، والأرض إسمنت محفّر، لا بساط ولا حصير.

أجلستني على الخوان. وفي الزاوية رأيت فتاة في نحو العشرين متكوّرة، كئيبة، تنظر إلينا بغير حراك. وحالما

اكتشفتها، انتبهت إليها المرأة، وأمرتها بلهجة قاطعة:

ـ انتظريه في الغرفة الثانية. (وأشارت إلى الباب المجاور) الغرفة الأخرى مشغولة.

تمتمت الفتاة خائفة:

ـ والفراش؟

ـ فراش؟ صرخت، أما قلت لك على الحصير؟

أطاعت الفتاة وخرجت. عند العتبة توقّفت ورنت إليّ، فصاحت بها:

ـ أعجبك؟

وأضافت:

ـ هذا لم يأتِ لشيء.. زائر فقط، زائر خجول، كما ترين.

اهتزّ الكتفان امتعاضًا. خرجت الفتاة مغاضبة، وتصوّرتها تفرّ باتّجاه المدخل، لكنّها دخلت الباب الجانبي. كانت تنشج لسبب مجهول، فقامت وأغلقت الباب عليها، وبذلك انكتم بكاؤها، وسكن كلّ ما في الحوش.

سألتني وهي تعود إليّ:

ـ أخفتك؟

ـ لم أخف.. ولكنّي ما توقّعت أن يكون.. ربّما أخطأت البيت.

ـ لا، لم تخطئ. عشرة مقابل واحد كنت أراهن على أنّك ستأتي. تأخّرت. حسبت ذلك دلالاً، وفهمت، الآن، أنّه حياء.. إنّما حياؤك قشرة، لا تنظر في عينيَّ. أنا لست راهبة لتحملني على ترك الدير. حاذر أن تنظر إلى عذراء فتوقعها في الخطيئة. عيناك غير صالحتين مثل عينيَّ. تأمّل عينيَّ.. ماذا ترى فيهما؟

لم أنظر في عينيها. قال لي الخيّاط: «دخل القائد الفارس مجلسه فغضّ الحاضرون أبصارهم. كان فارسًا شجاعًا قاد رجاله عبر السهوب والجبال، وتحمّل معهم، ولأجلهم، أقسى العذابات خلاصًا من ذلّ السلطان. وكانت له عينان لا يقوى الناظر إليهما على الثبات. وفي المجلس، عند دخول الفارس، كان رجل يحدّق فيه. ظلّ يحدّق. لم ينهزم ولم يغضّ طرفه. وخيّم على الصيوان جوّ من الصمت المكهرب، ووسط الدهشة والذهول، تقدّم الفارس من الرجل وصاح به: «هيّا.. لنتبارز! لينهزم أحدنا أو يمت»، فأجابه الآخر: «لا، لا داعي لهذا، نحن من قبيلة الذكور، وفي قبيلتنا شيء اسمه صداقة الرجال... امنحني صداقة رجل لرجل.. وهذا يكفي، وعندئذٍ لا يغضّ أيّ منّا الطرف للآخر». منحه ما أراد: صداقة رجل لرجل، صار أحدهما ظهرًا للآخر في الملمّات».

تركتها واقفة ولم أنظر في عينيها. قال لي الخيّاط: «امرأة

أحبّت رجلاً . . كانت ذات عنفوان وكان ذا عنفوان. رازته ورازها. بدأ الصراع. صارت هدنة. تجدّد الصراع. تبادلا الحبّ، والصراع. تمانحا الصداقة، ومعها الصراع. كانا من قبيلتين مختلفتين: أنثى وذكر، وقد تعبا ولم يخضع أيّ منهما للآخر، فاستحال الحبّ بينهما، إلى بغضاء. كان لا بدّ لأحدهما أن يموت، وقد مات الرجل، قتلته المرأة. . حسمت الموقف، ولكن على حسابها. فقد عنفوانها قوّته بفقدانه المجابهة له. مات التحدِّي في العنفوان المقابل. ذهبت إلى قبر الرجل وقتلت نفسها أسفًا عليه. . الآن أحبّت حقًّا».

لم أنظر في عينيها، سوادهما يرهبني. وعلى الوجهين المتقابلين وضع كلّ منّا كفّه على عيني الآخر. . . «قال لي الخيّاط: أذنك غير موسيقيّة، تعلّم الرقص. قلت: «أرقص التانغو» فضحك. إذهب إلى الكازينو إذن «وأيّ رقصة أتعلّم؟»، «الخنجر» «ولكن هذه رقصة الفرسان!»، «ومن أجل ذلك أعلّمك إيّاها»، «وما حاجتي إليها؟»، «إسأل نفسك. . ».

«يا نفسي!. . يا نفسي!»، قالت المرأة: «لا تنظر في عينيْ عذراء»، «لن أنظر في عينيك أيضًا»، «بلى. . ستفعل»، «أنا أخافك»، «وأنت تخيفني». سقط الكفّان. . الوجه مقابل الوجه. . احترق الدمّ، وخفض كلّ منّا ناظريه. أحسست

بتعب شديد، كخارج من حفلة تعذيب، فنهضت واتّجهت إلى الباب.. لم تقل شيئًا.. خطوت. لم تقل شيئًا.. صرت في منتصف الباحة. لم تقل شيئًا.. وأنا على المخرج، جاءني صوتها: «أغلق وراءك الباب!!».

ولم أغلقه.. رفضت أن أغلقه!

- ٨ -

يا إلٰهي كم شعرت بالنّقمة والمهانة، وكم فكّرت في وضعي وسلوكي وعائلتي طوال الأيّام التي تلت دخولي بيت المرأة وخروجي منه مرتبكًا مهزومًا. لقد فهمت لماذا نهتني زوجة الخيّاط عن الإطلال من النّافذة، ولماذا أشارت إلى الساكنين تحت باحتقار. غير أنّ الخيّاط، مع معرفته بما يجري في القبو، لا يشارك زوجته مشاعرها. إنّه، على خلافها، يكنّ احترامًا، وربّما حبًّا، للمرأة. وهي تبادله هذا الشعور، وربّما الأفكار أيضًا. تبدو واثقة من نفسها، غير خجلة من عملها، وكأنّما لها غاية من كلّ ذلك، وكأنّها تعرف ما تريد، وتعمل لتحقيقه.

قالت لي: «اذهب وأغلق الباب وراءك». ذهبتُ ولم أغلقه. ما كنت قادرًا على البقاء، ولا على التحدّي، ولا على الرضوخ. إنّني أضيع وأنا أجوس في ظلمة عالم بائس، مجهول ومثير. ولو علمت عائلتي بتردّدي على القبو، وعلاقتي بتلك المرأة، لقامت قيامتها عليّ. كان والدي حريًا بأن يدير أسطوانته بأعلى صوتها، متحدّثًا عن أسرتنا

المجيدة، الثرية، مالكة الأراضي وكروم الزيتون، وعن جدِّي القنصلاتو، وصهري رئيس القلم، ووالدتي ذات الحسب والنسب، ويذكّرني، في مستهلّ كلامه أو منتهاه، بمكانته هو، أكبر موظّفي السراي، والساعد الأيمن للمستشار.

لقد عاشرت في المدينة شبابًا لا يفكّرون على طريقة أسرتنا، واشتركت يومًا في مظاهرة وطنيّة، وأمام السراي، وكان والدي في الشرفة يترجم للمستشار شعاراتنا وهتافاتنا، رآني فامتلأ غضبًا، وأنّبني وعاقبني، ثمّ أصدر قرارًا بنفيي إلى بيروت للدراسة، قال لي «ستكون رجل حقوق»، وردّدها بالفرنسيّة Homme de loi، وقبلت النفي غير مقتنع بذريعته، ولكنّه كان إنقاذًا لي من موقف والدي المخزي تجاه بلده.

وفي بيروت قرأت روسو وفولتير ومونتسكيو. هؤلاء أَبرز قادة الفكر في الثورة الفرنسيّة، وعائلتي معجبة بالثورة الفرنسيّة ولكنّها غير معجبة بهؤلاء. لأختي بطل وحيد: نابليون بونابرت. وفي المدرسة علّموها أنّ الجنرال كليبر من العظماء وسليمان الحلبي من المجرمين، فشرحت لها الحقيقة، وضحكنا معًا من عصبية «رئيس القلم» وهو يغضب لشرف التّاريخ.

وبرجوعي هذا الصيف، بدا أنّ هذه الأمور يمكن تسويتها على أساس التساهل في كتب المطالعة وشرف التّاريخ، لكن رقصة الخنجر وضعت المسألة على حدّها: مع أو ضدّ. هم

مع التانغو وأنا مع «رقصة الخنجر»، وعليّ أن أختار.

حسنًا! اخترت رقصة الخنجر، ولتمطر عليّ السماء حجارة. حين أفلست الفرقة الفنيّة التي جاءت بلدنا ما كنت أظنّ أنّ لديّ الاستعداد لكلّ هذه المشاكسة. اشتريت الكمان ورغبت بالعزف لأتعزّى عن شعور بالإثم يرتكبه والدي وأحمل أنا وزره. وبعد تنقّل بين العازفين وصلت إلى الخيّاط. قال لي هذا بصراحة «أَذنك غير موسيقيّة!». كانت قولته طلقة الرحمة في هوايتي للعزف. غير أنّه نبّهني إلى طاقة الحركة الكامنة في ذاتي، الساعية إلى الظهور في تعبير عنيف عن نفسها. قال لي: «أعزف بقدمك... دقّ الأرض، اثقبها!».

«ولماذا؟»، «هكذا... دعها تتنبّه». وخلال الرقص دققت بقدمي الأرض، فصاح: «أعنف»، وفعلت وهو ينتفض مع الوتر، ويصيح: «أعنف». قلت «يكفي» فزعق: «لا.. الكلبة نائمة، وعلينا أن نوقظها» أيّة كلبة هذه؟ ليس من شيء تحت قدمي، فماذا على الأرض، أو في جوفها؟ لشدّ ما رأيت الراقصين، في حلقات الدبكة، والرقصات الشعبيّة، يدقّون الأرض بأقدامهم، تُراهم هم أيضًا، يريدون، مثل الخيّاط، إيقاظها؟ في الكازينو لا يفعلون شيئًا من هذا. يطأون الأرض بهدوء، كأنّهم على صلح معها. مباركة أنت يا أرضنا العزيزة.. تعطينا كلّ ما نريد، ويمكنكِ، بعد هذا،

أن تنامي قريرة، مطمئنّة إلى انتظام سير الأشياء. هل ذنبي أنّني أدقّ الأرض؟ أزعج انتظام الأشياء فوقها؟ الفتاة، في قبو المرأة، دقّت الأرض، غضبى، وهي تغادر الغرفة. وضابط الإيقاع، دقّ السكون، في حديقة المستشفى. . النّاس، بأشكال مختلفة، يدقّون في جهّات متباعدة، ولكن على باب واحد، له ألف جانب.

أفزعني التفكير بأنّ الخيّاط ليس ساحرًا، ولا موسيقيًّا، بل محرّض. وضح رفض أهلي لكلّ صلة معه. هم يعرفونه إذن، شتمه رئيس القلم، وكذلك الحلاّق العجوز. كان على الحلاّق أن يكون معه، وعليّ أنا أن أكون ضدّه. هذا هو المنطق، لكنّني كنت ضدّ المنطق، وخوفي من الخيّاط لم يبعدني عنه، جذبني إليه، صارت كلماته أوقع، وملاحظاته تبعث فيّ فضولاً أقوى. الزقاق، الحارة، الأبنية العتيقة، الأقواس، القبو بحماره، بغرفه المظلمة، بفتاته الكئيبة، بامرأته التي أطلقتني متحدِّية، بالخرائب التي من حوله، بفقره، وتمرّده، واستهانته، وكلّ إشاراته، شدّتني شدًّا محكمًا.

يوم الأحد كنت عند الخيّاط أرقص من جديد. وجدته يأكل خبزًا وتمرًا، قال:

ـ ماذا من جديد؟ وكيف الحال مع أهلك؟

ـ ليست على ما يرام.

ـ حدّثني عن ذلك الحلاّق.

ـ وحدّثني أيضًا.. شتمك.

ـ يمكن أن ننسى الشتائم..

ـ أنا لا أنسى الشتائم..

ـ أنت صغير..

قالت زوجته:

ـ ليس صغيرًا.. رأيته..

نظرت عفوًا إلى النّافذة.. فقال الخيّاط:

ـ لا تتلصّصي على النّاس.

ـ وماذا يقول أهله؟

ـ ما شاؤوا..

ـ جدّه كان قنصلاتو..

ـ وأنت لست وكيلة عنه..

ـ ولكنّه يأتي إلينا..

ـ إلينا أو إلى غيرنا.. ما دخلك أنت؟

ـ هذه العاهرة!

قال الخيّاط:

ـ مصيبتنا ببعضنا (هزّ رأسه أسفًا وأضاف) ناوليني العود.. هيا يا بنيّ.. خذ الخنجر..

ـ لن أسمح لها بالدخول إذا جاءت . .

ـ اعقلي . . دعيها تفرح قليلاً . .

ـ العاهرة . .

ـ وأنت؟ ربّة الفضيلة؟ حارستها؟

توجّه إليّ بالكلام :

ـ تغار منها . .

أغار من ساقطة . .

ـ كلّنا ساقطون . . في قاع البئر نحن .

صار حزينًا . لم ينفعل ولكن صار حزينًا . «في قاع البئر نحن» . . وعزف . . ترك أنامله تداعب الأوتار قليلاً . قال لي : «هذا عجم عشيران» ؛ ومن قاع البئر تصاعدت آهات الاستغاثة . . الأجسام تتلّوى، تختلج، تتسلّق، تسقط، تتسلّق . تسارع الضرب، تباطأ، خفّ، تلاشى . . ظلمة . . وجه كئيب . . ليل . . ثمّ انبثق ضوء . . حيّ على الصلاة . . الفجر، وقال لي : «هيّا . . لنصعد من البئر . . إلى الرقص» .

ورقصت . .

تراكض الجيران . أطفالهم أوّلاً . الأطفال يحبّون الأعراس، حسبوه عرسًا، سمعت واحدًا منهم يقول : «هذا هو العريس!» قال الآخر : «العريس يلبس طربوشًا ولا يتحرّك» ؛ أكّد ثالث : «سيشتري لي أبي خنجرًا مثله» . . كان

يسند رأسه على حافة النّافذة، متكّئًا على رسغيه، صانعًا من كتفيه إطارًا لوجه صبوح، يكلّله شعر خرنوبي مرسل. وحاولت الزوجة أن تطردهم بسعفة نخل، فزجرها الخيّاط: «دعي الأطفال» وهذا ما شجّعهم قليلاً، فتخطّوا العتبة، ثمّ اقتحموها مفسحين المجال للكبار، متّخذين، حول الحلقة، وضع اللّقطة العائليّة أمام مصوّر شمسي.

على الباب اتكأ ضابط الإيقاع. تَأمَّلنَا بعينين سادرتين: «أضرب يا ولدي، أضرب. كلّ أصبع، كلّ عقلة في أصبع، لها دور، لها وقع، لها صدى وصوت. دع الرقّ يتكلّم، كن ضابط إيقاع بحقّ».. حييته فهزّ برأسه وظلّ سادرًا.

وعلى الخوان كان الخيّاط.. كان عوّادًا ذات يوم الخيّاط. «امرأة تتثنّى.. أنا الذي أجعلها تتثنّى.. ألمس الوتر كأنّي ألمس الجسم. الجسّة على «النوى» جسّة على الزند.. الإطباقة بجماع الكفّ على العود، إطباقة على الخصر.. ليس خشبًا ما احْتَضن.. الأوتار جوارح.. أنا سيّد تلك الجوارح»؛ ابتسمت للخيّاط، فابتسم كأنّما عاد من رحلة بعيدة. شرع يعزف بقوّة، بحضور كامل. وعلى الأثر رأيت ضابط الإيقاع يشقّ طريقه إلى الداخل.. بهدوء سار إلى الدفّ المعلّق على الجدار. أداره، هزّه، نقر عليه، سخّنه بكفّه، واتّخذ مجلسه قرب الخيّاط.. «يا مرتا أخوك لم يمت بل هو نائم»، ثمّ اتّجه إلى القبر وصاح: «اليعازر،

لك أقول: قم». قام اليعازر. فكّ الأربطة عن يديه ورجليه ومشى بين الجموع. وفي الحلقة مشى إيقاع.. من الوحدة الصغرى مشى، وهزّ الخيّاط كتفيه. خذ بنا يا ضابط الإيقاع.. آه يا ضابط الإيقاع.. يا فتنة الإيقاع! وصاح رجل عند الباب «طيّب» وصفّق طفل، وراح كهل يوقّع بقدمه، وطوّح شابّ بذراعيه، حتّى بدا أنّ اللّغط طغى على النّغم، وأفلت الأمر من يد العازفين.

شرع البنصران في رصد متقطّع على حافة الدفّ. وكدت أفقد توازني في هذا الاستلاب المفاجئ للهياج الداخلي. صار الصدى ينداح ليشكّل جوّ النّغم في استطالات مروّضة للحواس. وتلبّثت ريشة الخيّاط على القرار، على الوتر الثخين الذي كان عاطلاً، ودوره أن يجيب على أسئلة سواه. وكالطبل البعيد، كالمزهر في قافلة الغروب الصحراويّة، برز دويّه نداء مخدّرًا مع الغسق، كأنّه ابتهالات عطاش إلى الماء، كأنّه الحنين إلى طراوات المساء. غدا كلّ دنيا النّغم، كلّ التوق، كلّ حكاية القافلة، كلّ صلاتها وشوقها وتضرّعها، كلّ عذابها ورجائها، كلّ حضورها وغيابها في الرمل.

تسمّرت في قلب الحلقة. انقلب رقصي إلى رياضة صينيّة وثنيّة التعبير. تتقلّص العضلة، ثمّ تتوتّر، ويتصاعد توتّرها، حتّى يصل إلى غيرها، فتهمد هي، وتبدأ تلك، والجسم يبذل

كلّ طاقاته ليمدّ هذا التوتّر الزاحف بالطاقة التي يبلغ بها شموليّته.

خالست الخيّاط النظر فألفيته مكدودًا هو الآخر. كان بنصره يحزّ على الوتر ويده ترتعش ليصعد بالنّغمة ويثبتها ويطيل دويّها الذي يتطلّبه الإيقاع. امتصّ الدويّ المزهري لغط الحضور وكبح مشاعرهم. سكن حتّى الهواء. سيطر الإيقاع وأخضع التنفّس لإرادته الثائرة المنتقمة، فكدت أفرّ من الحلقة، أو أغمد الخنجر في قلبي. كرهت ضابط الإيقاع كما يكره المشلول شخصًا يضاجع امرأته في غرفة مجاورة. أدركت، بوضوح، أنّه انفصل عنّا، وأنّ إيقاعاته ليست لنا بلْ للتمثال في حديقة المصح.

سمعت أخيرًا «الدمّ» من قلب الدفّ. وأعطى الوتر الثخين جوابه، وشرع «النوى» يسأل، وريشة الخيّاط في صعود وهبوط، وجواب وقرار، وجواب وقرار.. لقد خرج التمثال من الرخام، ها هو، كراقصة سماح مكلّلة بالبياض، كحورية بجناحين نورانيين، يدخل النّافذة وينتشر في الفضاء، يداه في الريح، وقدماه تسبحان وراءه متباعدتين، وهو يمنح نفسه للساحر الذي فكّ رصده، للإرادة التي نفخت الحياة في الجماد.

فجأة صاح الخيّاط: «هو بلا!».. انتهت الرحلة الخاصّة لضابط الإيقاع، وغادر الخيّاط الجسم المتثنّي لا أدري في

أيّ مكان، وعاد إلى موقظي الأرض في مسيرتهم الطويلة. شاعت في الجمع حركة كالتي للسنابل إثر هبّة ربح.. دوري الآن.. «يا خنجري العزيز، قلت في ذاتي، أواه يا خنجري العزيز، لك كلمة الفصل، لك أن تقرّر مصير هذه الرقصة، لك وحدك رجائي وفيك أملي أن تجعل صورتي تخرج من إطارها، وحبيبتي التي سألت عنها كلّ بنات المدينة تأخذ بيدي فنذهب حيث نشاء».

وقف ضابط الإيقاع إيذانًا بقيادة الرقصة «أنت.. يا دربكاتي!» قالت له زوجة الحاكم. باطل العزف لنساء الحكّام. «أنا جئت للمرضى لا للأصحّاء». في الكازينو يرقصون التانغو. يقتسمون الرداء، وإلى روما يوسقون المراكب.. وفي أحيائنا يرقصون الخنجر، يشحذون على لحومهم نصال الفولاذ، وبأقدامهم يدقّون الأرض ويوقظونها من السبات. «دقّ يا بنيّ.. اثقب، اجعلها تفيق، هذه الكلبة» «سمعًا يا معلّم.. إنّما لا شأن لي أنا بكلبتك، لديّ كلبتي أيضًا: التانغو، وغبغوبة جدِّي، ومواعظ والدي»... «هوب لا» واليدان مفتوحتان. الخنجر في الكفّ اليسرى. نصابه بين الأصابع ونصله على امتداد الساعد.. «هوب لا» دورة على الحلقة. سمكة طائرة ذيلها في الأرض وجناحاها صليب ووجهها إلى الحلقة. لسنا على بيدر. قديمًا كانوا يرقصون للبيدر: «زيدي يا غلّتنا زيدي»، ويرقصون للمطر:

«هاتي يا مطرتنا هاتي»، وللنّار.. من أشعل النّار؟ يا شعلة هذا الوجود.. يا لون دمي!.. «هاي أوغلوم هاي.. أصلان[1]» صاح رجل أرمني. وقال الخيّاط: «دعوه!» واستدار ضابط الإيقاع ليكون في مواجهتي.

نحن في اللّحظة «في شبابي كنت فتى هذه اللّحظة.. للراقص رداء خاص. جزمة مطاوعة للقدم، وفي ساق الجزمة غمد الخنجر.. قميصه حياكة يد، مكشكش الإسوارة، وفي الإسوارة مخبأ الخنجر.. والخصر جميل، فارع، والسروال ضيق، ملبوس الرجال.. والقد طوال، كالرمح، واليد خفيفة، تغزل الضوء. ويصيح المعلّم: «يا فتى!» وتطربني، كالنّغم، صيحة يا فتى، وأقول في سرّي لعينيك وعيني الفتى. وكالبرق يومض في الكفّ شعاع، وتتعلّق الأبصار من حولي في كرة الشّعاع، يرون الشرر لا الصوّان.. القلب هو الصوّان، وعليه القدح، ومنه الشرر، إذا لم ينقدح فلا شرر.. أترك الخنجر عندئذ. وارقص بغير سلاح».

نحن في اللّحظة. رفع ضابط الإيقاع «دفّه».. والخيّاط يعزف ويتذكّر.. صاح الرجل الأرمني مرّة أخرى من الباب وهو مأخوذ بنقر الدفّ «هاي قهرمان نرده صقلاً مشتن[2]؟»

---

(١) عبارة تركيّة تعني: هيّا يا فتاي هيّا.. يا سبع.
(٢) آه يا داهية! أين كنت محتجبًا.

فابتسم له ضابط الإيقاع للتحيّة، وشرع تصفيق حيّ، متقطّع، جريء، متواصل، من أطراف الحلقة، يتعالى بتوافق تام مع الإيقاع. التقت عيناي بعينيه؟ كان هو أيضًا في اللّحظة، تنوّر وجهه وارتدّ إليه ألق الشباب. لنفسه، أوّلاً، عزف، وها هو، لي، للخنجر، للخيّاط، للحاضرين، لمعلّمه القديم، للوجود الذي تغرّب عنه ورجع إليه.. يعزف. «يا بنيّ، تعلّم أن تعزف للنّاس. حدّثهم وسيصغون إليك. إنّهم كرماء، ولكنّهم لا يعرفون لمن يعطون وكيف. قل لهم، إذن، أنتم أسياد هذا الكون، منكم كلّ ما فيه ولكم كلّ ما فيه. وقُدْهم، بعد ذلك، لتحقيق ما قلت، وكن أنت في المقدِّمة. قارعو الطبول يكونون دائمًا في المقدِّمة، حاملو الأعلام يسيرون دائمًا في المقدِّمة، والقادة الفرسان أيضًا. إذا تراجع القائد توقّف الطبل وتنكّس العلم وارتدّ الصفّ وتفرّق النّاس. احفظ هذا. كن قائدًا في الرقص والعزف والقتال، ولكن كن مستعدًّا لدفع ثمن القيادة. افْنَ فيها. ليتكلّم قوسك إن كنت عازفًا، وقدماك إن كنت راقصًا، وزندك إن كنت مقاتلاً».

.

ريشة الخيّاط تتكلّم. أصابع ضابط الإيقاع تتكلّم.. وجاء دوري للكلام. قدماي ستتكلّمان، ويداي، وخنجري، وقلبي.. «آه يا ابنة عمّي، يا ذات النظّارات الطبيّة، يا بطّة لا تلقى صيّادًا، تعالي، هنا الحياة، فتعالي».

ضابط الإيقاع يأمر. والخيّاط يبتسم. هو ذا اليعازر آخر! الأرض تتنبّه، تتشقّق، والذين في القبور يخرجون. هذا عصرهم. . لبّوا النداء وبُعثوا. سمعوا دقّاتنا، قرعاتنا، وأصواتنا التي من أعماق البئر.

بحركة من رؤوس الأصابع استعدت الخنجر في كفّي، «لو كانت لي جزمة، قميص محاك باليد، مكشكش الإسوارة، لأخفيت الخنجر هناك، وانتضيته كما علّمني الخيّاط». هو قال لي: «لا تدعهم يرون خنجرك إلاَّ في اللّحظة الحاسمة. يستدلّون عليه من وهجه، كخصلة من شعاع الشّمس، تصنع خطوطًا بين الذراعين، وخطوطًا حول الركبة، ودوائر في الهواء، والكفَّ في خفّتها تسبق البصر وتخدعه. هذا هو الفنّ، هذا ما يسمّى برقصة الخنجر». وقالت زوجته: «ستجعله يشرط ركبته إذن، ستجلب علينا مصيبة، فهو ابن عائلة، وجدّه كان فتصلاتو»، وأجاب الخيّاط: «أعرف، أعرف، إلى الجحيم بجدّه القنصلاتو». . «ولكنّك ستهلكه»! «سأحييه»! «سأذهب وأقول لهم كلّ شيء»، «إفعلي ولن أبالي».

مدار الدائرة يتلقّى التحيّة. وثبة في الهواء وأنا في الوسط. غرزت الرايات في عنق الثور. بطء، والفصل الختامي، المواجهة ويتصاعد من الأعماق هدير. . انتفاضة، ثمّ العنف، وتطويحة الركبة، ليغزل عليها الخنجر خيوط

الشّمس. «يا بنيّ، هذه الحركة هديّة للشخص الذي تعزّ، لمن تجلّ أو تحبّ، وفيها معنى الوفاء». أشرعت الخنجر ورحت، كالممسك شعلة، أصنع دوائر نور. أفضت في صنع دوائر النّور، تحيّات وهدايا، لكلّ الحاضرين، ولكلّ من لم يحضروا، لابنة عمّي وعويناتها الطبيّة، والفتاة الكئيبة وحصيرها الذي في القبو، وللمرأة وعينيها السوداوين، لحمارها الذي أخافني، وجميع الطيور، وجميع الصيّادين، والفارس الذي منح صداقة رجل لرجل، والمرأة التي قتلت حبيبها وبكت عليه، وصورتي التي في الإطار، وتمثال ضابط الإيقاع الذي في الرخام. . للجوقة التي أفلست واشتريت منها الكمان، والفلاّحة التي ضُربت لأجل حفنة زيتون. وجميع الذين يحبّون الرقص والفرح ويدقّون الأرض ويوقظونها.

استعادني ضابط الإيقاع بضربة من أصبعه الوسطى في منتصف الدفّ. جاءت عنيفة وحاسمة كالضربة بصنوج النحاس الكبيرة تنبيهًا للانفجار في الموقف. وببطء، من جديد، هيّأني وقادني إلى اللّعبة. لسوف أدفع قدمي نصف دفعة، وأدور حول العدو المجهول في صراع الموت والحياة. نحن مصارعان في حلبة، أحدهما ظاهر والآخر مستتر، وكلّ منهما يطوف بالآخر، يروزه، ويتحرّى نقطة ضعفه، إلى أن تسنح اللّحظة لتسديد الخنجر إلى هذه النقطة.

ممثلان، في مبارزة صامتة، الخصم فيها لا يراه النظّارة إلاّ من خلال الراقص، من معاناته وانفعالاته.. وفيما توتّري يتصاعد، استشعرت رغبة في أن أسدّد طعنتي وأستريح، أن أقتل عدوِّي الذي أجهل اسمه. ومرة أخرى عاودتني الكراهيّة لضابط الإيقاع الذي استولى عليّ، وأخضع كلّ جوارحي لحركة قسريّة من أنامله.

شيئًا فشيئًا تسارع الإيقاع. دفعت قدمي إلى أمام، وجذعي ملقى إلى وراء، والخنجر في كفِّي. صرت مع كلّ خفقة من قلبي، أنتظر الإشارة لشحذ الخنجر على الركبة، ثمّ تسديده في صدر العدو.. عَنُف الضرب، ومعه الخطو، وراحت القدم اليمنى، فيما اليسرى ثابتة، تنشال وتنحطّ على الأرض، في توافق مع النّغم، وتوقيع آمر، ثأري، متوعّد.. وضجّ الحضور بالتصفيق، وصاح الخيّاط «هوب لا!» فاستدرت إليه وحييته، ووثبت في حركة دائريّة في الهواء، لأهبط في الوضع الملائم: الصدر إلى الأمام، والركبة اليمنى زاوية حادّة، مرتكزة على ساق تنهض على رأس القدم، بينما اليسرى إلى وراء، في انثناء يساعد على الحركة الصداميّة المقبلة، والخنجر يبرق، ليغزل خيوط النّار، قادحًا كالفولاذ على الصُّوّان، دون أن يمسّ الصُّوّان، ودون أن تُرى القبضة المكوكيّة وهي تذهب وتجيء على الركبة المرتعشة، المثنّاة.

في غمرة هذا التواجد بين الحضور والغياب، وفيما الخنجر كالريح العاتية في فجوة مضيق، تبدّت لي العينان السوداوان والابتسامة الآسرة على الفم. كانت هناك إذن. ولقد جاءت كطيف، ووقفت، كاللّبوة، تتحدّاني وتغريني.

قبلت التحدِّي، لكنّ الإغراء أضاعني. فجأة مزّق الخنجر لحم الركبة وحزّ على عظمها، فانطلقت صيحة «يا ويلاه!»، وتوقف العزف وساد الهرج.

سمعت رجلاً يقول: «أوقفوا الرقصة! أوقفوا الرقصة!» وعادت زوجة الخيّاط تصيح: «يا ويلاه.. سيخربون بيتنا»، وغطّت فتاة عينيها بكفّها كيلا ترى الدمّ. وبكى طفل، ثمّ آخر، وتسابق الحاضرون لإسنادي وإيقاف الدمّ المتدفّق من ركبتي.

في اللّحظة نفسها قبضت كفّ على رسغي. كانت هي: المرأة ذات العينين السوداوين، التي تحدّتني وأغرتني، وجعلتني أفقد توازني تحت وطأة نظرتها الرهيبة، المتوحّشة والآسرة.

انتزعت الخنجر من يدي، ونظرت إليّ بلا خوف وقالت:

ـ ماذا فعلت؟

ثمّ تراجعتْ، واختفت كما ظهرت.

- ٩ -

ضمّد طبيب في المدينة جراح الركبة. لم أقل شيئًا لأهلي، ولم أجب على أسئلتهم التي انهمرت عليّ كحبّات البَرَد. جاءت والدتي وقبّلتني. بكت عند سريري وقبّلتني. قالت «أنت تتلف نفسك»، وابتسمت أختي وداعبت شعري. والدي دخل الغرفة مغضبًا. تكلّم حتّى ملّ، وخرج مهدّدًا . . . «رئيس القلم» حيّاني من العتبة، وبكلمتين سأل عن حالي وانصرف . .

أصيلاً جاءت ابنة عمّي. جلست مع أختي وخطيبها في الصالون. لم أسمع صوتها. سألت عنّي ولا شكّ. لولا عويناتها الطبيّة لدخلت، إنّها لا تفهمني إذن، تخشى أن تزعجني؟ يا للطفلة المسكينة، ما ذنبها إذا كانت قد خُلقت هكذا بعوينات طبيّة، وإذا كنت، في مزاجيّتي، نفورًا من العوينات الطبيّة؟

انشقّ الباب بعد قليل وامتدّ منه رأس. كانت هي، وعلى لساني قفزت كلمة: «أهلاً» حسبتها ستأتي، تجلس قرب سريري، على حافته، تأخذ يدي، تشدّ عليها، لكنّها، بعد

أن تخطّت الباب، وقفت بعيدًا، وتظاهرت بقراءة عناوين الكتب، لتتقي النظر المباشر إليّ.

ـ ماذا يقولون عنّي، هناك؟ (وأشرت إلى الصالون).

ـ لا شيء.

ـ وأنت؟

لاحظت ارتعاشتها الخفيفة «أنا؟ ويهتم إذن؟ يعرف؟ يا كتبي المدرسيّة، يا نوتاتي الموسيقيّة، يا دوسات البيانو، يا خيالاتي، أنت لم تقولي له شيئًا. أنا لم أقلّ شيئًا.. وما جدوى ذلك»؟

ـ وددت لو كنت معي، قلت.

ـ لا، قالت، أن أراك جريحًا، لا أريد، لا أحتمل.

ـ تخافين عليّ؟

أطرقت..

«ويسأل؟ صغيرين كنّا، وفي المدرسة تلميذين ورفيقيْ طريق.. بعمره، ولكن دونه قدرة على الحياة. بجانبي كان يسير، وأحسّه في قلبي، وأبدًا لم يخطر له أنّه في قلبي.. يعاملني كقاصرة، يشفق عليّ، يذبحني بشفقته. أكون قوّية حتّى أراه فأضعف. أكون طويلة حتّى أراه فأقصر. أنا طفلة تتلعثم، ترتبك بين يديه».

ـ أنت ابنة عمّ طيّبة.

أخفت وجهها في الكتاب «ابنة عم طيّبة؟ لن أكون غير هذا في نظره إذن؟ وماذا أريد أكثر؟ يحبّني كابنة عمّ وهذا يكفي... دائمًا أقول لنفسي: يكفي. حبّ ابنة العمّ حبّ أيضًا... لسوف أقنع.. ومئة مرة قلت أقنع.. أحسّ بالراحة. لذيذة التضحية. أحبّه كالسحابة، ومعه أسبح فيها. لو كانت للسحابة يد تلامس يدي! ومرّة، لو ملكت الجرأة، ونظرت طويلاً في عينيه، ووضعت كفّي على كتفه، ورأسي على صدره، لو بكيت، ورأسي على صدره، وقلت له كلّ الذي في قلبي».

ـ لأجلكِ رقصت، قلت لها.

ـ لأجلي؟

ـ لأجل كلّ النّاس، وأنتِ منهم..

«نعم، كلّ النّاس، وأنا منهم.. لا شيء، إذن، يخصّني؟.. ليكن.. ولماذا أغار؟ الله! يا الله! اجعلني لا أغار، دعني أحبّه، هكذا، كما يحبّني، كابن عمّ، وأفكّر فيه، كما يفكّر بي، بهدوء وراحة ولا مبالاة».

ـ وأنتِ؟ سألتها.

ـ ماذا أنا؟

ـ تعزفين لأجلي؟

ـ لم أفكّر بذلك. .

أخفت وجهها في الكتاب.

«ويسألني؟ لأجله أعزف. . له وحده. . لأجل عينيه، ويديه، وكتفيه، وعنقه، ووجهه. . أعزف بغير رجاء، ويموت العزف بغير رجاء، وهل أتوصّل، يومًا، لأن أجرح نفسي؟ يا ابن عمِّي، لو جرحت نفسي، تأتي إليّ، كما جئت إليك؟ أنت تفعل. . وبحماسة أكبر، وراحة أكبر. أعرف. . تأتي كما أتيت، وتسلّم كما سلّمت. . وبحرارة أشدّ. . ولكنّك لا تخفي وجهك في كتاب. . وما حاجتك إلى ذلك؟ هنيئًا، أنت لا تحمل قلبًا كقلبي. . بلى تحمل قلبًا مثله، ولكنّني لست فيه. . ما كنت، ولن أكون، وعبثًا هذا الانتظار. . أيتها الغيمة. . ملّلت لقاء الغيوم».

ـ تعالي لأقول لك كيف رقصت وكيف جُرحت.

تردّدت. استدارت وتقدّمت. الكتاب انطبق، لماذا انطبق؟ ظلّت تتقدّم بخطوات مسحورة. مسّدت لها على الفراش ودعوتها إلى الجلوس. كنت فرحًا لأنّني سأحكي لها كيف رقصت. . ها هو، أخيرًا، إنسان في العائلة يفهمني. أيّها الجدّ الصالح، القابع بجلال قنصليتك وأوسمتك الهمايونيّة في الإطار الخشبي على جدار الصالون، تستطيع

أن تموت حزنًا على أرومة العائلة ومجدها القنصلاتي.

جلست على حافة السرير. كتفها الأيسر لي، ووجهها إلى الجهة المقابلة. اطمأنّت إلى أنّني لا أرى عويناتها الطبيّة. سأتكلّم وستصغي. هكذا، وأنا في الفراش، مرغم على أن أكون معها، وأن أتكلّم وأن تصغي. شكرًا للجرح على الركبة، فبدونه ما كانت هذه الخلوة، ولا هذا الحديث. ولربّما، في طويّتها، تمنّت لو يطول الشفاء، وندمت على تمنّيها. كانت تودّ، في يقظة الكبرياء، أن أكون جليسها بغير جرح، وأن أرغب في الكلام معها كما ترغب في الإصغاء إليّ، ولكن ذلك لا يصير «أنا لست في قلبه كما هو في قلبي. إذا غادرته تناول كتابًا وقرأ، انسجم معه ونسيني. وقد لا يذكرني، أمّا أنا فلا أستطيع. هو معي دائمًا، داخل البيت، داخل الكتاب، داخل القلب، قلت: أقاطعه. قاطعته. وحين تلاقينا لم يعاتبني، وحتّى لم يسألني، ما أحسّ بالمقاطعة. ورجوته أن يزورنا. فعل. كان طوال الوقت ينظر إلى الساعة. لم يكن معي إلاً لياقة، شفقة، أخوّة، صداقة.. ما أتعس كلّ ذلك، ما أفظعه!».

جلست على حافة السرير، ومثل أيّام المدرسة، بحماستها، رحت أقصّ عليها كيف رقصت، وكيف عزف الخيّاط، وضرب ضابط الإيقاع:

ـ كنت أعرفه، صادفته في دكّان الخيّاط. قصّ عليّ

حكاية غريبة.. وفيما عدا ذلك حزنت لحاله، قال إنّ قلبه مات، وأصابعه ماتت. رأيتها تدفع إبرة، وتسحب إبرة، ومصادفة، ذلك اليوم، جاء.. ووقف على الباب، ولم يأبه له أحد.. وبغير دعوة دخل.. وتناول الدفّ.. وتبدّل فيه كلّ شيء.. قلبه وأصابعه وعيناه.. عاد كما كان، ضابط إيقاع، وعلى دفّه رقصت..».

ـ كان يجب أن تأخذني معك..

ـ سآخذك مرّة.

ـ وسأتعلّم العزف من الخيّاط.

ـ والمايسترو؟

ـ قلت لا أريده..

ـ كيف؟.. الخيّاط لا يعلّم على النوتة، معزوفاته للرقص.

ـ وسأرقص..

تصاعدت بجسمي في الفراش، وانحنيت بجذعي لأراها وأنا أقول:

ـ أنت ترقصين؟

ـ ولماذا لا؟

اضطّربت، «لن آخذها إلى الخيّاط» ـ قلت في نفسي ـ ترقص؟ يا إلٰهي، ابنة عمِّي ترقص؟ في حلقة من النّاس، كغجرية، كالفتيات اللّواتي جئن مع الفرقة التي أفلست وباعتني الكمان؟

عادت تسألني:

ـ لماذا لا أرقص؟

ـ عند الخيّاط لا . . مستحيل . . فكّري أنت: فتاة محترمة مثلك، ترقص في حلقة من عامة النّاس كغجرية؟

ـ وأنت؟ ألست ابن عمِّي؟ كيف، وأنت الشاب المحترم، رقصت في تلك الحلقة، وأمام النّاس، كغجري؟

أطرقت بغير جواب «تحبّ زنجيّة؟ نعم. تزوِّج أختك لزنجي؟ لا . . أنت دخلت القبو، ورأيت تلك المرأة، وقد تنام مثل الفتاة على حصير، تفعل ذلك الشيء، في القبو، ومع المرأة أو الفتاة، على حصير، ولكن أختك . . «أيّها الجدّ المحترم . . أختي تتزوّج رئيس القلم، ترقص في الكازينو، وابنة عمِّي تعزف على البيانو، وترقص التانغو . . هي ليست ضدّ التانغو . . نعم يا جدِّي، لا أختي ولا ابنة عمِّي ضدّ التانغو، أنا فقط ضدّ التانغو».

لويت عنقي كيلا تنظر في عيني. العوينات الطبيّة، لأوّل مرّة، صارت على عيني. لو كانت فتى، فليذهب عندئذ

ويرقص. وليتمّ، في ذلك القبو، على السرير أو الحصير، ولتهتزّ لحية الجدّ ما طاب لها، ولو أنّ المسألة تتعلّق بي، بي وحدي، لوافقت.. ولكنّ العائلة، سمعة العائلة، آه يا سمعة العائلة!

قالت ابنة العمّ:

ــ من جهتي لا أكترث لشيء. لا أجد في سلوكك عيبًا، ولا في سلوكي، لو أخذتني إلى هناك.. لسوف أراك وأنت ترقص، يا إلٰهي، كم أشتهي ذلك، ولكنّني لا أحتمل رؤيتك جريحًا. وحين بلغني ما حدث أغمضت عيني.. أنت والخنجر، هذا فاتن.. تذكّر يوم تعاركت ونحن في الطريق إلى المدرسة؟ أعطيتني كتبك.. كان خصمك بدينًا، وكدت أصرخ خوفًا عليك، ولكنّك ضربته مع ذلك.. مزّق قميصك، وقلع الزرّ عند العنق، ولمّا جاؤوا وفرّقوا بينكما كنت أنت المنتصر. قلت لي إنّك جرحته. وكان الدّم يسيل من شفته، ولم أكن مسرورة لذلك. أنا لا أحبّ العراك ولا الدّم. رغبت، يومها، لو تصالحتما، وفي المدرسة قصصت ما جرى على رفيقاتي. كنت فخورة، وفي الباحة، بعد الدرس، ركضت وأعطيتك الحلوى..

ــ مكافأة؟

ــ لا أدري..

ـ أنت لم تعطني مكافأة هذه المرّة. .

ـ أنت كبرت. .

أغمضت عينيها. «في سبيله، لو أراد، لجمعت كلّ ما في البلد من حلوى. . يفهم ذلك يا تُرى؟ الباشق والقبّرة. . لماذا كان باشقًا وكنت قبّرة؟. . أخاف منه! لا. . أراه باشقًا، هذا كلّ ما في الأمر. . أراه باشقًا في الطريق، والمدرسة، والبيت، وما أن أكون إلى جانبه، وما أن يتكلّم، أو ينظر إليّ. . ولكنّه لا ينظر إليّ. . يتجنّب أن ينظر إليّ. . . ربّما لا يفكّر في ذلك. . وأنا، لماذا أفكّر في ذلك؟ سأغادره الآن. . انتهت الزيارة. سيكون وحده. . وينام! وأكون معه، ولا أنام. . معي هو، في الدرب، وغرفة النوم، وعلى دعسات البيانو، في الحديقة، وداخل الكتاب، وفي اللّيل، والنّهار، والنوم واليقظة. . أقول له كلّ هذا؟ أرجوه؟. . أتوسّل إليه؟. . ما النفع؟ هو يعرف. . مكافأة «لم تعطني مكافأة هذه المرة» وماذا أكثر من القلب؟ لم يعد لديّ شيء. . من زمن بعيد أعطيته. كوب ماء على أرضٍ مرويّة. لا الأرض عطشى ولا الماء نفع. . ضاع الماء. . قبّرة بين الحشائش، وصيّاد، لم يضرب بعصاه في دغل الحشائش، وباشق لم ينقض. . القبرة تنتظر، ولسوف تنتظر، والشتاء قريب، وبرد سيكون، وأنا مقرورة، أنا أرتجف». .

حين رفعت عينيها عن السجّادة كنت أقرأ في كتاب.

حركتها، عند النهوض، نبّهتني إلى وجودها. كانت شاحبة. ماتت الكلمات بيننا. لم تكن كلمات بيننا. كنت، طوال الوقت، أتحدّث إلى المرأة التي في القبو.. في اللّحظة التي مزّق فيها الخنجر ركبتي وجدت رسغي في قبضة يد.. كانت هي، وقالت لي بغضب: «ماذا فعلت؟» وتناولت الخنجر وعليه الدّم.. لم يعترضها أحد.. وزوجة الخيّاط صمتت.. مضت خارج البيت. لعلّها ألقت الخنجر في البئر التي في الباحة، ولعلّها احتفظت به. أمَرَتْهُمْ: «دعوه يذهب إلى الطبيب»، ثمّ لم أرها.. يحتقرونها ولا شكّ، ولكنّهم يخافونها، وهي تحتقرهم. الخيّاط وحده يفهمها، ويشتهيها.. رأيته يبتسم لها، وأحسب أنّه ينظر من النّافذة حين لا تكون زوجته في الغرفة، وهو يعزف بعض الألحان لها، وربّما لا يدري.

أغلقت ابنة عمّي الباب وراءها.. خيّل إليّ أنّها مريضة، فقد كانت ذابلة، وألقت تحيّة المساء بفتور، ولم تلتفت.. ولما كنت راغبًا عن رؤية أحد، وأريد التفكير بتلك المرأة، فقد أطفأت الضوء، وبقيت، في الظلام، ومعي طيفها.

- ١٠ -

فوجئ أهلي، في اليوم التّالي، بزيارة غير متوقّعة، جعلت والدي يضطّرب، ويحتار في تحديد موقفه، وتظهر عليه، في تصرّفاته اليوميّة، حالة قلق غير عاديّة، أضفت على علاقته بي مزيداً من التعقيد.

في الساعة الثالثة بعد الظهر طُرق الباب. عادت الخادم تقول: «امرأة تريد مقابلة سيّدي» سألها: «فلاّحة؟» أجابت: «لا، من المدينة». كانوا على المائدة، يتناولون الفاكهة، وكان «رئيس القلم» يروي نكتة صغيرة، تضحك لها والدتي، بينما انصرفت شقيقتي كعادتها إلى تقطيع قشور الفاكهة. ولأنّ والدي لا يقابل أيّة من فلاّحاته، وقد اعتدنا أن تأخذ الخادم منهنّ ما يحملنه، وتدعهنّ على الباب بانتظار الأوعية الفارغة، فقد عرفنا، سلفاً، أنّ المرأة ليست فلاّحة، ووالدي سأل للتأكّد ليس إلاّ. كانت أوامره تقضي بعدم الإذن لأيّ مُراجع أو مراجعة بدخول البيت، لأنّه يعتبر ذلك إزعاجاً؛ وعند الضرورة القصوى، يستقبل القادم بجفاء، ولا يدعوه إلى الجلوس. وتوكيداً لهذا السلوك المتّبع بصرامة، قال

للخادم: «اصرفيها» وعاد إلى فاكهته يتذوّقها بهدوء، والخاتم الكبير، الثمين الحجر، يلمع في بنصره تحت ضوء المصباح الكهربائي الذي كان من تقاليد الأسرة الموروثة أن يشعل فوق مائدة الطعام، في كلّ الفصول وكلّ الوجبات، حفاظاً على الجوّ الذي صنعه جدّي.

انفتح الباب، وكانوا قد انتقلوا إلى الصالون لأخذ القهوة. وتقدّمت المرأة التي استأذنت فلم يُسمح لها بالدخول، وقالت: «منعتني خادمتكم من الدخول. حسبتني شحّاذة» صاح بها والدي: «ولماذا دخلت إذن؟» حدّقت فيه بعينيها السوداوين وقالت: «لأنّني أريد التشرّف بمقابلتكم»، وأضافت دون أن يسألها «لم أدخل من النّافذة طبعاً.. لست سارقة».

ـ وماذا تريدين؟

ـ ابنكم.

عينا «رئيس القلم» التمعتا بخبث. نظراته الموجّهة إلى شقيقتي عبّرت عن شماتة: «ها هي فضيحة جديدة!». وقفت والدتي كدجاجة صغيرة رأت خيال طير يمرّ على الأرض التي يقف عليها فراخها. لم تقوقئ خوفاً. ارتبكت وشحبت. كانت هذه أوّل مرة تفطن إلى أنّ فرخها الراقد في غرفته قد صار له دجاجة غيرها. أحسّت، دون أن تفقه سبباً لذلك،

بعداء للمرأة الغريبة. ربّما كان عداؤها أقلّ لو سألت المرأة عن والدي، فالدجاجة التي هي والدتي، كانت مهيّأة، بدنيّاً وخلقيّاً، لأن تعيش على غريزة الدجاجة في النظرة إلى «الديك» الذي اقترنت به قبل عشرين عاماً. هي تعرف أنّه سطا على كثير من دجاجاته الريفيّات، وبلغها أنّه استغلّ منصبه ووجاهته وفخامة هيكله مع نساء من مختلف المستويات في المدينة، ومع ذلك مارست علاقتها معه كدجاجة تحسن التطامن حين يفرد ديكها جناحيه ويكنس بها الأرض قبل أن يعتلي ظهرها، ثمّ ينزل عنها ليضرب الأرض بجناحيه ثانية ويطلق صياحه المعلن الانتهاء من دجاجته التي عليها أن تبيض بعد ذلك وتحتضن بيضها وتفرّخه وتعتني بالفراخ حسب الأصول.

الآن، فقط، غادرت والدتي عالم الدجاج إلى عالم الإنسان. انقلبت أنثى أمام أنثى. وأنبأ شحوبها عن خوفها من هذه الأنثى، وكرهها لها. وفي خوفها اعتصمت بالصمت، واستجارت بوالدي الذي بدا مستنطقاً ماهراً يعرف كيف يلائم بين روح القانون ونداء الجسد، بينما توقّفت شقيقتي عن تقطيع قشور الفاكهة وتعلّقت عيناها بالمرأة في إعجاب ودهشة وتساؤل، وظلّ «رئيس القلم» يمارس فرحته الصغيرة الشامتة، معطياً تصرّفه الإشفاق من الفضيحة والدعوة إلى تداركها بطرد المرأة فوراً.

كنت أنا، في هذه اللّحظات، وراء الباب. قفزت من السرير وأنصتُّ لما يجري في الصالون. كان شيء، كاليقين، قد أشرق في ذاتي بأنّها ستأتي، وها هي قد أتت. قد يكون الخيّاط هو الذي أرسلها، وربّما جاءت لنفسها. استَعَدْتُ، كالومض، وقوفها وراء الباب، وأنا أمرّ في الزقاق، ثمّ دخولي القبو، واختفاءها وظهورها المفاجئين، والفتاة التي بكت لأنّها لا تريد أن تعمل ذلك الشيء على الحصير، وأمرها الحاسم إليها: «اذهبي إليه فهو ينتظرك»، وخضوع الفتاة ومغادرتي البيت وهي صامتة، قويّة، ساخرة، متحدِّية، وظهورها عند الرقص، في اللّحظة التي مزّق الخنجر ركبتي، وانتزاعها الخنجر من يدي، وإصدارها الأمر: «خذوه إلى الطبيب» ثمّ اختفاؤها، وعودتها اليوم لتصنع لعائلتنا الوقورة هزّة في الأعصاب التي كفّت منذ زمن عن ردود الفعل العنيفة.

سألها والدي مفتتحاً محضر تحقيقه:

ـ تريدين ابننا؟ ولكنّك لست زميلته في المدرسة!

ـ كيف عرفت؟ أجابت ساخرة.

ـ لا يحتاج ذلك إلى شطارة.

وقالت والدتي:

ـ إبننا مريض.

ـ أعرف.

ـ ولا يستقبل أحداً..

ـ وأنا لست زائرة.

قال رئيس القلم:

ـ يمكنك الانصراف إذن..

ـ هكذا؟

ـ وقحة.. و..

ـ وماذا؟ أنظر إليّ.. لست أنا التي نامت معك على الحصير.. كانت تلك فتاة مسكينة، وأظنّك تذكرها..

ـ اخرجي!

ـ ولماذا؟ كان يجب أن تدعوني إلى الجلوس.. قلت لكم لست شحّاذة، وأنا أعرفك.. وقد نسيت عندي غرضاً احترت في أمره.. ولو لم تكن الآنسة موجودة لقلت اسمه..

ضربت شقيقتي الطاولة وهي تضع السكّين عليها، ثمّ نهضت مسرعة وغابت في غرفتها، بينما صاحت أمي:

ـ اخرجي يا ملعونة.. ابننا لا يعرفك.. نحن لا نعرف حثالة مثلك.

ـ وأنا ما جئت لأتعرّف على أحد منكم. . عندي أشياء ذكّرني السيّد بها (وأشارت إلى رئيس القلم) ووجدت من الضروري إعادتها إليه.

فهم والدي تلميح المرأة. وفي الوقت الذي غادر فيه «رئيس القلم» الصالون لاحقاً بشقيقتي في غرفتها ليسترضيها، قالت المرأة:

ـ السيّد نسي عندي سرواله.

اندفعت أمّي نحوها. وفجأة رنّت صفعة شديدة على وجه المرأة، ما حسبت أنّ والدتي تقدم على مثلها، أو تملك الشجاعة والقوّة لذلك. هُرع والدي يمسك بأمّي فإذا هي تنهار بين يديه وتنشج، وتعود من جديد إلى وضع الدجاجة وحجمها، والمرأة تنظر إليها باستهانة مضغوطة، وقد تلبّستها سورة تحدٍّ هادئ، جوفيّ، منذر، تساقط شرراً من عينيها فأحرق الأثاث وإطارات النوافذ والستائر وصورة الجد، وجعل والدي المستنطق الماهر، ذا الخبرة، يطوي محضره ويحاول أن يقدّم للمتّهمة كرسيّاً وسيكارة، وبصوت عالٍ يقول لها:

ـ المعذرة، حسبتك زوجتي فلاّحة.

صاحت المرأة:

ـ يا له من عذر!

وحدّقت فيه وأضافت:

ـ لست فلاّحة ولا يبدو عليّ ذلك. امرأتك لم تخطئ ولكنّها تستهين بي.. لقد صفعتني.

وضحكت بلا سبب، كأنّما لتنفّس عن صدرها، وتقدّمت من والدتي التي ذُعرت وانكمشت في مقعدها. خفق قلبي بشدّة هذه اللّحظة. امتدّت يدي إلى الباب لأفتحه وأنجرد إليها. كنت واثقاً من جسارتها وحماقتها إلى حدّ جعلني أتوقّع أن تنهال ضرباً على أمّي المسكينة. والظاهر أنّ والدي توقّع شيئاً من هذا، فسارع وراء المرأة ليمسك بها أو يضربها فيما لو ردّت الصفعة لأمّي، وفجأة حدث ذلك الشيء الرهيب الذي لا أنساه. ففي طرفة عين، وكالبرق الخاطف، انتضت المرأة خنجراً لا أدري أين كانت تخفيه، وانطلقت صيحات ثلاث دفعة واحدة: «لا تضربي.. إيّاك!» وفي اللّحظة نفسها انهارت والدتي تماماً، وخرّت على ركبتيها، ويدها فوق رأسها اتّقاءً للطعنة، بينما التفتت المرأة إليّ، وكنت قد خرجت من الغرفة، بعينيها السوداوين، البرّاقتين، الغازلتين ناراً وغضباً وجرأة مفترسة، وقالت:

ـ هذه أمّك؟

ومن طرف الصالون، ملهوفة، باكية، هرعت أختي وألقت بنفسها على المرأة، بغير تردّد ولا حذر من الخنجر المرفوع

الذي قد يهوي عليها، وخرج رئيس القلم من باب الغرفة، وببطء تقدّم بضع خطوات، وهو ممتقع، مرتبك، فاقد القدرة على النطق أو الإقدام لتخليص الخنجر منها.

كم دام ذلك؟ وما هو الزمن الممتدّ، في اللّحظة الحاسمة، بين فعلين نقيضين، أحدهما للموت والآخر للحياة؟ إنّ خيطاً دقيقاً، لا يُرى إلاَّ بالمجهر، يفصل، في ومضة البرق، بين عالمين من الظلمة والضوء، كما يفصل، في ومضة الاسترجاع، بين عالمين من الماضي والحاضر، وكذلك يفصل بين فعلين هما في سبق الإرادة فعل تنفيذ باتّجاهين متضادّين، يهوي معه قلب المشاهد أو يصعد بحال واحد من الانفعال المزلزل.

حدث لي هذا وأنا أرى شقيقتي تلقي بنفسها على المرأة. وبالحركة نفسها التي صدرت عنها يمكن أن تنفّذ واحداً من الفعلين.. وهذه الحركة السريعة، الصاعقة، عقدت ألسنتنا لحظة، ثمّ تراخى التوتّر بالسرعة التي تمّ فيها، وظلّت العيون تحملق في المرأة غير مصدّقة ما جرى.

انحنت المرأة على شقيقتي تقبّلها وتبكي. كان انفجارها في البكاء حادّاً، عفوياً، صادقاً، مثل ضحكتها المهسترة، مثل هدوئها المكهرب، وكذلك مثل اندفاعها نحو أمّي، وركوع أمّي أمامها مرفوعة اليدين فوق الرأس اتّقاءً للضربة.

وبكراهية عنيفة، أحسستها ريحاً حارّة على عنقي ووجهي، نظرت إليّ خلال دموعها وقالت فيما هي تلقي الخنجر باتّجاهي:

ـ خذ. . هذا لك. .

ونفضت، بحركة حسم قويّة، عصبيّة، شقيقتي عنها، واستدارت نحو الباب ومضت.

ظلّ الخنجر ملقى على الأرض، شاهد إثبات على إدانتي، وران الصمت القاهر، المتولّد من خجل العنجهيّة التي سقطت على حضيض الواقع الاجتماعي للنّاس الفقراء، وتمرّغ القصر في وحل الحيّ الفقير الذي جاءت المرأة منه حتّى أحسست بالإشفاق على أهلي، واستشعرت ذنبي في كلّ ما جرى.

كانوا مسمّرين في أماكنهم، وبصعوبة نهضت أمّي عن الأرض، بمساعدة شقيقتي، وجلست في طرف المقعد، وهي تذرف بقايا دمع، لحسابي أنا، كي أرى ما لحق بها من إهانة، وأهرع إليها معتذراً، مظهراً الندم والتوبة. لم تنظر إليّ، لكنّها كانت تراني. وكان عليّ أن أذهب إليها، وأقبّل خدّها ويديها، ولكنّني كنت خجلاً، استشعر تساقط نظراتهم عليّ، كأحجار في الأيدي التي ترجم زانية. بقيت واقفاً. دون أن أسقط في الحفرة التي حسب «رئيس القلم» أنّها

فُتحت تحت قدمي. لقد تلوّث هو. لن تقبل به شقيقتي بعد اليوم، فقد ظهر الآن بحجمه الحقيقي. أدارت له ظهرها، ولم ترفع، فيما هي تواسي أمِّي، عينيها إليه.

بدا لي أنّ أمِّي قد فُجعت بأشياء كثيرة: نقاوتي، سلوك خطيب شقيقتي، موقف اللّين الذي أظهره والدي، وربّما تذكّرت، بمناسبة كلّ هذه الفضيحة، سوابقه المخزية مع نساء «من هذا الصنف». ولم يبدر من والدي ما ينمّ على أنّه استعاد اعتباره، وظلّت صورة الجدّ ترمقنا من إطارها وقد تحاشينا أن ننظر إليها. كنّا متّفقين على أمر واحد: لقد أهنّا، بما جرى، شرف القنصلاتو الفخرية إلى الأبد.

تحرّكت أختي وغادرت الصالون. دخلت غرفتها وأغلقت الباب بعنف. وأطرق «رئيس القلم» أمام حمويه، معبّراً عن أقصى حالات القهر والمسكنة، ولم تجد الأمّ، في غمرة انفعالاتها، متّسعاً لأن تتقبّل اعتذاره غير المعلن، وتمنحه مغفرة مماثلة. الوحيد الذي جاد عليه ببعض الالتفات كان والدي. رامقه النظر وهو يفتل شاربه وطيف ابتسامة لا يُرى يرفّ من خلالهما. هو وحده كان مستعدّاً لتفهم موقفه وتمرير القضيّة على اعتبار أنّها لا شيء...

وحيال المشهد المهين لمشاعر العائلة، انتابتني رغبة في أن أضحك. لذّة بهيميّة في التمتّع بتعاسة الآخرين تملّكتني. ولولا مرأى أمِّي الذي لجم تلك الرغبة لمددت لساني لجدِّي

متشفيّاً. كنت، دون أن أدري، أبطّن كرهاً لبيتنا. كان قديماً، من نوع القلاع، وبوّابته الخارجيّة عريضة، محدّبة من أعلى، خشبها سميك ومؤطّر بالمسامير، وهذه البوّابة تشكّل غطاء لفوهة دهليز قوطي الطّراز، يفضي إلى فسحة الدار. حيث الحديقة والسلالم الحجريّة الصّاعدة إلى المنزل بصالونه الكبير وغرفه الواسعة، العالية، وأثاثه الضخم، من خشب الجوز الذي اسودّ مع الأيّام، ونوافذه التي على شكل البوّابة، وجدرانه السميكة جداً كما يظهر من قوس الباب وحوافي النوافذ.

ولكم أنشبت الأسئلة أظافرها في رأسي حول بيتنا هذا. وكلّما مررت بشارع فيه بناية تُهدم لتشييد أخرى جديدة، تمنيّت أن تُهدم دارنا أيضاً وتُبنى مكانها دار جديدة، لكن سؤالاً كان يبادرني فوراً: من يستطيع هدمها؟ في الأرياف، والأفلام، والأحلام، كانت الأكواخ الريفيّة تلهب خيالي، أمّا في الواقع فقد انتهيت، منذ عهد الحداثة إلى قناعة أن بيتنا لا يُهدم، وأنّ أحداً لا يقوى على هدمه.

كان لأهلي مثل هذه القناعة؟ أحسب أنّ أحداً منهم لم يطرح على نفسه هذا السؤال، باستثناء شقيقتي. كانت لها تطلّعاتها إلى التغيير، وتتعامل مع الحياة بجرأة تحسدها عليها ابنة عمّي، وهي لا تضع عوينات طبيّة، وليست جميلة ولا قبيحة، نسخة ملطّفة من أمّي، فيها دماثة، وملاحة، وهجوع

جنسي لا يريد أن يستيقظ، وربّما على يدي «رئيس القلم» لن يستيقظ أبداً. . .

قالت مرّة لوالدي.

ـ بيتنا مثل القلعة. .

وابتسم والدي وأجابها:

ـ قلعة بكلّ معنى الكلمة. . قنصلاتو. .

وشرع يشرح، مع تلمّظ ظاهر الكلمات، أهميّة القنصلاتو ومجدها الغابر، حين كان الباب العالي، «طوب قابو سراي» في استانبول ذاتها، يحسب حسابها، وكانت السفن الحربيّة «قنصلاتو تابعيتارندن[1]» تقترب من الميناء وتبتعد بإشارة منها، وكان الوالي بطربوشه وبسطونه يهتزّ لغضبها، ويأتمر بأمرها. أمّا المتصرّف فكان يقبض راتباً منها، وترجع عساكره إذا دخل الذي تطارده بوّابتها، كان «كركوزاً» خيطه في يد جدّي، وجاهلاً، همّه أن يجمع المال للوالي كما كان همّ الوالي أن يجمع المال للسلطان.

وكان السلطان، حسبما قال والدي، يلزّم جباية الولاية، والوالي يلزّم جباية المتصرّفيّات، فيأخذ الملتزمون بجمع

(١) من جنسيّة القنصلاتو، أو تابعة لدولة القنصلاتو، بحسب الترجمة الحرفيّة.

الأموال التي التزموا بها ثمّ يتفرّقون لجمع المال لأنفسهم. ولم تكن آنذاك سجلاّت رسميّة. يأتي أحدهم إلى المتصرّف طالباً وظيفة، فيدفع الثمن، نقداً أو هديّة، ويقطع المتصرّف طرفاً من طبق الورق أمامه ويكتب: «عيّناً فلاناً في الوظيفة الفلانيّة». وبعد أيّام يأتي شخص آخر طالباً الوظيفة نفسها، ويكون المتصرّف قد نسي فيقطع ورقة أخرى ويكتب: «عيّنّا فلاناً في الوظيفة الفلانيّة»؛ فلا يكاد الأوّل يتسلّم حتّى يسلِّم، ولا يستطيع المراجعة بدون مال أو هديّة.

قال والدي: «كانت الدنيا فوضى، والفراكيت[١] في البحر.. وجدّكم يأمر وينهي وهو جالس في هذا البيت، في هذه القلعة.. زمان.. رحمة الله على ذاك الزمان..».

فقالت أختي ببراءة:

ـ أنا لا أحبّ ذلك الزمان..

استدار والدي إليّ وقال:

ـ وأنت؟ وفولتيرك هذا.. المظاهرات؟.. تريد الجلاء؟... جنون.. من يحمينا إذا خرجت فرنسا؟[٢] Fou اسمع، ستسافر إلى بيروت... تدرس في اليسوعيّة ببيروت.. لقد أفسدوك هنا.. ومن يدري؟ Fou لا تعرف

(١) جمع فركيتة. وهي الدارعة البحريّة Frègate.

(٢) مجنون.

مصلحة عائلتك وتريد أن تهدم كلّ شيء. . هذا البيت. . هذه القلعة، القنصلاتو. . وها هي أختك تتعلّم منك، لا تحب ذلك الزمان، ولا هذه القلعة، تتمنّون لو نهدمها.

تدخَّلت أختي:

ـ لا نهدمها بل نبدّلها. .

قاطعها بحدّة:

ـ الكلمة واحدة. . التبديل مثل الهدم. . لا، هنا سنبقى! Fou. . لن نغيّر شيئاً، ولن نسمح بالتغيير. . سنحافظ على بيتنا، ومكانتنا، وستعود القنصلاتو. . (قالها وأغمض عينيه وأضاف هامساً) لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام مرّة أخرى. .

ولم نعد إلى الكلام على الموضوع. . سافرت للدراسة. .

ما أردت مخالفة والدي. وفعلت دموع أمّي فعلها في إقناعي، ولكنّني كرهت حديثه عن «الفراكيت» والحماية والقنصلاتو والقلعة التي هي بيتنا، منذ ذلك اليوم.

وهذا الصيف حين عدت إلى المدينة، كانت حالة من الهياج تسودها، وكره شديد لفرنسا على كلّ وجه، وفي كلّ مكان، إلاَّ في البيوت التي هي قلاع كبيتنا، وفي الكازينو حيث يلتقي المستشار بأرباب هذه البيوت، يلعبون البريديج ويرقصون التانغو. . كأنّ شيئاً لا يحدث، وأمراً لن يطرأ،

والوضع باقٍ كما كان منذ الأبد، وكما سيستمرّ إلى الأبد.. ووالدي، سكرتير المستشار، وصهري «رئيس القلم»، والفلاّحون، من الصباح، على الباب، والفقراء، بأسمالهم، وأحيائهم، يثيرون القرف، وحفيظة الأب، وهزء الصهر.. والعائلة تنظر إليهم باحتقار، وتعتبرهم نوعاً من الحشرات، يكفي أن ترتفع قدم لتسحق عشرات منها...

ولكي أتنفّس قليلاً، وأتخلّص من هذه «القلعة»، ذهبت إلى الريف، ثمّ مللت فعدت إلى المدينة، وأصبت بحال من الانفصام عن أهلي وأصدقائي؛ وحسبت، وأنا أتعلّق بالموسيقى، أنّني أكتشف عالماً جديداً، أهبط جزيرة نائية عن الجميع. ولقد أحببت جزيرتي. أحببت الخيّاط وضابط الإيقاع، وعشقت الفتاة التي ستخرج من الصورة، وشغفت بالتمثال الذي دبّت فيه الحياة، وفتنتني المرأة ذات العينين السوداوين، ولكنّني اكتشفت أنّ هؤلاء جميعاً يدقّون الأرض تحتنا بأشكال مختلفة، وأنّ الأرض تتشقّق، وقلعة والدي تتصدّع، وعنجهيّة عائلتنا ليست بمنجاة.. ها هي، اليوم، تُصاب بشرخ.. بشرخ خطير طولاني.

جعلت، من مكاني في الصّالون، أراقب خزيان الأشياء من حولي.. وأتوقّع انفجارها كتعويض عن إهانتها، ولمّا وقع نظري على الخنجر الملقى على الأرض، استعدت صورة المرأة التي جاءت به، وفهمت الآن مقدار ما بذلت

من جهد كيلا تسيء إلى أمّي، وأدركت سبب دموعها وأختي تلقي بنفسها عليها. لقد وهبت المسكينة أذيّتها لها. لم تقو، وهي ترى لهفتها، أن تخيّب رجاءها. بعفويّة بكت، وبكبرياء كذلك، وألقت هذا الخنجر وخرجت وتركتنا جميعاً مسربلين بعار الاعتداء عليها وهي في بيتنا، وقد جاءت إليه، مدفوعة برغبتها في أن تكلّمني وتسأل عن حالي.

«يا والدي، يا ابن هذا الجدّ المطلّ من الجدار، يا صاحب القلعة التي كانت قنصلاتو، يا سكرتير المستشار، أيّها الراطن بالفرنسيّة والحالم بالحماية الفرنسيّة والمستند إلى الفراكيت في البحر، وملكيّة القرى في الريف، والنفوذ في المدينة، إنّني أمقت قلعتك وأمجادك وفرنسيّتك وفراكيتك وأملاكك، وأمقت معها عقليتك.. ويشاركني في هذا مستشارك، لأنّه لو كان في مثل وضعك، وأنت تحتلّ بلده، لكان مثلي لا مثلك.. ومن يدري، ربّما كان مثلك، وقد تكون له أملاك وقلاع، قد يكره لأجلها ما تكره، ويحبّ ما تحبّ. فالطيور.. وهذا الموقف.. والخنجر.. والأرجل التي تدقّ الأرض.. وقريباً تتشقّق الأرض.. تستفيق، كما قال الخيّاط، ابنة الكلبة النائمة».

سمعت صوته آمراً:

ـ عد إلى سريرك.. وحين تُشفى ترحل إلى فرنسا..

ـ ارحل إلى أيّ مكان. .

ـ وستترك العزف. .

ـ لا أرغب فيه. .

ـ طبعاً أنت ترقص لا تعزف. .

وقلت في نفسي: «أنا أدقّ الأرض لتستفيق».

أجبت:

ـ لن أعزف ولن أرقص. . . ومستعدّ الآن لترك البيت.

ـ كي تذهب إلى تلك العاهرة، قال رئيس القلم.

نظرتُ بغير إرادة نحوه وقلتُ:

ـ أنا لم أنس شيئاً عندها. .

ـ اخرس، صاح والدي.

ـ وهي أشرف من. .

ـ اخرس. . قلت لك اخرس. .

ـ وأكرم. .

طاق، طاق، طاق!

ثلاث صفعات. . ثلاث بقع حمر على الخدّين. دموع. . ورجل يسير أمامي، جيئة وذهاباً، بخطى عصبيّة، وأختي

هرعت من غرفتها ووقفت إلى جانبي، وأمّي تلطم خدّيها، و«رئيس القلم» اقترب ليتدخّل ثمّ توقّف. . والخنجر ما زال على الأرض. . لا. . ليست يدي. . إنّها لا تمتدّ. . هو والدي. . وحتّى لو لم يكن فليست يدي. . لسوف أذهب، أسافر، ولكن الخنجر باق. . إنّني أعرف. . لقد سمعتهم، هناك يدقّون الأرض، وأغمضت عينيَّ حتّى لا أرى تشقّق الأرض. خيّل إليّ إلى أنّ هوّة تنفتح فيها، وبيتنا، قلعتنا، تهوي، وصورة الجدّ تسقط وتتحطّم، ثمّ تأتي مع دوران الأشياء، مع السيول الجارفة، وتنحدر في بالوعة الدوّامة، والمرأة ذات العينين السوداوين تمسك بالخنجر ووالدتي تركع أمامها مستجيرة، مذعورة. .

استلقيت، في غرفتي، على سريري، ووضعت الوسادة على وجهي. كانت جمرتان في مكان الوجنتين. أعرف والدي وكفّه الضخمة. كان قويّاً، هرقليّاً، وحين يغضب قادر على القتل. . وبلغني، دون أن أصدّق، أنّه قتل. . سألت أمّي فنفت، لكنّ النّاس كانوا يؤكّدون. . لقد قتل أحد فلاّحيه. كان الفلاّح شاباً، جريئاً، ورفض تسليم الحبوب مقابل الديون. . وجاء الوكيل فاشتكى، عندئذ زمجر والدي:

ــ اضربه. . اقتله وأنا المسؤول. .

ــ لا يمكن. . لا أستطيع، إذا فعلت، لن أبقى في الضيعة.

فأمسك به من شاربه وصاح:

ـ أنت وكيل؟ أنت مره[1].. ارجع إلى الضيعة، وغداً بعد الظهر أريك...

وركب، بعد ظهر اليوم التّالي الكرّوسة[2]، وقصد القرية.. وسار من فوره إلى بيت الفلاّح، وناداه:

ـ اطلع يا ابن الكلب..

خرج الفلاّح وأولاده وراءه. وبدون كلام، انهال عليه بالعصا، وأولاده يبكون، وزوجه تتجرجر على الأرض، لتقبّل قدميْ والدي، وهو يرفسها، وينهال بعصاه على زوجها، والفلاّحون يتراكضون.. ويتوسّلون.. وهو يصيح بهم:

ـ من يقترب أقتله...

ونفد صبر الفلاّح، وثارت ثائرته وهو يرى الدماء تنقط من رأسه على صدره، فتناول قضيباً من الموقد، وضرب... وكان جواب والدي طلقة من مسدّسه.. سقط الفلاّح قتيلاً.. تراجع والدي وهو يتهدّد الآخرين، وركب كرّوسته وقال للحوذي: إلى البيت.. ونبح كلب.. ثمّ آخر..

(١) امرأة.

(٢) الحنطور.

وتجمّع الفلاّحون. ورفعوا زميلهم وهو يفارق الرّوح، وامرأته تحثو التراب على رأسها، وأطفالها يشدّون بثيابهم ويصيحون:

ــ بيي مات.. بيي مات..

ثلاث صفعات.. ثلاث بقع حمر على الخدّين.. ودموع.. ووسادة على الوجه.. والكرّوسة تدخل «القلعة» ورجال الدرك لا يستطيعون دخولها.. والقضيّة دفاع عن النفس: براءة... وأعطيت الزوجة بعض المال، وكانت جميلة.. وكثرت زيارات «الكرّوسة» للقرية.. والبنت الكبرى صارت خادماً عندنا..

«آه يا بنيّ.. دقّ الأرض.. دقّ.. دع ابنة الكلبة تستيقظ.. إذا رقصت إلى النهاية فلا بدّ أن تخرج الصورة من الصورة، كما دبّت الحياة في التمثال.. أنا أهوى رقصة الخنجر.. وأعلّم رقصة الخنجر.. وكثيرون يتعلّمونها..».

جاءت أختي إليّ وقالت:

ــ هل يؤلمك وجهك؟

وانحنت على ركبتي وصرخت:

ــ يا ربّ! فتق الجرح.. دم..

ونادت والدتي:

ـ يا أمّي..

طوّقتني والدتي. كانت ترتجف.. وعبثاً حاولت نزع الوسادة عن وجهي.. كنت خجلاً منها ومن نفسي وأختي، بل من وجودي كلّه.. وفي المساء ارتفعت حرارتي، وجاء والدي مع الطبيب. لم أشأ أن أنظر إليه، أدرت وجهي فيما الطبيب ينظّف الجرح ويضمّده..

وخرجوا جميعاً، ثمّ عاد والدي وقال لي:

ـ انس ما حدث.. كلّ هذه المصائب من ذلك الخيّاط..

وتناول من جيبه نقوداً وقال:

ـ أعطِ هذه لتلك المرأة..

ووضعها على «الكومودينة» قربي، وانصرف.

ـ ١٢ ـ

كتموا ما حدث عن الناس. والنقود التي وضعها والدي على «الكومودينة» ظلّت في مكانها أيّامًا، ثم رجوت أختي أن تلقي بها من النافذة. ولكي تطيّب خاطري أخذتها وأخفتها، وفي الصباح جاءت إليَّ وسألتني:

ـ أشعل بها شموعًا أم أوزّعها على الفقراء؟

ـ افعلي ما تشائين. .

ـ وإذا سأل والدي تلك المرأة؟

ـ وما علاقته بالأمر. . ؟

ـ لا شيء. . ولكنّه سيسأل. .

ـ وكيف عرفتِ أنّ النقود منه؟

ـ حزرت. .

ـ نعم منه، يريد مراضاتها، ولكنّها لن ترضى، لو أعطيتها النقود لألقتها في وجهي.

ـ لا يجوز أن تفعل هذا. . إنَّه مهين. .

ـ ولكن تلك الفلاّحة رضيت بالنقود.. وممّن؟ من قاتل زوجها..

وضعت يدها على فمي:

ـ لا تقل شيئًا.. لا أريد سماع كلمة حول هذا الموضوع.. أنا لا أصدّق.

ـ أنا أصدّق ذلك كما أصدّق وجودك هنا، قرب سريري.

ـ قلت لك لا أطيق سماع شيء.. إنَّه لأمر مخيف.

ـ مخيف وقذر..

ـ فلماذا تذكره إذن؟ ما الذي يُغضبك؟

ـ يُغضبني أن أكون ابنه!

ـ لا (صاحت) لا فائدة من تذكّر هذه الأمور.. وهو والدك، على كل حال..

ـ والدي؟

ـ نعم.. وقد ربّاك، وهو بريء.. كان يدافع عن نفسه..

ـ هراء.. خدعة.. قتله متعمّدًا.. وأخذ زوجته، واستخدم ابنته.. ماذا كانت تقول تلك الطفلة؟

هدّدتني:

ـ اسمع.. إذا كنت ستتكلّم هكذا فلن أحبّك..

ـ وهل يغيّر هذا من الحقيقة؟ قولي...

ـ لا أعرف. . قلت لك لا أريد أن أسمع. . ثم ليس والدك وحده. . الآخرون أيضًا. . الأغوات. . إذا لم يفعلوا هذا كيف يسيطرون على الفلاّحين؟ قل أنت. . وخيّاطك هذا. .

ـ وأنت؟ (أمسكتها من ياقة فستانها فيما هي تنحني لتسوية السرير وأنا أصرخ) أنت أيضًا؟ ما كنت أظنّ. . لو وضعوا في يدك السلاح لقتلت الفلاّحين إذن؟ لا أصدّق. . اذهبي. . اذهبي ولا تعودي. .

بكت. . جلست على حافّة السّرير وبكت.

ـ أنا لا أفعل. . لا يمكن أن أفعل. . لا أجرؤ، لا أقوى. . أمّا هم. . والدك والأغوات. . وهنا. . ما رأيك بقتل زوجة المحامي (. . .)؟ وماذا فعلوا للقاتل؟ قف إلى النافذة تَرَه يمرّ في طريقه إلى البيت وكأنَّ شيئًا لم يكن. . وفي كل مكان يقفون له احترامًا، وينادونه عزّت بيك. . وهو أيضًا قاتل. . وماذا يفعل أولاده؟ يكرهونه؟ وماذا فعلت زوجة المحامي؟ قتلها خطأ؟ نعم، كان يريد قتل زوجها، ولماذا؟ لأنَّه وقف في المحاكم ضدّه في قضيّة إرث. . والورثة من أقربائه ومن الفقراء. . تأمّل. . لسنا وحدنا. .

توقّفت عن البكاء فورًا. نمّ صوتها عن قناعة في أنّ الأشياء كذلك كانت، وكذلك ستكون. غدت الأشياء الشاذّة

كما يقول.. كثير من الوكلاء قُتلوا... لا تنسَ هذا.. سمعت السيّدة (...) تقول: «لتكون ملاّكًا محترمًا، يلزمك وكيل مهيوب...».

ـ وهذه الـ ... (وتلفّظت بكلمة سيّئة).

ـ ربّاه.. (صاحت أختي مستنكرة) أنت أيضًا تتلفّظ بهذه الكلمات!

غادرتني مسرعة، كأنّ تيّارًا كهربائيًّا مسّها. تركتني وحيدًا في بيت غدوت فيه غريبًا، غير مفهوم من ساكنيه. كنت الرومانتيكي الوحيد. الجميع أصبحوا واقعيين.. وما استطعت، أنا نفسي، أن أنكر هذا الواقع. ثمّة حرب.. هذا هو.. حرب من طرف واحد.. والدي محارب، ووكيله محارب، وكل الملاّكين والوكلاء محاربون.. إذا لم نضرب الفلاّحين ضربونا.. هكذا يقولون في الكازينو والبيوت الكبيرة. والفلاّحون لا يضربون.. يُضربون.. إنَّهم، حتى الآن، يُضربون.. وأختي المعجبة باليعاقبة كانت تقول: «آه[1]! Les jacobistes، آه لبراميل الخمر التي أراقوها في الشوارع، ومن الشوارع شربوها. لكم صفّقت لهم وأنا أقرأ ديكنز! أحسست أنّني أسير معهم، أحطّم، أحرق، أرقص، وأغنّي مثلهم»؛ وها هي بالمقابل تزدري الفلاّحين، تحبّ الـ jacobistes في القصص.. وتزدري الفلاّحين في

(١) اليعاقبة، فريق من الثوريين المتطرّفين في الثورة الفرنسيّة.

الواقع.. ربّما لأنّهم ليسوا jacobistes، وليسوا، كذلك، مثل المرأة ذات العينين السوداوين.. ليس لديهم خنجر.. أو لا يعرفون استعماله. لم يصبحوا أبطالاً بعد.. صبرًا، صبرًا.. «آه يا بني.. أرضنا نائمة.. دقّ عليها دقّ، دقّ لتستيقظ، بنت الكلبة هذه».. وهناك، عند الخيّاط وعند الخيّاطين، والنجّارين، وفي المرفأ، يدقّون.. أنا سمعتهم، وفعلت مثلهم.. وقريبًا، في القرى أيضًا، يصير الدقّ.. والأرض تستيقظ: الثورة، وعندئذ؟ أين أكون أنا؟ مع من أقف؟ ووالدي ووالدتي وشقيقتي؟ وأملاكنا؟ قال لنا الأب فيليكس في المدرسة: «في بلاد القيصر حدثت ثورة.. ذبحوا القيصر وعائلته، وكل النبلاء والأغنياء، وأخذوا أراضيهم وأملاكهم! Les pauvres ذبحهم الـ «Criminels» كما يذبح الدجاج، وحتى الأطفال فصلوا رؤوسهم عن أجسامهم، «Les Barbares!».. وفي نهاية خطبته، في الصفّ، طلب منّا أن نصلّي لراحة أرواحهم، ووقفنا وصلّينا.. كان الأب فيليكس يتكلّم دائمًا على الثورة ضدّ القيصر.. وفي الرابع عشر من تمّوز احتفلت المدرسة بذكرى الثورة الفرنسيّة، فخطب متهلّلاً، مشرق الوجه، وقال: Oh! quelle glorieuse révolution[1].

وأنهى خطبته دون أن يطلب منّا أن نصلّي كما توقّعنا،

---

(١) آه أيّة ثورة مجيدة!

كان يحبّ هذه الثورة وكنّا مثله نحبّها، وكان الرابع عشر من تمّوز عيدًا رسميًا. . عيدًا كبيرًا كما كان يقول. أمّا والدي فلم يكن يحبّ أيّة ثورة، ولم نسأله لماذا.

وددت لو عادت أختي لأصالحها. أعتذر عن تلفّظي بتلك الكلمة بحضورها. ما لي ولتلك السيّدة اللّعينة؟ لقد صارت عشيقة وكيلها برغم الجميع. كافأته على خدمة أملاكها. كان، برأي والدي، رجلاً كفؤًا. وفي القرى له اسم مخيف كالطاعون، لا لأنَّه يفرك اللّيرة المعدنيّة فيمحو الكتابة عنها، ولا لأنَّ قلبه مثل الصوّان، ويخافه الفلاّحون والدرك والأغوات أنفسهم، بل لأنَّه رجل. . وله صوت جميل، والسيّدة تهوى الصوت الجميل، وتهوى وكيلها الذي يركب فرسه، وينتعل جزمته، ويتقلّد بندقيّته، ويأتي إليها في منتصف اللّيل. لقد ظلّ وكيلاً كسائر الوكلاء، وعشيقًا مقبولاً على مضض، ومرفوضًا من الملاّكين الآخرين، حتى أحدث تلك الواقعة التي فتحت له أبوابهم، وعمّدته عشيقًا معترفًا به، يدخل الكازينو، ويجلس على مائدة مثلهم، ويطلب ما يشاء. . لكنّه ما كان يفعل ذلك إلاَّ قليلاً. . فهو يهوى القرية والسيّدة والمملكة التي تربّع فيها سلطانًا على الفلاّحين. . كانوا يتحدّثون، في المدينة والقرية والسراي نفسها، عن أفعاله، عن واقعته التي كسر فيها رقبة أحد العصاة، وأتى به قتيلاً في عزّ النهار. فقد حدث أنّ فلاّحًا من فلاّحيه تمرّد،

شتمه وشتم السيّدة في غيابه، وقطع أشتال الزيتون، وأخذ سلاحه وطلع إلى الجبل. تعقّبه رجال الدرك فأفلت. تعقّبوه فقَتل واحدًا منهم، زادت الملاحقة فازداد خطره.. ونزل الوكيل يومًا إلى السراي فأعلن:

ـ أنا آتيكم به.. لا أريد مكافأة ولا ترقية.. إذا قتلني لا تسألوا عن دمي، وإذا قتلته لا تطالبوني بدمه.

يقال إنَّ السيّدة بكت تلك الليلة. ذهبت في «كرّوستها» إلى القرية لإقناعه بالعدول عن المخاطرة بروحه. كان مجلسه على السطح، في ضوء القمر. كان يشرب.. وركعت أمامه، قبّلت ركبتيه، صارت أقلّ من خادم أمامه، ولم يتراجع.. عندئذ كشفت عن صدرها. الفلاّحون على الأسطحة الأخرى رأوها. يقسمون أنّهم، بعيونهم التي سيأكلها الدود، رأوها.. تعرّت... بيضاء مثل القطن.. مثل الحوريّة التي في الجنّة، وفي ضوء القمر عرضت عليه نفسها، فرفض أن يقربها، قال:

ـ تستّري.. حلفت لا أقرب النساء وابن الزانية حيّ..

يقسمون أنَّه أنشد بيت الزير سالم:

«أنا لا أهوى الصبايا ولا الرقاد مع النساء..».

ومع انتصاف اللّيل سار. أخذ بندقيّته وخنجره وسار. وظلّت السيّدة تتابعه حتى غاب بين أشجار الزيتون مصعّدًا

في الجبل، فركبت كرّوستها وانحدرت إلى قصرها في المدينة، وأبلغت زوجها بما كان، ولم تنم تلك الليلة، ونذرت، إن هو عاد، أن تعطيه ما يطلب، وتزيد.

ظهر اليوم التالي جاء النبأ. الوكيل قَتَل الفلاّح. حكايات! الفلاّح قُتل فعلاً، وأنزل الدرك جثّته وسلّموها للسلطات. الوكيل كان شجاعًا. كان يمكن أن يقتل الفلاّح. أنا أصدّق أنَّه قتله، لماذا لا أفعل؟ وأصدّق أنّ الفلاّح كان يمكن أن يقتل الوكيل. كان شجاعًا أيضًا. . والسيّدة ركبت كرّوستها من المدينة إلى القرية. ذهبت لتأتي بوكيلها الذي أصبح المالك الفعلي الآن. وعلى سريرها الزوجي قدّمت له نفسها. الفلاّحون أعجبوا بالوكيل، تذلّلوا له أكثر. صار الملاّكون يرسلون اسمه مع وكلائهم. صار الاسم رمح عنتر، وبهيبته فرضوا ما لم يكن يفرض. والدي دعاه إلى بيتنا. لم تكن أمّي جميلة كتلك السيّدة، ونساء الأغوات تنافسن في رواية الأساطير، وأسرّة الزوجيّة كانت ذات نوابض متمرّسة. . المهمّ هو الملك! من يخدم البستان فمن البستان يأكل. كان يحمي كروم السيّدة، وبقطعه رأس الفلاّح تطامنت رؤوس غيره. . المستشار كان مسرورًا، وربت على كتفه حين أدخله والدي عليه. وتدفّقت الهدايا. . عمّي قدّم له «جفتًا» ماركة «سانت تيين» أفضل ماركات أسلحة الصيد، ومن مالنا اشترينا له فرسًا. . وعلى السطح، في ضوء القمر،

شوهد جسم السيّدة الأبيض كالقطن. . وكانت مزاعم وروايات، واختفى فلاّح آخر بعد حين. وُجد مقتولاً ولم يُعرف قاتله. زعم هذا الفلاّح أنَّ الوكيل لم يقتل أحدًا. وأنّ سُمًّا دُسّ في الطعام بواسطة فلاّحة، وأنّ ذلك كان بتدبير الوكيل للخلاص من الفلاّح المتمرّد. .

وددت لو عادت أختي لأصالحها، أعتذر عن شتم تلك السيّدة «التي لا غبار على تصرّفها». أن تكون ملاّكًا فأنت ذكي إذ تبحث عن حماية لأملاكك. بيد الوكيل لا بيدها: الآخرون، أمثالها، بأيديهم، ووالدي بيده. . . وأختي معجبة بالـ Jacobistes! لا بالفلاّحين. . الثورة، في بلاد القيصر ملعونة، قال الأب فيليكس، وفي فرنسا تستحقّ الاحتفال في كل رابع عشر من تمّوز، أمّا عندنا فليس لها اسم. . . الناس لا يعرفونها ولا يتحدّثون عنها. . حسنًا! لن أتحدّث عنها أنا أيضًا. والدي يأمرني، إرضاء لجدّي على الأقلّ، ألاّ أذهب إلى الخيّاط بعد الآن، ألاّ أدقّ الأرض كما علّمني، وأن أنسى كل هذه الذكريات البغيضة.

لماذا تفلت الذاكرة من سيطرة الإرادة أحيانًا؟ أتكون كل هذه الثرثرة غير الملفوظة لا معنى لها؟ أختي تقول: «نحن في طرف والفلاّح في طرف». نحن أيقاظ وهو نائم. وأنا، ماذا أفعل أنا؟ أدقّ الأرض لأوقظه؟ أقف عكس الرِّيح وأذرّ الغبار لتمتلئ بها عيناي؟ أسافر إذن؟. . في فرنسا لا أدقّ

ولا أسمع الدقّ. هناك أعيش سائحًا، لا أجد تعارضًا بين حبّي للعدالة وحبّي لأهلي.. لا أخجل من رؤية أصدقائي في الشارع، ولا من رؤية المستشار يجالس والدي في الكازينو، ولا أقرأ في الكتب شيئًا وأفكّر بين الناس بشيء آخر. ثم أتحوّل من دراسة الحقوق إلى دراسة الطبّ، أدع مشكلة القانون وما يتّصل بها!

فُتِح الباب عليّ وأطلّت أختي. كانت تصرّ قبضتها على شيء. قالت بالوداعة التي انتقلت إليها من أمّي:

ـ احزر ما هذا؟

ـ أريد أن أعتذر..

ـ عن ماذا؟ (وتذكّرت فورًا) لا تعد إلى تلك الأحاديث.. لم أكن أتصوّر أنّك تتلفّظ بمثل تلك الكلمة.

ـ طيّب، قبّليني إذن..

قبّلتني من خدّي. ارتدّت وحملقت فيّ. وأرسلت يدها مبسوطة الراحة على جبيني:

ـ يا ربّ! أنت محموم.. يجب استدعاء الطبيب.

جاءت أمّي مهرولة.

ـ يا ولدي الحبيب.. أنا لا أكره تلك المرأة. أعتذر إليها إذا كان هذا يرضيك.. لماذا تصمت كلّما دخلْتُ عليك؟

ـ يا أمّاه..

يدها بين يدي. شعرت، لأوّل مرّة منذ الحادث، بندم على ما فعلت. طائشًا كنت. تصرّفت بما لا يتفق ووضعي الاجتماعي. تلك الجوقة التي أفلست وباعتني الكمان، ثم ذلك المايسترو وشكله الجامد ونوطاته المملّة، والحلاّق العجوز، والخيّاط الذي ألهب روحي وخيالي. كنت عاشقًا قبل أن آتي إليه؟ عشقت بعد سماعي أسطورته؟ وضابط الإيقاع؟ والمرأة ذات العينين السوداوين، وتلك الأحياء الشعبيّة؟ وأخيرًا على من الحقّ؟ ها هي أختي تملّ قلعتنا أيضًا. وابنة عمّي تتوسّل كي أصطحبها إلى الخيّاط فترى رقصي وترقص.. ترى سمعت بمجيء المرأة إلينا؟ من يقول لها؟ الأفضل ألاّ يقولوا. وتلك المرأة لن تتكلّم.. يا لعينيها حين استدارت ونظرت إليّ، وحين ألقت الخنجر باتجاهي!!

هتفوا للطبيب. كانت حرارتي مرتفعة، واتضح للطبيب أنّني لم أتناول الدواء المضادّ للالتهاب. وقال لوالدي سرًّا إنّني تحت وطأة صدمة عصبيّة، ولا أفعل شيئًا لمساعدة جرحي على الالتئام. كان من رأيه أن أُنقل إلى المستشفى، فعارضت والدتي. وافق الطبيب على بقائي في البيت شريطة ألاّ أتعرّض لجوّ يزيد من توتّري العصبي، وأن يراقبوا تناولي الأدوية في مواعيدها. تطوّعت أختي لتمريضي، وفي حديث بين ربّ العائلة وطبيبها الخاصّ، أفضى والدي بسرّ النكسة

والصدمة العصبيّة التي تعرّضت لها.

ـ تظنّ أنَّه خاف تلك المرأة أم له علاقات عاطفيّة معها؟ سأل الطبيب:

قال والدي:

ـ الخوف مستبعد..

ـ وما سرّ ذلك الخنجر؟

ـ كان يرقص به.

ـ يرقص بخنجر؟

ـ نعم. أغراه بذلك خيّاط يعلّم الموسيقى. ذهب إليه ليأخذ دروسًا في العزف على العود فعلّمه رقصة الخنجر...

ـ الرقصة الشركسيّة؟

ـ هي ذاتها...

ـ ولكنّها خطرة.. كيف سمحت بذلك؟

ـ لم أستطع منعه.. ثمّ أردت أن يتلهّى عن رفاقه القدامى.. ولا يشترك في مظاهراتهم.

ابتسم الطبيب:

ـ بودّي أن أراه يرقص يومًا.. رقصة الفرسان هذه.

ـ ما أظّنها تستحقّ الاهتمام.. التانغو يا صاحبي..

ـ أنت عجوز. .

غاض الإشراق في وجه الأب. . كانت المرأة في دائرة الرجاء.

ـ النّار في القرمة العتيقة يا حكيم!

ـ لا نار ولا جمر. . اسمع. . هل وقع للمرأة حادث في بيتكم؟ إذا كان في وسعكم أن تحضروها إليه. . أن يراها على الأقلّ. . ورقصة الخنجر هذه. . سأشاهدها يومًا. . ما اسم ذلك الخيّاط. . ؟ وابنك، لماذا لا تزوّجه؟

رفضت المرأة أن تأتي. أرسل والدي الخادم تدعوها لمقابلة «البيك» فضحكت. «طيّب ـ قالت ـ لينتظرني» وطلب من والدتي أن تكون لطيفة معها. وأعدّت لها الأمّ هديّة، وتغيّب «رئيس القلم» بإيعاز من حميه. كانت قضيّته معلّقة لا تزال، ومن الأفضل ألاّ يكون موجودًا. ولعلّ أختي، في توقّع لا يستند إلاّ على الحدس، كانت الوحيدة التي أدركت أنّها لن تأتي، وأنَّ الجرح، في كرامتها، لا يزال مفتوحًا.

أخفوا الأمر عنّي. والكآبة التي ألمّت بالأمّ كانت إشفاقًا عليّ وخوفًا من المرأة أن تنتقم. أحسب أنَّها رأت في منامها رؤى مزعجة. وقعت تحت تأثير رعب منها، وكانت تتمنّى لو أتاحت لها فرصة مصالحتها.

بعد أيّام التأم الجرح. زالت الحرارة تدريجيًّا، وتخلّصت من إلحاح كابوس اليقظة بسبب موقف والدي من فلاّحيه،

وتذكّرت ما كانت تخفيه أختي في قبضتها حين دخلت عليّ وهي تقول: «احزر ما في يدي؟». سألتها عنه فجاءتني به مسرورة، وقالت بنبرة صدق حنون:

ـ هذه ليست نقود والدنا.. إنّها لي، سلسلتي الذهبيّة، خذها لها.. ولسوف تقبلها منّي...

والدي وضع النقود باستعلاء، مع تعبير مؤدّاه: «اعطها لها وستكون ممتنّة!» لم يتصنّع ذلك. بيقينيّة تعاقب الفصول كان موقنًا أنَّ كل شيء يُسوّى بالمال. وبخلاف أمّي، التي مع طيبتها، كانت خائفة منها وتريد إرضائي، كانت أختي تصدر عن عاطفة ودِّيَّة وعرفان بالجميل تجاه إنسانة تنازلت عن حقّها في ردّ الصفعة للأمّ.

كانت السلسلة الذهبيّة ملساء، ناعمة، كحبّات الرّمل، تتجمّع وتنفرد حلقاتها مدسوسة في راحة اليد. أبقيتها في كفّي. لهوت بها. كنت ألامس شعرًا خرنوبيًّا لفتاة صغيرة. لامست الذقن والوجنتين. لم تكبر أختي. ها هي، طفلة كما كانت، تتخلّى عن أشيائها بسماحة وبراءة. الرّمل الذهبي في الكفّ.. نخل من يد إلى يد... أعدته، نخلته، تركت طرف السلسلة يطير في دوّامة ويلتفّ حول سبابتي.. أشرق وجهي. أشرق قلبي، والغرفة تهلّلت. ماذا تقول تلك المرأة؟ تلك اليعقوبيّة الفاتنة؟ وأحبّتها أختي لأنَّها يعقوبيّة وفاتنة؟ ويأتي يوم تواجه فيه ابنة «القلعة» امرأة القبو، ولا

يكون فيه شافع حتى ولا حبّات الرّمل الذهبيّة التي تنساب حريريَّة بين أصابعي؟ نهوى ونموت من الهوى؟ نكون وقودًا لنارنا؟ طريدة للصيّاد الذي نبحث عنه؟

هبّت الرِّيح من النافذة. انتفخت الستارة الساتانيّة، البيضاء، وكقلوع امتلأت بالهواء، ثم تملّص طرفها وارتفع عن الأرض إلى حافّة النافذة وطار مع الرِّيح إلى الداخل.. لم يأت محمولاً على أجنحة الرِّيح. لو يحدث، مرّة، ويأتي الذي نحبّ محمولاً على أجنحة الرِّيح! حدث هذا مع ضابط الإيقاع. هو قال إنَّه رأى فتاة التمثال، بثياب شفّافة كالنور الأبيض تدخل غرفته. والخيّاط قال إنَّ فتاة الصورة خرجت من الصورة وعانقت الراقص.. أنا منذ أسبوع جريح ولم تأت فتاتي. أنا لم أعزف، لم أرقص لفتاتي. أنا ليس لي فتاة.. كابنة عمِّي التي ليس لها فتى.. وماذا اجترحنا، أنا وهي، ليكون لنا فتاة أو فتى؟ في داخلنا فراغ، وفي الفراغ دخان.. نار تنسّ[1] ولا تشتعل. أنا عاشق؟ ومن هي التي أعشق؟

يا للنفس كم تشف بعد المرض! ينغسل الصدر وتعكس مرآته الأشياء والذكريات بصفاء الماء في بحيرة حولها أشجار وزهور وخضرة، وطيور حمر، وصفر، وزرق، تتطاير، على

(١) نسَّ الحطبُ، أخرجت النارُ زبدَه.

الأغصان الممتدّة، المنحنية، المنعكسة، كالتهاويل فوق بحيرة.. الأشجار تحلم، والزهور تحلم، والماء يحلم، وأنا أحلم.

حبل حبّات الرّمل الذهبيّة، الفقريّة، المخمليّة، يتداعى، ويتنامى، ويستطيل، ويتكوّر، بين يدي. أنا مستسلم إلى أرجوحة لا وجود لها، لا حقيقة، سوى إحساسي بأنّي أركب فيها، وأنَّها تروح بي وتجيء، ونشوة تهدهدني، تجعلني أسترخي، أشرد مع خواطري، وتمرّ بي الأشياء، مرور مخمل على خدّ.. وأستعيد صفائي وحنيني، ورغبة آسرة تتملّكني لمصالحة هذا العالم، للعيش فيه بسلام، بمحبّة، أعمل، أعزف، أرقص، وأرى صورتي في مياه بحيرة داخل غابة ملأى بالأشجار والأزهار والأطيار.

لتأت ابنة عمّي الآن. سأحبّ عويناتها الطبِّيَّة، وأضمّها، المسكينة، وأقبّلها من خدّها وجبينها. سأكون لطيفًا معها. سأقول لها: «هيّا، من تحبّين؟ من هو فتاك؟ سأكون صديقه. وسآخذك، أنت وأختي، إلى الخيّاط، وأرقص تلك الرقصة العنيفة، الخطرة، اللّذيذة، وأرسم بالخنجر دوائر من نار. أدع يدي تغزل، لأجلكما، دوائر من نار، وأمامكما، وضابط الإيقاع يوقِّع بأصابع ساحرة نداءات اللّحظة الحاسمة، سأحني ركبتي، كما يفعل الراقص أمام من يحبّ، وأهوي بخنجري عليها، كما يهوي السنونو من حالق، وإذ

يهبط قلب الرّائي، خوفًا على جناح الطائر، يكون هو قد ارتفع.. لامس الأرض وارتفع.. الخنجر، بنصله الرهيف، اللامع، لامس الركبة وارتفع، ويصيح الخيّاط «هوب لا!» وأقفز كخذروف في الهواء، لأسقط على الوضع نفسه، وأرسل خنجري، عن يمين الركبة ويسارها، في ضرب خاطف، كالومض الخاطف، كالتيّار المشعّ، على صفحة صقيلة، بسرعة الضوء أو الغضب.

لكن ماذا لو حدث، ورأيت تلك الابتسامة، وأنا في فورة اندفاعي العاطفي، والخنجر يوقِّع لحنه المجنون على الركبة الشبقة؟ ابتسامة من كانت تلك الابتسامة؟ قبل أن نحبّ نرى الحبيب؟ إحساس مسبق له دبيب الخمرة إذ هي شوق يومض. صراخ لا يُسمع، في الأحشاء، كالهمهمة، في السكون المهيب، قبيل المطر. حاسّة سادسة؟ ربما، أصدق الحواس، تقول لك، ولا كلام، تهيّأ لاستقبال الفرح الآتي، وسط الهالة النورانيّة لارتعاشات الجسد والرّوح في لحظات التوقّع.

توقّعتك، أنتِ، يا شوقًا في دمي، يا دبيبًا مرعشًا في أعصابي، قبل الأسطورة وبعدها، قبل حكاية ضابط الإيقاع وبعدها، توقّعتكِ، وانتظرتكِ، وأعرف أنَّك ستخرجين لي من الصورة، وتنبثقين من حجر التمثال، وما عليّ إلاَّ أن أعزف... أن أرقص وأرقص وأرقص إلى النهاية.

«أخبرني، يا من تحبّه نفسي، أين ترعى؟ أين تربض في الظهيرة؟ أنا نائم وقلبي مستيقظ. صوت حبيبي يأتي قارعًا بابي. افتحي لي يا أختي، يا حبيبتي، يا حمامتي، يا كاملتي، لأنّ رأسي امتلأ من الطلّ، وقصصي من ندى اللّيل.. مشرقة كالصباح أنتِ، جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، مرهبة كجيوش بألوية».

- ١٣ -

ترنّحت ابنة عمّي تحت ضربات لم تُسدّد إليها. انغلق كتفاها وانزلق حامل النظّارات على أرنبة أنفها. هي لم تلحظ ذلك، ولا أختي انتبهت. نمضي في الحديث أحيانًا بحماس، برغبة في أن نصنع مسرّة للسامع، وهو يصغي، يجامل، يبتسم، ويفقد، في صدمته وشعوره بالانخذال، القدرة على أن يقول لنا: «كفّوا عن الحديث».

في اللحظة التي نقول فيها «هذه المرأة تحبّني» نقول أيضًا «لا تحبّك أنت» من أنت؟ الاسم لا يهمّ، غير أنّ القلب قلّما يتّسع لاثنين. ليس كفّتي ميزان هو، أنت والآخر، في كلٍّ منهما، وبشكل متساو. لا بدّ أن تشيل إحدى الكفّتين، وعندئذ يتقرّر مصير الذي في الكفّة الشائلة. لنحذر، ونحن نتحدّث عن الحبّ. قلب يسعد وآخر يتفطّر. الكلمات خناجر. والخنجر، في المقتل، يجهز. الكلمة تجهز، تحيي وتميت.

ابنة عمّي مهمومة. رأسها يميل، ممسوكًا بعروق الرقبة كي لا يسقط. الطيرة التي لم تجد صيّادًا يطلق عليها، عرفت

أنّ صيّادًا، قريبًا، عزيزًا، يُطلق على غيرها. كانت تعرف، تقتنع، وفي ذاتها تؤكّد، ولكن أن يأتيها التأكيد من غيرها، معنى ذلك أنَّ لعبة الوهم التي تمارسها انتهت.

والأخت تفيض: «لو رأيتها، لو رأيت عينيها! ما كنت أتصوّر امرأة بهذا السحر، وهذه الجرأة.. وبلا خوف، ولا تردّد، قالت إنَّها تريده.. ومن أجله جاءت..».

لم تسألها: «رأته؟» لم تقاطعها. ومن كل الكلمات، عنتها واحدة: عيناها! لا تكافؤ إذن في المنافسة، ولا فائدة منها. فارس برمح، وفارس أعزل. امرأة بنظّارات طبِّيَّة، وامرأة بغير نظّارات طبِّيَّة «لو رأيت عينيها» ولماذا، يا ربّ، لم تعطني مثل عينيها؟ حتى ولو أعطاها.. بعض الطيور، يُلقى في الحلبة ويتركها قبل أن ينازل خصمه فيها. في قريتنا جاؤوا بديكين للقتال. فرّ أحدهما من خصمه قبل أن يلتحم به. جاؤوا بديك آخر ودفعوه باتجاه الديك المقاتل. نازله. زعموا أنَّ الدِّيك المقاتل قد أُطعم فلفلاً، وأنَّه، لذلك، انتصر. ما همّني ذلك. أعجبت بانتصاره، وأعجبت أيضًا، بالدِّيك المنهزم. لم يكن قادرًا على النصر. كان هذا واضحًا، ولكنّه جرّب أن ينتزعه. لعلّه فضّل الموت على الفرار. وفي عينيه الصافيتين، تحت عرفه الأحمر، الدامي، لاح قهر. لم يعد يهاجم. اتّخذ وضعيّة دفاع يائس، وتطاير ريشه الأحمر والأصفر والأخضر من جناحيه، تحت ضربات

منقار الذي صار عدوّه الآن. وانتتف الزغب الأبيض من صدره. خرج بعضه مع اللّحم. راح يداري ضعفه بحركات عرضانيّة. حجب صدره، زاغ برأسه من دائرة الانقضاض للمنقار القرشي الشرس، وأبى أن يفرّ. وحين فصلوا، بينهما، قال الوكيل، وهو يمسك به:

ـ لنذبحه، يا سيّدي، لا خير فيه..

حوّلت أختي وجهها عنه. كانت الدماء قد غطّت عينيه الآن، وغدا عرفه الجميل قبيحًا، منكوشًا، مشوّهًا. تناولته من يد الوكيل، ورحت، بيدي، أسوّي ريشه وألاطفه، وطلبت له الماء وشيئًا من القمح، وقلت للوكيل:

ـ لنذبح الديك الآخر، الذي رفض القتال.

ـ ولكن هذا قد يموت..

ـ ليكن.. دعه يمت ولكن اذبح الآخر..

لم يقتنع الوكيل ولم يخالف. ذبح الدِّيك الذي رفض القتال. وظلّ الدِّيك المدمّى حيًّا. ولكي أدفع عنه الأذى، حتى يُشفى ويتقوّى، أخذته إلى الإسطبل، بعيدًا عن الخمّ، واعتنيت به. كان جديرًا بالعناية، وقد بذلتها له، وبغير أن أفكّر فيها.

البشر لا يُذبحون مثل الطيور، ولكنّهم مثلها يموتون. أشفقت على ابنة عمِّي، رثيت لها، ولكنّني أعجبت بالمرأة ذات العينين السوداوين، التي، بدون قتال، تخلّت لها ابنة

عمّي عن الساحة. تنازلت، سلفًا، عن حقّها، وانسحبت إلى صدفتها. . . السلحفاة انسحبت إلى صدفتها.

كانت تريد أن تقول لي شيئًا؟ ولا هذا، فيما بدا. دخلت عليّ لأنَّ قدميها قادتاها. في اللاوعي، نحت منحى الذين يبكون على فقيدهم استدرارًا لشفقة الآخرين عليهم. كان لها فقيدها: قلبها، ولم يكن حزنها عليه. أرادته لأراه أنا، لأشفق عليها. وفي سريرتها ما رجت الانتفاع من الشفقة. إنّما، للاشيء، كانت تريدها.

منظرها الحزين، المتصاغر تحت وطأة صدمة لا أعرفها، فجّر في ذاتي شعورًا بالمشاركة لحالها. قرَّبها منّي كمخلوقة بائسة، أمّا كأنثى فقد صارت بعيدة. وقلت في نفسي «لو كان هناك «رئيس قلم آخر!» غنيّة هي، ولسوف تجد من يخطبها لغناها. ربما كان غنيًا هو الآخر. الناس يريدون جمع أشيائهم بعضها إلى بعض، وسيكون هذا ملائمًا له. أختي قبلت بمثل هذا الوضع. ردود فعل الخيبة العاطفيّة تغرق في بئر الاستعداد الوراثي للرضى بالحياة على نحو هيّن، ويأتي الزوج، في هذه الحال، تكملة شكليّة لمتطلّبات تكوين الأسرة. تختلفان في الاطمئنان الداخلي وعدمه. والموسيقى عجزت عن امتصاص القلق وعن تفجيره أيضًا. إنّها تنوح. أنا أسمع نواحها، ولكن من أيّ شيء ولأيّ شيء، وماذا أفعل لها؟

جلست، كالمرّة السابقة، على حافّة سريري. الوضع الجانبي، ذاته. لا تريد أن أرى عويناتها الطبّيّة. ولفّنا صمت مجّاني، ثقيل. أنا، على الأقلّ، لم يكن لديّ ما أقوله، وهي قنطت من جدوى الكلام قبل أن تتكلّم. لم تجرؤ. الصغيرة التي كانت تهرول إلى جانبي، في طريقنا إلى المدرسة، وتستشعر، وهي تدور حولي، فرحة القربى وحماية الأخ، أضاعت عفويّة مشاعرها ولم تعثر على مقابل. ارتكس إحساسها بالضعف فانقلب إلى إحساس بعدم جدارتها في الحصول على ما تطمح إليه. صار هوانًا مَرَضيًّا ينزف ببطء، ويغتال عاطفتها بسمّ يدسّه الشعور المعذّب في الدم. كانت على شكّ من الحصول على عاطفة ما، غير العاطفة التي تفرضها القرابة. وكانت تتلمّس هذه العاطفة إعزازًا متميّزًا، خاصًّا بها، وهذا ما كان يرضيها في فترات الهدوء، حين تنتفي العربدة في الأنثى، وتهجع الرغبات التي في الجسم. وفي هذه الأحوال تأخذ التضحية لحسابها. تتسامى بها، وتغزل من خيوطها ملاءة لنكران الذات. تقول في نفسها: «هذا ما يجب: الصبر. لسوف يأتي ذلك اليوم.. وحتى لو لم يأت، فلن يكون في وسعي أن أستقدمه.. هو يفهم، يرى، ويقدّر. يعرف أنّني أحبّه. لماذا، إذن، عليّ أن أكرّر هذه الكلمة بلساني؟ أنا أحبّه، أحبّه، وهذا يكفي. ماذا أريد منه؟ الزواج؟ ما أسخف حبّي إذن. العلاقة بين فتاة وشابّ، وهو ابن عمّي؟ يا إلّهي الطيّب، عينك وحدها تنفذ

إلى سريرتي، وتدرك أنَّ حبِّي فوق هذا. . كل ما أريده أن أراه، أن أسمعه، وأعيش لحظات قربه. ليكن سعيدًا، ليكن محبوبًا، وسالمًا، فالأنانيّة تشوّه الحبّ، تشوّه حبّي، تعذّبني، وأنا لست أنانيّة، لا أطمع في شيء، لا أريد منه شيئًا، وعليّ أن أرضى، وأهدأ، وأتخلّص من قلقي وأستعيد طمأنينتي. . أحبّه. . أحبّه. . وهل ثمّة من يمنعني أن أفعل؟ لماذا إذن، أنا تعيسة بهذا الشكل؟».

تبتسم لنفسها. تبتسم في مرآتها. تجهد لأن تستعيد صفاءها، وتنبذ الكدر الذي يرين على عالمها. «إنَّه يعزّني. . وقد كان أمس لطيفًا معي، وكلماته. . كيف قالها؟ بأيّة مناسبة؟ واقترح عليّ أن أعزف له. . يا إلٰهي لو أعزف له. . لو يسمع كي أعزف له. . ونتنزّه. . وتنزّهنا. . وجلسنا. . وضحكنا. . وماذا، أكثر، أريد؟».

الأمسيات السعيدة، والنفس، في إشراقة الفيض، تسبح في التهاويل. صوفيّة ذات بهاء. ونشوة، كإغفاءة الصباح، والروح على وفاق مع الجسم: هدنة! لا ألم ولا لذّة، رياضة عاطفيّة، وكلّ شيء في النقطة التي وصل إليها الإحساس بالاكتفاء الذاتي، بالشبع المخادع للغريزة الجائعة.

كم يدوم هذا؟ كم نستطيع أن نبقي عواطفنا في النقطة الميّتة؟ أن نمارس الحبّ، من طرف واحد، ونرضى؟ يا للبلاهة! لا نسغ، لا لقاح، والقلب في الليالي ينادي،

والجسم ينادي، والألم ينادي. . والهدنة منقوضة، وعلى الأسرّة نتقلّب، وقناعات التضحية هباء، والغرائز الهاجعة عواء، وكل ما نبني، في ساعة الانسجام، ينهار تحت مطارق الفوضى. . . إنّها الثورة، والنّار في الأحشاء، والإشراقة تفيض، ولا نفع في إغراق القمقم. . خرجت العاطفة الحبيسة من القمقم.

ابنة عمّي جالسة على حافّة السرير. صار الشكّ يقينًا. المرأة تلك، كانت شكًّا فصارت يقينًا. لسوف تنهض وتمضي. كان عليها، قبل الدخول، أن تمضي. ولكنّ النملة لا تمضي. تدور في مكانها وقد اختلّ توازنها. يد خبيثة نتفت شعرتيها الأماميّتين. كان أرحم لها لو سحقتها. اليد اكتفت بتجريدها من بوصلتيها، وفي التيه ألقت بها، والكسوف غدا محاقًا كاملاً الآن.

ما كنت أعلم أنّها تحبّني، وتتعذّب صامتة في حبّي. كنت أنظر إليها كطيرة لا تقوى على التحليق. ترفرف بجناحي دجاجة، من الأرض إلى أعلى السياج، ومن السياج إلى الأرض فالخمّ، وليس ثمّة ذئب. الذئب يصطاد الدجاج، وابن آوى يخطفه. ولقد أشفقت على هذه الطيرة، على ابنة عمّي الطيرة، ولكنّي ما فكّرت يومًا أن أُطلق عليها. كان لي اعتداد الصيّاد، ولم يكن لها اعتداد الطريدة. القبّرة لا تستأهل رصاص البندقيّة، يكفي لها الفخّ، ولم أكن ناصب

فخاخ. . ومن عجب أن كل تسبيحات قبّرتي فاتنتي، وكل رفرفاتها، في السفح، لم تبلغ أن تستوقف الصيّادين الذين يقصدون الجبل. . .

ظلّت جالسة على حافّة السّرير، منكمشة مذعورة، كالأرنب الذي فاجأه ضوء باهر. . ستُقتل الآن، أو تنتفض فيها الحياة فتتحدّى الضوء المبهر. يداها تلاقتا في حضنها. تشابكتا. انجدلتا. ولمحت اختلاجًا خفيفًا. نأت عن دائرة الضوء. لم تتحرّك ولكنّها نأت. همدت. وامتلأت الغرفة بالغيم، وصارت ابنة عمّي في الغيم، تسرّب إليها، ملأها، خنقها، وخيّل إليّ أنّ نفقًا من الغيوم يندفع إليها ويبتلعها.

جاءت أختي. كانت تغتنم فرصة وجود من يسلّيني لكي تنصرف إلى عمل ما فتتمّه. مع ابنة عمّي تأخذ حرّيّتها أكثر. تعرف أنَّها تتكلّم على الموسيقى أو الكتب، وهي لا تجيد الكلام على الموسيقى ولا الكتب. تدعنا معًا. ثم تتذكّرنا فتأتي إلينا.

من الصالون حملت معها نسمة بدّدت الغيم. تنفّست بعمق حين فتحت الباب، كأنّما كان في غرفتي غاز خانق، وكأنّما، ابنة عمّي وأنا، كنّا موشكين على الموت اختناقًا. تجدّد الهواء، ومع المجرى خرج دخان كثيف أسخم، والجوّ الرماديّ تبدّل، تنوّر، تلوّن بباقة البنفسج التي أحضرتها في زهريّة من الخزف الأبيض المعرّق بالأزرق. وبادرت إلى

النافذة فأزاحت الستارة وهي تقول: «كيف تطيقان العتمة؟» واقترحت أن نشرب القهوة «وأنا أفتح لكما في الفنجان» وعلى العتبة أضافت: «وسأفشي السرّ. . سأقول ما أراه في الفنجان، بصوت عال».

تناولت بنفسجة من الزهريّة وشممتها. ولكي أبدّد الصمت قلت:

ـ تحبّين البنفسج؟

هزّت ابنة عمّي كتفيها كأنّها لا تعرف ما هو البنفسج، أو لا يعنيها البنفسج. تحرّكت عن السرير فوقفت وهمّت بالخروج، انتابني شعور بالذنب مفاجئ، فنهضت وأمسكت بها من كتفيها. أدرتها، بيسر، من كتفيها، ورفعت وجهها، بيدي، نحوي، وابتسمت لها، لأوّل مرّة، من قلبي. احتضنتها، قبّلتها، وأخفيت رأسها في صدري، لأكتم نشيجها، وبكفّي مسّدت شعرها، واحتويتها كطفلة، وأجلستها كرَّة أخرى على سريري، وشكلت البنفسجة في عروتها وصحت، مخادعًا أختي التي دخلت:

ـ لقد تصالحنا! الآن تصالحنا. .

وقالت أختي:

ـ إذن أغضبتها؟ تغضبها وتصالحها؟. . مشاكس!

وضعت صينيّة القهوة على المنضدة وانحنت عليها.

«تبكين؟ ـ صاحت ـ وماذا قال لك؟» حاولت فكّ يديها عن وجهها فما أفلحت. التفتت إليّ مغاضبة «بماذا أسأت إليها؟ أما رجوتك ألاَّ تسيء إليها؟ لن أفتح لك في الفنجان.. ولن تعزف لك بعد اليوم، يا راقص الخنجر، أنت!».

وقالت ابنة عمّي وهي تبكي:

ـ لكنّه لم يسئ إليّ.. بالعكس، كان لطيفًا معي، كان لطيفًا جدًّا معي.

ـ وتسمّين هذا لطفًا..؟ أنت لن تكبري أبدًا.. وهذا الشقي، منذ الصغر يخمشك. وأنتِ، بالمقابل تتودّدين إليه.. ماذا قال لك؟

وجدت نفسي، بلا قصد، أكذب:

ـ قلت لها إنَّ موسيقاها لا تعجبني.

ـ لا تعجبك؟ ولماذا تصغي إليها؟

ـ أنا لا أصغي إليها.

وقالت ابنة عمّي:

ـ وأنا أبكي لأنّه لا يصغي إليها..

فخفقت أختي بكفّيها على جنبيها، وقالت:

ـ مجنونة! لهذا تبكين إذن؟ Tant pis.. لو كنت مكانك لضحكت.. وحتى لو سخر منّي لضحكت.. يا إلٰهي! وهل هذا شيء يُبكي؟

كيف تقول ابنة عمّي لأختي إنَّه شيء يُبكي؟ ليس الشيء بذاته بل بمعناه. ألاَّ نحبّ أشياء الآخرين فمعنى هذا أنّنا لا نحبّهم. وحين يكونون، هم، بحاجة إلى حبّنا، تصبح محبّة تلك الأشياء ضروريّة، مفرحة، ومبكية أيضًا. وأختي لا تبكي، وكذلك لا تفرح. أختي، كأمّي، في النقطة الميّتة أبدًا. أختي، كأمّي، ستظلّ في النقطة الميّتة أبدًا، ولهذا لا تفهم، ولا تهتمّ بأن تفهم.

غادرتنا بعد قليل إلى الخيّاطة. كانت أمّي في زيارة صديقة لها. وكان على أختي أن تذهب إلى الخيّاطة، وما كان ذلك ممكنًا لو رفضت ابنة عمّي أن تبقى. ولقد رفضت في البدء، وبإصرار، أن تبقى. وحدستِ لماذا! كانت، بصدق، تخاف، ومن أعماقها تخاف. لقد أزهر غصن في الأعماق. وسط الثلج نار. لا تسألوا كيف تشتعل على الثلج نار. أحيانًا يحدث هذا. قد لا يدوم ولكنّه يحدث. فجأة، في الجسم المقرور، تنتشر حمّى. والعدوى، في الجسم المقابل، حمّى مقابلة. ونظرة كافية لإشعال الفتيل، لحرق الحواجز، وإضرام النّار في الجسم والثياب وكل مواضعات العقل والأخلاق.

الحبّ ليس مداليّة نعلّقها للزينة. نداء جسد هو، وشيء أسمى وأبقى. والجسد ينادي بحبّ وبدونه. من الهنيهة ينبثق، ومعها يموت، وندرك هذه الحقيقة ونسلّم بها. نكون

عاجزين عن رفضها، ونعود للحظة إلى فطرتنا، إلى طبيعتنا، وعندئذ نلتقي ونفترق، وكلٌّ منّا يريد أن يلتقي، ولا يبالي أن يفترق، لا يفكّر، أصلاً، بأنّه يلتقي ليفترق.

الآن الآن. في هذه اللّحظة، لا قبلها ولا بعدها. الآن تفجّر في صدري شعور بالشفقة لا يحدّ، على الطيرة التي لم يُطلق عليها صيّاد، والآن تفجّر في صدرها قبول للشفقة لأنّها بحاجة إليها، كما الأرض العطشى إلى الماء. اسقني ماء، أيّ ماء، فقط اسقني. الأرض المرويّة هي التي تتعزّز. تدع الماء يتجمّع على صفحتها ويسيل إلى غيرها. أمّا الأرض العطشى فتتشهّى، وتمتصّ حتى الندى، قبل أن يصل إليها... وأن نكون، مرّة، قطرة ندى، على وردة أذبلها الجفاف! أنت لا تستطيع، لو كنت قطرة ندى، أن تمتنع عن وردة أذبلها الجفاف! تدع نفسك تسقط، كالدّمعة، على التويج. والوردة ترتعش وهي تتلقّى القطرة الهامية على التويج. الوردة تتفتّح لتُقطع، فإذا لم تُقطع شاخت، وعندما تشيخ تموت. تنفرط أوراقها بلا احتفاء، بلا شمّ، بلا ضمّ. وبلا زهريّة من الخزف الأزرق والماء الصافي. ولكي لا تشيخ، ولا تذبل، ولا تموت، تتشهّى نقطة الماء، وتلتقطها من الرِّيح، وتمتصها.

في تلك اللّحظة، وابنة عمّي ترتعش أمامي، كانت الوردة تتشهّى قطرة الماء، وقطرة الماء لا تستطيع الامتناع عن

الوردة المتشهّية، وحين أبصرت شفتيها المرتجفتين، والمسحة العندميّة للحمّى الداخليّة على الوجه، أدركت أنّني ارتكبت خطأ باندفاعي مع إشفاقي.

بقينا لحظات ساهمين. تجنّبت النظر إليها. كنت أعرف أنّها تريد أن أنظر إليها، وتناديني بكل عواطفها وحقّها ورجائها، أن أنظر إليها، وكنت أعرف نظرتي الملعونة، وكانت هي، بتضرّع ينمّ عنه ارتعاشها، تتوسّل نظرتي الملعونة، نظرة الذكر إلى الأنثى، نظرة الرجل إلى المرأة. كانت تشكّ في أنّها أنثى، وفجأة اكتشفت أنَّها أنثى، ومقابل كل حياتها، كانت تتطلّب البرهان على أنَّها أنثى.

«لك أقول احمل فراشك وامش» نهض الكسيح فحمل فراشه ومشى. ولكِ أقول.. لا.. لن أقول.. سأدعها كسيحة. من أنا؟ من أنتَ؟ من أنتِ؟ الإنسان، في لحظة ما، إنسان ولا إنسان، أعلى أو أدنى. كل شيء يتوقّف على الكلمة التي تصدر من الداخل. قلب أم حجر في الداخل؟ قلب وحجر في الداخل. وهو، وحده، القادر على التصرّف بالقلب والحجر اللذين في الداخل. حاكم أنت، ومحكوم هو. من جعلك حاكمًا ومن جعله محكومًا. أجّل سؤالك الآن. ستجد الوقت لتطرحه، وستجده أكبر وأخطر من كل الأسئلة حين تطرحه. أنت على العرش، وهو على النطع، والسيّاف يشدّ على مقبض السيف، وقلب أم حجر؟

قلب! ما كنت قادرًا على الرجم. لماذا، حين يكون في وسعنا أن نُنْهِض كسيحًا، نعاند ونصرّ على إبقائه كسيحًا؟ تهيّأ لي أنَّ ابنة عمّي كسيحة، وأنَّها تجلس على كرسيّ ذي عجلات، وأنّ نظراتها التي لا أراها، والتي حجبتها بعويناتها الطبِّيَّة كي لا أراها، تهتف بي: «انْهِضْني، انهضني، قل لي: امشي فأمشي، وإلاَّ فأنا هالكة، أنا كسيحة وهالكة».

نظرت إليها فهل رأتني؟ ما أدري إذا كانت رأتني. الأرجح أنَّها أحسّت بي، وإحساسها خدّرها، أسلمها إلى انسلاب، فارتفع رأسها رويدًا رويدًا، ببطء وونى كالإيماءة. كانت إيماءة، وفهمت الإيماءة: «لا ترجمني! لا ترجمني!» ودعاء، كان دعاء: «انهضني! انْهِضْني!» واستقام الرأس. والوجه في الوجه، ويد على العوينات الطبِّيَّة، وأنامل تعبث بالعوينات الطبِّيَّة.

مددت يدي. لم تجرؤ على مدّ يدها فورًا. ما كانت واثقة أن تمدّ يدها، ثمّ لا شيء... أن تغمض المرأة عينيها، والشفتان توقّع، ما أقسى التوقّع، لن تغفر له، ولا لنفسها، أن أغمضت عينيها وتوقّعت شفتاها، ثم لا شيء. في هذه الحال، تأتي الخيبة نفيًا للذات. إذلالاً يُغفر ولا يغفر، يترك ندبة، كالجرح. والجرح، لو يُحسب، ما كان جرحًا. المبضع لا يُحدث جرحًا. الخيبة تصنع جرحًا، والخيبة ما

كانت خيبة لولا الأمل.. فأن نأمل، أن نحيي أملاً، ولا يتحقّق، لا نحقّقه.. ما أصعب ذلك!

مددت يدي، وهي، لم تجرؤ. خاطر مبهم، يرفّ، يعذّب، وأمل ولا أمل، والعالم، بقدر ما هو مطلوب مرفوض، حين ينقلب إلى لعبة خبث، واللاّعب صديق، واللاّعب حبيب، قد كان، في الظنّ، فوق اللّعب وفوق الخبث. تيقّنت؟ ليس تمامًا، ولكن يدها امتدّت. أفلتت من رقابتها فامتدّت. صارت في يدي.. واتّصل نبض. يا إلٰهي كم كانت يدها صغيرة، جميلة، حارّة، مرتبكة. لقد أمسكتها على مدى العشرين من عمري، مرّات تقارب نصف هذا العمر. مذ كانت طفلة إلى أن صارت شابّة، ولم ألحظ، يدها، حارّة، مرتعشة، مستسلمة إلى هذا الحدّ.

هذه اللّحظة، في العمر، تساوي العمر. ليس لأنّها، بالنسبة إليها، لحظة تحقّق، لحظة انخطاف إلى عالم من الزهو والخمر وزرقة السحب، التي طالما بحثت فيها عن نفسها، وأشيائها، وسعادتها، في لمسة كفّ أو إطباقة شفاه، بل لأنَّها لحظة اللقاء الأوّل، غير المأمول، وغير الموقوت، العفوي، الذي لا يُصدّق، ولا يُماثل متعة ونشوة فيما يليه من لقاءات، ومن اتصالات بين يد ويد، أو جسد وجسد.

يا للعجينة المطواعة، المحمومة، المستسلمة، الحالمة أن تُعجَن، أن تُشَكّل، أن يعزف عليها، كوتر القيثارة، اللّحن

الذي يريده صاحب القيثارة. أنا أفهم، الآن، لماذا تستسلم الفتاة، وهي، في ذاتها، تعرف الندم الذي سيعقب هذا الاستسلام، تعرفه ولا تقوى على دفعه، لأنَّها، كشارب المخدّر، ترى المدية، ولا طاقة لها على دفع المدية؛ فالخلاص أو الهلاك، في غيبوبة المخدّر، لا يتوقّف على المخدّر، بل على صاحب المدية، والخير والشرّ، في العجينة، لا يتوقّف عليها، بل على الأصابع التي صارت إليها.

رفعت النظّارتين فلم تمانع. وألقيت بهما بعيدًا فلم تمانع. وجذبتها نحوي فلم تمانع. الإرادة، في تشبّث بقايا الوعي، تعطي انعكاسات واهنة، متقطّعة. والعقل ينبّه، في خفوت لا يُسمع، وكل شيء أغفى، ولم يبق إلاَّ العاطفة في يقظتها الساغبة، تنثّ من مسام الجسم حرارة وشوقًا.

ماذا أفعل بهذه الدمية؟ أنا الذي، في مجرى العطف، تركت نفسي تسبح مع التيّار، وجذبتها، هي التي لا تعرف السباحة، إلى تيّاري. أردّها إلى مقعدها؟ أعيد النظّارات الطبِّيَّة إلى عينيها؟ أدعها معلّقة بالخيط الذي من الرجاء واليأس ضفرته؟ أستلقي كما كنت، في سريري، وأقرأ في كتابي؟ «يا هارون الرشيد، الجارية قرب سريرك تنتظر!».

يدها في يدي، وهي على مقربة منّي. بلا نظّارات، بلا تصنّع، بلا دفاع، وقد فقدت تمامًا القدرة على التصرّف،

وخفضت رأسها، والدم يتسارع في الوريد الجانبي لرقبتها، وحمرة خفيفة توشّح وجنتيها، وضراعة، وخوف، ورغبة تستدعي الرثاء والإشفاق معًا. لماذا، يا ربّنا، خلقت الإنسان، ومعه كل هذه الأحاسيس، ثمّ عذّبته بها، إذ جعلت الحرمان قاعدة لها؟

«ويا بني ـ قال لي الخيّاط ـ أنا لا أريدك راهبًا. لم تكن الرهبنة، يومًا لتقنعني، ولم أتصوّر أنّي قادر على تقبّلها»؛ قلت: «ولكنّك لا تستطيع أن تنكر أنَّها تجرّد عن الدنيوات، وسموّ بالنفس وتكريس للطهارة والخير» قال: «قد تكون كذلك، أعني يراها أصحابها كذلك، ولكنّي أنا، العازف العجوز، لا أرى ما يرون.. ولو أنّي الآن راهب، أو في جيل من الأجيال صرت راهبًا، لفهمت وعملت، كما يفهمون ويعملون في بلاد الحكمة» قلت: «وماذا يفعلون في بلاد الحكمة وأين تقع؟» قال: «لا أعلم أين تقع على الضبط. يقولون إنَّها بعيدة، في بلاد بعيدة، بين السند والهند، وربما أبعد.. هناك، في تلك البلاد، تنذر المرأة أو الرجل، نفسها أو نفسه، لفعل الخير. بشكل آخر.. يمنح كل منهما السعادة للآخرين، وتلك هي التضحية، تلك هي الرهبنة.. تصوّر رجلاً مشوّهًا، معتوهًا أو كسيحًا أو مصابًا بمرض ما، فهل تظنّ أنّ عتهه أو كسحه أو مرضه يقتل أحاسيسه؟ أن تسأل رغيفًا، حتى في الضيق، تجد من يعطيه

لك. قد لا يعطيك رغيفًا، ولكنّه يعطيك كسرة، وقد تجد هذه الكسرة في القمامة فتأكل، ولكن أن نحسّ بحاجة إلى قبلة، إلى ضمّة ذراع، إلى دفء جسم، وتسأل الناس أن يعطوك ذلك، فلن تجد من يفعل. إنّهم لا يفعلون، وأنت لا تستطيع أن تتجاهل حاجتك إليه. أنت إنسان، والإنسان كتلة أحاسيس، والأحاسيس لا تتشوّه بتشوّه الجسم، ولا تموت بموت عضو فيه، إنّ لها حياتها، هي الأخرى، وكالبطن تجوع، والجوع يترك ألمًا، وأن يكون، في هذا الوجود، إنسان يطفئ ألم الإنسان، ألم الغريزة لا ألم المعدة، فهذا هو الإنسان.. هذا هو الخير والتضحية. والرهبنة في بلاد الحكمة، هي إطفاء للألم، ألم المعدة والغريزة. الرهبنة، هناك، صنع مسرّة للذين حرموها.. للمشوّهين الذين لا يقبلهم أحد، ولا يضمّهم أحد، ولا يدفّئ لياليهم أحد».

ابنة عمّي مشوّهة؟ ليس تمامًا. النظّارات الطبِّيَّة ليست تشوّهًا، وحتى لو كانت كذلك فأنا لست راهبًا، ولست من بلاد الحكمة. أنا من بلادٍ الحكمةُ فيها موعظة. أعظ ابنة عمّي؟ أستنبت لحية وألبس مسوحًا وأصلّي على رأسها؟ سخف، ما أكثر السخف! ماذا تريدين، يا ابنة عمِّي العزيزة، رغيفًا أم قبلة؟ ابنة عمّي لا تجيب. أنا لا أسأل وهي لا تجيب، وأنا لست راهبًا ولكنّني إنسان.. وهي إنسانة، طيرة لم يُطلق عليها صيّاد، وأنا الصيّاد، أنا الراهب والتضحية والحكمة التي لا تتعامل بالموعظة.

قفزت من سريري وصرت إلى جانبها. لا هارون ولا جارية. شابّ وشابّة. كائن وكائنة.. والحاجة، الآن، إلى القبلة لا إلى الرغيف، إلى الكلمة الطيّبة لا الموعظة المدوّية. وقلت لها وأصابعي تتخلّل شعرها:

ـ تحبّينني، إذن، كما كنت صغيرة؟

ـ ...

ـ وتحبّينني وأنت كبيرة؟

ـ ...

ـ وهل عذّبتك كثيرًا؟

ـ ...

ـ آسف لأنّني عذّبتك كثيرًا.

ـ ...

وهبطت كفّي على خدّها.. ولمست أناملي خدّها.. واحتوت الكفّ مؤخّرة الرأس، وأدنيتُه من صدري، وأرحته على صدري، وفعلت كما يفعلون في بلاد الحكمة... أعطيتها الحكمة.

ـ ١٤ ـ

انقطعت أخبار الطرف الآخر من المدينة عنّي، طوال المدّة التي لزمت فيها الفراش. لا الخيّاط ولا ضابط الإيقاع ولا المرأة. لم يسأل أحد عنّي، ولا جاءني منهم، من هناك، نبأ. عشت في وحشة، ونسجت من كآبتي أقمشة رماديّة. رغبت عن رؤية أهلي، وقرأت كثيرًا من القصص، فالتهب الشوق في نفسي من خلالها.

جاءت ابنة عمّي وأمّها. حملت ابنة العمّ باقة من الزهر الجميل جمعته من حديقتهم. وقدّمت لي أمّها علبة شوكولاتة، ولزمت الصمت عن حادث الجرح بتوصية من ابنتها أو أهلي. رغم ذلك أزعجتني رقبتها القصيرة ونظرتها القسّيسيّة الباردة. تظاهرتُ بالألم، واعتذرتُ فتمدّدتُ في فراشي حتى تعجّلت بالانصراف.

وبنصيحة الطبيب وإصرار منّي، منع أهلي الزائرين من الدخول إليّ. ويا للوقاحة التي مارسوا بها كرم عيادتهم. كانوا يصرّون على رؤيتي لتقديم الزهور أو الهدايا إليّ. وتقول الفتيات لأمّي: «حين يشفى، لن نعفيكم من سهرة

يرقص لنا فيها رقصة الخنجر. سمعنا أنَّه يرقصها كالفرسان تمامًا! الطبيب قصّ علينا حكايات حولها»، أو يقلن: «كيف سمحتم له بهذا؟ ثم إنَّه وحيد.. ألا تخافون عليه؟ ومن الذي علّمه الرقصة؟ الشراكسة والقوزاق يرقصونها، كما في الأفلام. يا إلّهي، هل رأيتم أنتم؟» وصفّقت فتاة وهي تتحدّث إلى أختي راغبة في رؤية تلك الرقصة: «آه يا عزيزتي[1] Quelle danse Orientale ce sera !».

وجاءت السيّدة عشيقة وكيلها. أصرّت على الدخول. وتقدّمت بزهوٍ وداعبت خدّي. رشّحتني، ربّما، وكيلاً مقبلاً في لياليها. قالت وهي تثبت نظرها فيّ: «تعلم ركوب الخيل أيضًا!».

والدي وعمّي وصهري وكثرة من الرجال ذوي الأملاك والمراكز رفضوا، بعناد، فكرة الرّقص كالغجر، على الطبل وبالخنجر. رفضوا أكثر ذهابي إلى الخيّاط، في الطرف الآخر من المدينة، واختلاطي بهذا الصنف من الناس. ولم يسمع غريب عن أسرتنا بحادث المرأة.. لو سمعوا لكانت فضيحة حقيقيّة في وسط نبيل... ونقلت إليّ أختي أقوالهم وضحكنا.

زارتني ابنة عمّي مرارًا. لم أجد رغبة في ممارسة

(١) أيّة رقصة شرقيّة ستكون هذه!

«الحكمة» معها. ومع كل ما أبدته من حنان لم تنجح في استعادة جوّ الإشفاق الذي جرفني يومًا. استقطبت المرأة، ذات العينين السوداوين، عواطفي وغرائزي. اشتهيتها بعنف أرّقني. صار قميصها اللّيلكي غلالة مثيرة في لياليّ الطويلة. لو جاؤوني بها لشممتها ليلة كاملة. كان طيفها يتجسّد في الظلمة، وفي فراشي يحرق أعصابي، فإذا طلع النهار، بعد نوم عميق، تعتادني ابتسامة الصورة، وأُعجب كيف لا تلغي إحداهما الأخرى. مع تلك يتنزّى الجسم شهوة، ومع هذه يخفق القلب، ويتنوّر الآتي.

وهكذا تأكّدت أنّني عاشق، وبالقدر الشهواني نفسه، وبمثله عاطفي، وأنّ لي طاقة على البكاء أمام الصورة، والموت على صدر المرأة، والإشفاق على «الطيرة»، والإخلاص للخيّاط والرقص والدراسة، وأنّ فيضًا من الجموح يغمر روحي ويضطرب حبيسًا في جسمي.

شُفي جرحي فغادرت البيت. ذهبت إلى الزقاق لأرى المرأة. فوجدت الباب مغلقًا. كان الزقاق على عهده، فقيرًا، قذرًا ومهجورًا، وعلى فترات متباعدة، يعبره رجل أو امرأة أو طفل، ثم يعود الهدوء، وتنقطع الحركة. ما كانوا يتوقّفون، فلا حاجة بهم إلى الموسيقى أو الرقص في بيت الخيّاط، ولا إلى المرأة في القبو. لديهم همومهم، وفقرهم، وأمراضهم، ومشاكلهم. ثم هم لا يعرفون أنَّ ثمّة موسيقى

ورقصًا وقبوًا ونساء.. ولا يجدون الزقاق لوحة طريفة كما أجده.

كان الباب مغلقًا، وكنت أتقدّم في الزقاق وعيني على الباب المغلق. حدست أنَّ وراءه عيونًا ترصدني، وصدق حدسي: حصاة أُلقيت من فوق الجدار، فيما أنا أخلّف القبو ورائي، فالتفتّ، ورأيت عينيها السوداوين، من بين أوراق شجرة التّين. وفي عودتي بعد أن درت دورتي الثالثة أو الرابعة، وجدت الباب مشقوقًا فدخلت.

النافذة، في بيت الخيّاط، خالية. زوجه، في وقت القيلولة، كفّت عن المراقبة. كانت النافذة برج مراقبة، وكان الذين يأتون إلى القبو، أمثالي، يحسبون حساب هذا البرج، لأنَّهم، برغم كل شيء، يحسبون حساب سمعتهم.

المرأة، ذات العينين السوداوين، وقفت في صدر غرفتها القبويّة المستطيلة تجاه الباب. وحدّقت فيّ بنظرة متحدّية، ساخرة، أو هكذا خيّل إليّ. وقفت لامبالية، كأنَّها ليست التي ألقت الحصاة، وليست التي شقّت الباب، وليست التي حملت الخنجر إليّ، أو انتزعته منّي، حين أغمدت نصله في ركبتي وأنا أرقص. كانت واثقة، مطمئنّة، كأنّ مجيئي مقرّر، وكأنّها كانت تنتظره أمس وما قبله، واليوم وغدًا وما بعده، وتعرف أنّه حاصل، حصول الربيع بعد الشتاء والخريف بعد الصيف.

سرت لصق الجدار، تحت نافذة الخيّاط، على طول الباحة، وكأنّي أسير على خيط مكهرب. الرجال، في هذا الوقت، لا يأتون إلى القبو إلاَّ نادرًا، والنساء قليلات. واحدة على الأغلب، أو اثنتان، تنتظران رجلاً أو صاحبًا، فعل تلك الفتاة، التي رأيتها في المرّة الأولى تبكي.

ما أقسى الهوان، في ممارسة الهوان، قبل أن يصبح عادة، جثّة يتردّد فيها نَفَس، والجسم بارد. رجل وجثّة، والجثّة حيّة، ولكنّ الحياة فيها لا تعطي حرارة، تدع الآخر يعمل، وشيء كالقرف يتبدّى في العينين، ويتنزّى من المسام، وتوقّع للنهاية، لا للسعادة، بل للخلاص الذي تحمله، وتقبّل الموقف المذلّ واليد ممدودة لتناول الأجر، والقرف صار متبادلاً، فالآخر الذي نهض عن الجثّة، يعاملها الآن كجثّة، ويدفع لها ويفرّ.

كنت أعرف أنَّ تلك الفتاة، التي أُرغمت على فعل ذلك الشيء على الحصير، قد بكت لأنَّها أُرغمت، لا لأنَّ الحصيرة خشنة، وأنَّ جسمها المسكين، في المجاهدة للوصول إلى النهاية، قد تألّم لأنَّه كان سلبيًّا، لا لأنّ فوقه ثقلاً مؤلمًا. ولقد أحسست وأنا أمرّ، في طريقي إلى غرفة المرأة، أنَّ الحمار الأسود المربوط في الزاوية المظلمة والذي اصطدمت به قبلاً، أسعد من الفتاة، برغم أنَّهما في وضع متقارب. وقلت في نفسي، وأنا أتقدّم باتجاه الباب:

«لماذا إذن، يا ربّ، فُرض على بعض الناس كل هذا الشقاء؟».

ولجت الباب المفتوح وألقيت السلام. كنت مستعدًّا، الآن، للتقزّز، للنفور والابتعاد، لو بدرت من المرأة حركة ما تنمّ عن المهنة التي تمارسها. نظرت، قلقًا، إلى الزاوية المعتمة، حيث كانت الفتاة، فألفيت مكانها فارغًا، ثم أدركت أنَّ المرأة لاحظت نظرتي، وفهمت حقيقة مشاعري.

لم تردّ تحيّتي. وكلمة لم تقل حول الذي جرى في بيتنا. وحتى زهوها بالانتصار أخفته، أو لم تستشعره. كانت فوق التواضع وفوق التعالي. في حال من يحدس أنّ حادثًا سيقع، حادثًا يخافه ويرغبه في المبهم من صورته الحدسيّة التي هي في طور التكوّن، حادثًا هو مجلبة للفرح والترح، ولحالة يطيب معها الجنون والموت، والتضحية التي لا تقلّ عنهما رجّة عنيفة.

تقدّمتُ نحوها مفتونًا، مسيّرًا بإحساس يبعث على الخدر والمغامرة، وفي المواجهة الدراميّة لمخلوقين، قدّر لكلٍّ منهما أن يلقى الآخر لقاء عاديًا وغريبًا معًا، ظلّ كلّ منّا يحملق في الآخر مشفقًا على نفسه وعلى صاحبه في آن. هل كان عليَّ أن أتراجع؟ وهل كان عليها أن تنسحب؟ قد كان في وسع كلّ منّا أن يمثّل طبيعة الدور الذي يوفّره له جوّ القبو: رجل يطلب متعة، وامرأة توفّرها، تبيعها أو تمتهنها،

وتسخر، في أعماقها، من مهزلتها، أو تتقبّلها بلامبالاة، كنذالة، تأتي في نذالة الأيّام.

قطّبت حاجبيها بغتة وصاحت بي:

ـ لماذا جئت؟

ـ . . .

ـ أقول لك لماذا جئت؟

ـ . . .

اهتاجت. رأيت بريقًا غضوبًا في عينيها السوداوين، وانشمرت الشفّة العليا عن سنّيْن بيضاوين، وشحب الأنف، وغاض اللّون في وجنتيها، وأمسكتني، بكلتا يديها، من كتفي وهزّتني وصرخت:

ـ لماذا جئت؟

قلت صادقًا:

ـ ما كان في وسعي أن لا أجيء.

ـ أنت تكذب، تكذب مثل كل الرجال. كان في وسعك ألاّ تأتي، وكنت سأحبّك، سأذهب إليك بنفسي، متحدّية كل الذين هناك، في بيتكم، ولكنّك جئت، كما توقّعت جئت. أنت ككلّ الرّجال، ووضيع مثلهم أيضًا، تستعبدك شهوتك ولأجلها تنسى كل شيء: الوقار، والسمعة، وشرف

العائلة.. هيّا، اخلع بنطلونك.. اخلعه.. لماذا تقف مشدوهًا؟ اخلع بنطلونك، وستذهب إلى الغرفة الأخرى، وتفعل ذلك الشيء مع الفتاة على الحصير.

من فوق كتفها، ترامت نظرتي، بغير إرادة على السّرير. كان سريرًا حديديًّا، بقوائم عالية، ترتفع من الأرض إلى الفراش، وتتعالى فوقه، حيث تشكّل ما يشبه الخيمة «ناموسيّة» بيضاء، وعلى السّرير شرشف عسلي، ووسادة، وفي منتصفها «كوسانة»[1] مربّعة الزوايا، وسطها شريط حريري أحمر.

قالت المرأة:

ـ السّرير ليس لك.. كان لك لو لم تأت.. كان لك لو لم تكن مثل الآخرين، الذين يأتون في اللّيل لفعل ذلك الشيء، وفي النهار، إذا رأوني، أداروا وجوههم...

ـ أنا لا أريد السّرير...

ـ في هذه الحال يمكن أن تبدأ.. اذهب إلى الغرفة المجاورة، إلى الفتاة التي تنتظر فيها.. هيّا..

قالتها وفتلتني من كتفي، ثم دفعتني من ظهري بقوّة. ما كنت راغبًا في ذلك الشيء. ما كنت أفهم، لماذا فجأة،

---

(١) Coussin.

تلبّستها روح الشرّ. . أختي، يوم جاءت هذه المرأة إلى بيتنا، فرّت إلى غرفتها، تاركة خطيبها مسربلاً في خزيه. قلت لها: «أكَرِهْتِهِ لأنَّه ذهب إلى بيت المرأة؟» فقالت: «لا، أنا ما كنت أظنّ. . لا، لا تحدّثني في هذا الموضوع. . كرهته لأنَّه. . يا إلٰهي، كان عليه. . لماذا خاف منها؟» كان على «رئيس القلم» ألاَّ يخاف إذن وكان عليّ ألاَّ أخاف. . لقد أُهينت في بيتنا، أمامي، ولم أجرؤ أن أقول كلمة. . خارج القبو أنكرتها، وها أنا داخله أقدّم نفسي، ودورها الآن، أن تنكرني، أن تعتبرني واحدًا من الرّجال الذين يأتون ويمضون. . يأتون إليها، كما إلى بائعي الفول، فيتناولون وجبتهم، ويمضون. . .

توقّفت في الغرفة وقد راودني للحظة إحساسي بالخيبة. أهذا هو الاستقبال الذي أعدّته المرأة التي عيناها بلون اللّيل، ونظراتها ثقبت ظهري، والتي انتزعت الخنجر من يدي، وحملته إلى بيتي، ورصدت، طوال الأيّام، وقع خطواتي في الزقاق كما رصدت جسدها في الحلم؟ حين دخلت لم تكن كذلك. كان ثمّة ودّ. عيناها رحّبتا، ذراعاها تمطّتا، وانشمرت الشفة العليا. خيّل إليَّ أنَّها ستأخذني في أحضانها، وأعددت الكلمات التي ستُقال، فيما يدي تمتدّ إليها بالهديّة التي أحملها من أختي. تصوّرتها ستتأثّر إلى درجة البكاء. وستقول إنّني امرأة شقيّة لا أستحقّ تكرمة

كهذه. ثمّ، للحظة، خشيت أن تتبدّى مستهترة، كمن جاءها زبون، تتسرّع في عرض أشيائها عليه، بحكم العادة، أو المهنة. لقد حملقت فيّ غير مصدّقة أنّي جئت. كنت قادرًا، في اللّحظات الأولى، أن أميّز فيها سكونًا غريبًا، ووداعة، وميلاً إلى مداعبة شعري. ولكنّها، فجأة، انقلبت، وأخرجتني من دائرتها، وبالقوّة تريد وضعي في الإطار المحتقر لكلّ الذين يأتون إليها، وينامون هناك، على الحصير.

قرّرت أن أشرح لها ما في نفسي. أن أعترف بجبني وذنبي. أن أقول لها كلمات وأخرج، ثم لا أعود أبدًا.

ـ يا سيّدتي (قلت لها) لم آت..

فصاحت مقاطعة:

ـ ولكنّك أتيت وانتهى الأمر.. هيّا.. إنَّها تنتظرك..

ـ ولكنّني لا أريد.. ولن أذهب إلى هناك.. اصغي إليّ.

ـ لا وقت لديّ.. تذهب أو تخرج؟

يا للشراسة! بدت بغيضة أكثر من كلّ النساء، وتريد بأيّ ثمن إهانتي. «تذهب أو تخرج؟» أذهب أم أخرج؟ إذا ذهبت فلن أكون أنا، ولن تكون هي. محال أن نبقى كما كنّا: إنسانًا وإنسانة، كما التقينا لأوّل مرّة، كما رأيتها وأنا أرقص، وكما نظرت إليّ، بعينيها السوداوين، من بين أوراق

التينة، فوق الجدار الخارجي. أصير كالآخرين، قويًّا مثلهم، وشبقًا.. وينام، في الغرفة الأخرى، على الحصير، ويضمّ جثّة، ويحسّ بأنَّها جثّة حين ينتهي، ويبتعد هاربًا.. ومرّة، بعد ذلك، لن تنظر في عينيَّ وتداعب شعري، ولن تكون بين ذراعيَّ، في الفراش ذي الشرشف الأبيض، تحت الغطاء الذي يحتوي كل المفاتن ويلثمها. سنصير رجلاً وامرأة، ككلّ الرجال الذين يأتون إلى هنا، ككلّ النساء اللّواتي يتحوّلن إلى جثّة.

ـ لا.. لن أذهب، قلت لها..

ـ أذهب أنا (صاحت) وهذا استثناء.. تأتي هي.. لأجلك تأتي، ولمرّة واحدة، يحدث ذلك عندي.

خرجت من الغرفة وغابت في إحدى فوهات القبو. بقيت واقفًا، مرتبكًا، أمضغ خيبتي، وأعتزم أن أنأى عن القبو والخيّاط والمدينة كلّها. فهمت، الآن، أنَّ الذين هنا، في هذا الجزء من المدينة، لا يثقون بالذين هناك، في الجزء الآخر. كان الكره متبادلاً، وغور يفصل بين الطرفين، غور حفرته أعوام من المظالم والقهر والحقد. كانت القصور، على الطرف الآخر، قلاعًا، وفي هذه الأزقّة، في هذه الأحياء، مزابلها. منها تأخذ الخدم، وفيها تلقي النفايات.. كانت أحياء خارج السور، والذين يعيشون فيها، يقدّمون لأصحاب القلاع كل الخدمات: يرقصون، يغنّون، يحملون

الماء والحطب، ينامون على الحصير، يبيعون الخضر والفاكهة، يهرّجون، يتملّقون، يفعلون، لقاء ما يُلقى إليهم من النوافذ، كل ما يُطلب منهم، يخوضون في أقذار المجاري، وفي المستنقعات المتشكّلة من مياه الأمطار، ويتمرّغون في الأوحال والأتربة، يفعلون كل هذا، ولكنّهم يذكرون أنّهم خارج السور، وأنَّ الذين داخله سادتهم وأعداؤهم.

أنا من داخل السور والمرأة من خارجه. دخلت السور فرُفضت، وخرجت منه فرُفضت. لم يغلق في وجهي باب، الذين يملكون الأموال يملكون الأبواب. يستطيع والدي أن يشتري الزقاق ببيوته وأشيائه، ولن يكلّفه شراء هذا القبو، والسرير ذي الشرشف الأبيض، إلاَّ اليسير، والمرأة تعرف ذلك، ولكنّها تعرف أيضًا، وربما تحسّ، أنَّ المصادرة لا تقع عليها، وأنَّ أحدًا لا يستطيع، حين لا تريد، أن يلقي المصادرة عليها، ومن أجل هذا تتصرّف بوحي من الخيّاط، وتدقّ الأرض، ابنة الكلبة، على طريقتها.

دخلت الغرفة القبويّة المستطيلة فتاة ووقفت على مبعدة، قرب السرير. دخلت كطيف، ولم تتكلّم. لم تدفعها إلى حيث أنا يد، لكنّها جاءت مدفوعة بيد. كانت، في الانعكاس الذي تولّد في ذاتي لحركاتها، كأرنب دُفع إلى قفصٍ فيه نمر، ولم تكن، كمصارع من الزمن القديم، تحمل

مصيرها على كفّها، قاتلة أو مقتولة. حتى القتل كان تصوّرًا منفيًّا. كانت قطّة، كل ما سيفعله النمر فيها أن يثب عليها، يعركها، يطرحها أرضًا. وحين تتحوّل من قطّة إلى جثّة، وتنتهي اللّعبة التي لم تشارك فيها، يخرج النمر وتخرج القطّة، يذهب النمر وتبقى القطّة، ومن جديد تُدفع إلى قفص آخر لتموت ميتة أخرى، بين مخالب نمر آخر.

رانت غمامة حين وقف جسم على العتبة. المرأة ألقت حصيرًا في الغرفة وأغلقت الباب. انقطع النور إلاًّ من كوّة وحيدة في أعلى الجدار، وبقينا وحيدين: الفتاة التي رأيتها سابقًا في الزاوية وأنا، والباب مغلق، والحصيرة ملقاة، وسكينة لا معنى لها، رطبة، ونور لزج، وشعور غير محدّد، يغتلم أو ينطفئ.

انحنت الفتاة على الحصيرة فتناولتها بحركة آليّة. مدّتها وسط الغرفة، قرب الخوان، ونظرت إليّ متسائلة، ثمّ باشرت عملها فاترة، وفي ظنّها أنّي، في الوقت ذاته، أقوم بمثل ما تقوم به، ومثلها أخلع ثيابي، لآتي إليها.

لم يكن، في عمري، مشهد مماثل. أنا لم أر امرأة تخلع ثيابها، قطعة قطعة، وترمي بها كأنّها في الحمّام، بلامبالاة، ولا رهبة، ودون أن تستر شيئًا، ودون أن تتحرّج من وجود آخر، تتعرّى أمامه، حتى قبل أن تعرفه، وقبل أن تلامس يدها يده. كانت صامتة، ملولة، وحزن أو قرف، أو عدم

رغبة، ينضح منها، وتهيّأ لي أنَّها تكرهني، وأنَّ المرأة أرغمتها على المجيء إليّ، وأنَّها لن تغفر لها ذلك، ولن تغفر لي تجاهلي نظراتها المستعطفة، وكوني شاهدًا على ذلّها في الخضوع للمرأة، وممارسة ذلك الشيء على الحصير، أو ممارستي هذا الشيء معها على الحصير.

فرغَتْ من التعرّي، واستلقتْ على الحصير، وجهها إلى أعلى، وراحت تنظر، دون أن تتطلّع إليّ، كأنَّما ذلك لا يعنيها أو أنَّها تسهّل الأمر، وتدعني أتصرّف كما يحلو لي باعتباري دافع الأجر. أنا، في نظرها، غير ملزم أن أفعل فعلها، ولست مطالبًا بعطاء مادمت قد جئت لآخذ، ومادام ثمن الطبق في جيبي، ولي الحقّ أن أدفعه ولا أمسّه، أو آكل لقمة منه، أو أزيحه جانبًا، في حركة سخيفة مهينة ولكن معتادة، محتملة، مادام كل شيء قد فرض احتمالها، والنفس توطّنت على هذا الاحتمال.

ويبدو أنَّني خالفت المألوف. موقفي كان غريبًا عليها. لم أتكلّم، لم أتحرّك، ولم أفصح عمّا أريد، فقالت بنفاد صبر:

ـ ما بك؟ ألا تريد؟

ـ ماذا أريد؟

أطلقت ضحكة مغتصبة، هازئة، واستوت قاعدة على الحصير، وقالت:

ـ لا أدري! لماذا جئت إذن؟ تخاف؟ تخجل؟ لا تعرف؟

لذت بالصمت.

ـ ألم تجرّب سابقًا؟

ـ . . .

ـ ألم تعلّمك؟

فهمت أنَّها تقصد المرأة فقلت:

ـ أرجوك، لا تذكريها بسوء.

نبرت ساخرة:

ـ ولماذا؟ أنت لن تتزوّجها.. ولن تتزوّجني.. الذين يأتون إلى هنا لا يتزوّجون، لا يحبّون.. وحتى أنت، الذي تتظاهر بالبراءة والطيبة، وحتى أهلك.. كلّكم... وهي..

ـ ولكن من هي؟ ومن أنت؟ أنا لست من الذين.. جئت لسبب آخر..

وقفت عارية، واقتربت منّي مغضبة:

ـ لسبب آخر؟ وما شأني أنا؟ لم أعجبك؟ ستقول لها إنّني لم أعجبك؟ أنا لست قبيحة. لم أفعل هذا من وقت طويل، ولست مريضة، أقسم لك، وهي تعرف هذا.. ألست الذي رقص فوق، بالخنجر؟ شُفيت ركبتك؟ وكان ذلك مؤلمًا؟

جاء الخيّاط إلى هنا، وجاء ضابط الإيقاع، جلسا على هذا الخوان. . كنت أنا وراء الباب. تسمح لي، أحيانًا، أن أجلس حيث رأيتني، في الزاوية. . أنا لا بيت لي، كالأخريات. . أبقى هنا، وحين أجمع بعض المال سأسافر. أقول: أين أسافر؟ وهي تضحك، تقول إنّني جبانة، هناك مدن كبيرة، والناس، فيها، لا يعرف بعضهم بعضًا، وبإمكاني أن أعيش دون أن أبدّل اسمي. سأحصل على خبزي، أعمل خادمة، أستأجر غرفة، وربما وجدت من يرضى بأن يتزوّجني، كل شيء ممكن في المدن الكبيرة. . هل رأيت المدن الكبيرة؟

ـ رأيتها ولا أحبّها. . ارتدي ثيابك. . أنت ترتجفين من البرد.

حاولَتْ تطويقي بذراعيها. كانا نحيلين. جسمها كان نحيلاً. وعظام الكتفين والصدر بارزة. شعرها أشقر. فمها كبير والوجه صبيح وضامر. كانت طفلة، ولها شفة مكوّرة. كانت مريضة، ولونها الأبيض ممتقع، كمن في عظامه برد. رفضت الاستجابة لعناقها. سحبتها إلى الخوان لأضع عليها ثيابها، فاستوقفتني، بعد خطوة، وسألتني مذعورة:

ـ إذن لم أعجبك؟ حزرت هذا. . ها قد فشلت اليوم، للمرّة الثانية، يا ربّ. .

وراحت تبكي. .

بدت حزينة، تعيسة بأكثر مما قُدّر لي أن أتصوّر. وقام في خاطري أنّهم، في البيوت، لا يرضون عن هزالها. يخشون أن تكون مريضة، وفي المدينة لم تجد عملاً، وهذه هي المهنة الوحيدة الباقية لها، وقد جرَّبَتْها، وتحيا على فكرة مرعبة: ألاَّ تكون صالحة لها، وأن تُطْرد لأنَّ الرجال لا يعجبهم جسمها. وجدتني أضع ذراعي على كتفها، وأدنيها من صدري. أمسكت بخصلة من شعرها الأشقر، فتطامنت، ورفعت إليّ عينين متوسّلتين:

ـ لنذهب إلى هناك. . إلى الحصير. .

ـ لا. . تعالي نجلس على الخوان. .

ـ ألم أعجبك إذن؟

ـ بلى. .

ـ هيّا إلى الحصير!

ـ لا. .

ـ أنا لست مريضة، أنا نحيلة ولست مريضة، وهي تعرف. . هي قالت لي. . ولو كنت مريضة. .

ـ أنتِ لست مريضة، ولو كنتِ مريضة فهذا لا يهمّ. . أنا لن أقول لها شيئًا. . ارتدي ملابسك. . وفي المرّة القادمة أنام معك.

ـ أنت لن تأتي في المرّة القادمة.

ـ صدّقيني سآتي...

ـ وتقبل أن تنام معي؟

ـ أنام..

ـ على الحصير؟..

ـ لماذا على الحصير؟ على السرير..

ـ هذا سريرها..

ـ سأشتري لك سريرًا.

ـ مثل هذا؟

ـ بل أجمل.

ـ لا أصدّق!

حاولت إقناعها وهي ترتدي ثيابها، أنشأتُ أحدّثها عن السرير: «سيكون جديدًا، وله أعمدة صفر، وعليه فراش من صوف، وشرشف أبيض، وغطاء بلون الزهر، ووسادة كهذه.. وسأستأجر لك غرفة أضعه فيها، وخزانة للثياب..

ـ ليس لديّ ثياب..

ـ ستكون.

ـ وحذاء..؟

ـ وحذاء أيضًا.

ـ وطعام؟

ـ طعام كثير...

ـ أطبخه بنفسي؟

ـ تطبخينه بنفسك.

ـ وتأكل منه؟

ـ ولم لا؟

ـ ألم يكن جدّك قنصلاتو؟

ـ نعم كان.. من أخبرك بهذا؟

ـ هي..

ـ وماذا قالت أيضًا؟

ـ قالت، إنَّ بيتكم كبير.. يضيع فيه الإنسان..

ـ نعم، يضيع.

ـ وإنَّ عندكم أشياء كثيرة، غالية.

ـ عندنا..

ـ وأراضي وفلاّحين...

ـ نعم.

ـ وأنّكم تقتلون الفلاّحين.

ـ لا تصدّقي هذا...

ـ بلى! لماذا لا أصدّق..؟ والدي كان فلاّحًا وقُتل.

ـ أنا لا أقتل...

ـ أنت ترقص عند الخيّاط.

ـ وأنتِ؟

ـ رقصتُ في صغري.. على الطبل، مع الأولاد.. في عرس بضيعتنا.

ـ حسنًا، سأجعلك ترقصين أيضًا.. وأنا سأرقص..

ـ بالخنجر؟

ـ ربما...

ـ لا أريد الخنجر.

ـ كما تريدين.. والآن هيّا.. أكملي لبس ثيابك لأفتح الباب.

أدرتُ وجهي كيلا أنظر إليها. كنت أتكلّم ولا أنظر إليها. كان جسمها النحيل إلى حدّ الهزال يثير فيّ انطباعًا كالذي يثيره الهيكل العظمي للإنسان في عيادة طبيب. قرّرت أن أفعل شيئًا لأجلها، شيئًا ينقذها من هذا القبو وعتمته،

ورطوبته، وحصيره، ويضع حدًّا لخوفها المرعب من ألاَّ تُعْجب الرجال الذين يتردّدون عليه.

وفيما كنت أهمّ بفتح الباب، وقد أنهت ارتداء ملابسها، اندفعت نحوي وطوّقتني بذراعيها سائلة:

ـ ماذا ستقول لها؟

ـ سأقول إنّني كنت مسرورًا معك.

ـ حقًّا ستقول إنّك كنت مسرورًا معي؟

ـ حقًّا.

ـ وإنّني أعجبتك؟

ـ نعم سأقول لها إنّكِ أعجبتني.

فرفعت وجهها نحوي وهمست:

ـ قبّلني إذن!

أجفلت لهذا الطلب. تردّدت ثم لثمت شعرها، جبينها، خدّها. اكتفيت بدغدغة شفتيها بأصابعي دون أن أقبّلهما. بدت سعيدة، وكنت أنا منتشيًا بأثر فعلتي في نفسي. لقد كفّرت عن خطيئة لم أرتكبها. أنا لم أقتل الفلاّح والدها. أهلي قتلوا، ولكنّي أنا لم أقتل. والدي قتل، وذلك الوكيل قتل، والذين على الطرف الآخر، في القلاع، قتلوا، وبينهم وبين الذين هنا غور فيه دم. أنا اجتزت غور الدم. رقصت

بالخنجر عند الخيّاط، ودققت الأرض النائمة، وجئت القبو حاملاً عقد أختي الذهبي إلى المرأة التي رفضتني. في بيتنا وضعتها خارج الدائرة، وفي بيتها تضعني خارج الدائرة. هي من النوع الذي لا يقبل المصالحة. عاملتني كرجل من الشارع، كما عاملناها، عندنا، كامرأة من الشارع.. حسنًا، لم يبق إلاَّ أن أنصرف. أفتح الباب وأنصرف، وأضع هذا العقد هنا، على الخوان..

كانت يدي في جيبي تداعب العقد الذهبي، وكانت الفتاة، وقد ارتخت ذراعاها من حولي، مطرقة تحدّق في الأرض. ارتبكت حيالها لا أدري ما أفعل: أدفع لها بعض المال، كأيّ رجل لأيّة امرأة، في مثل هذا القبو ومثل هذا الوضع؟ أدعها بلا شيء.. بلا هديّة، بلا وردة، بلا تذكار، فتشعر بالمهانة، وبكذب العاطفة، وخدعة الكلمات؟

أخذت يدها. كان جسمها باردًا ويدها دافئة. كان وجهها ممتقعًا. كان وجهًا مريضًا، والعرق يبلّل راحتها وأناملها. كانت جثّة هامدة. عادت، كرَّة أخرى، جثّة هامدة. جاءت اللحظة التي تنتفي فيها، في إحساس الرجل الذي أمامها، الإنسان لتقوم الجثّة، وعزّ عليّ، أنا الذي لا أمارس هذا الإحساس، أن أعاملها على هذا الأساس، أن أدفع لها نقودًا وأدير ظهري، فلا أعرفها بعد ذلك ولا تعرفني.

بسطت لها راحتها، ووضعت العقد فيها وأطبقتها.. ثم

أسرعت إلى الباب ففتحته، ووجدت المرأة، بعينيها السوداوين، ووجهها الصارم، وكيانها المتحدّي، واقفة أمامه، كأنَّها موشكة أن تطرقه، أن تقتحمه، أو تركله بقدمها.

ما اعترضتني.. ما سألتني ماذا فعلت.. ولمّا بلغت نهاية الباحة، صاحت بي:

ـ اغلق الباب وراءك!

أغلقته هذه المرّة، وحثثت الخطى هاربًا في الزقاق.

ـ ١٥ ـ

عدت إلى الخيّاط الذي فرح بي. عزف لي مقطوعات كثيرة. وأصغى إليّ، خلال وقت طويل، أروي ما وقع لي بعد حادث الخنجر. قال لي مسرورًا: «نعم، نعم، الطبيب على حقّ، هذه رقصة الفرسان. تذكّر أنّني أجعل منك فارسًا لا وكيل أملاك»، وقال أيضًا: «تريد الفتيات سهرة شرقيّة عندكم؟ ولماذا لا.. أعزف أنا وترقص أنت، وفي الختام يجمعون لنا بعض المال، كما يفعلون مع مهرّجي السلطان».
قلت: «الفتيات يرغبن في رؤية رقصتي بحرارة وصدق، وواحدة منهنّ لم تقل كلمة سيّئة»، فازدادت غبطته ولاحظ: «ستكون معشوقًا جدًّا بعد اليوم. المرأة، بعامّة، تتعشّق الرّجل الذي يتصرّف بجرأة، ويحبّ بجرأة.. ويخالف المألوف بجرأة.. ولكن حذار.. ستثير غيرة الرجال، ولن يكونوا مرتاحين لعلاقتك بي. ستكون لنا متاعب، وربما أرغموك على تركي.. وأنت ستخاف منهم».

«إثارة أم سؤال يبحث عن جواب؟»

ـ لن أخاف أبدًا.. ثمّ ما تفعل أنت؟ تعلّمني العزف والرّقص؟

ـ الرّقص؟ لا . . هم يعرفون . . ويكرهونني.

اعترفت:

ـ يكرهونك جدًّا . .

ـ وقد أهانوا المرأة التي تحت.

ـ هي قالت ذلك؟

ـ هي لا تقول. أنا سمعت . . ولولاك . . .

وابتسم في وجهي بعذوبة:

ـ لو كنت شابًّا لحسدتك . . فاتنة، إيه؟ وجريئة، لولاك لما تحمّلت الإهانة . . تحبّك . . أعرف ذلك . . وأنت؟

«أنا أحبّ الصورة وأشتهي المرأة، وواحدة لا تعوّض عن الأخرى».

ـ أنا لا أدري . .

ـ ألا تحبّها؟

ـ لو لم تكن . . لماذا تفعل ذلك؟

ـ اسأل والدك . . ثمّ الأخريات . . هي تفعله علنًا وهنّ سرًّا، أنا أراها امرأة شريفة، وشجاعة . . لماذا لا تزورها؟

ـ زرتها فلم تستقبلني . . لا تزال ناقمة!

ـ زرها إذا استطعت . . ولكن لا تدع زوجتي تراك . . كن لطيفًا معها بعد الذي لحقها في بيتكم.

أضمرت أن أفعل دون أن أصرّح به. وعرضت على الخيّاط بعض المال فرفض. «أريد أجري فقط.. وهذا كنت أتخلّى عنه لو لم أكن محتاجًا.. لا أريد ابتزازك.. أنت صديق».

شددت على يديه وخرجت.. حمت حول بابها فلم تفتحه لي.. كنت واثقًا أنَّها رأتني ولم تفتح لي. خفت أن تكون قد تخلّت عنّي، ومع ذلك خجلت أن أوسّط الخيّاط. فضّلت أن أعالج ما بيننا بنفسي، وشرعت، طوال أسبوع، أتردّد على الزقاق على أمل أن تفتح. وأخيرًا قرّرت أن أطرق الباب، وطرقته ففتحت، ولكنّها لم تبدّل موقفها. ظلّت مجافية، ترغب في إهانتي بغير حقّ.

وفي غرفتها، دون أن تدعوني إلى الجلوس، سألتني:

ـ إذن لم تنم على الحصير؟

قلت ملاطفًا:

ـ ولماذا تصرّين على ذلك، وفي البيت سرير وفراش؟

ـ لأنّني أريد أن تنام على الحصير.

ـ أنا لا أريد..

ـ ولماذا عدت إذن؟ فكّر: تقبل أم ترفض؟

في الجواب هززت كتفيَّ استخفافًا. حتى ولو كان الثمن

فقدان من نعزّهم، فهو أفضل في حالة الشعور بأنّ معزّتنا غير مفهومة. كنت مستعدًّا أن أقول كلمات جميلة، من القلب، أعتذر فيها عمّا لحقها في بيتنا، برغم أنّي لست مسؤولاً عنه. أفعل ذلك كواجب، لا كفرض، ولأنَّها تتصرّف معي بحمق، فلا واجب ولا فرض، إنّ شيئًا ما، غبيًّا، سخيفًا، يشوّه علاقات الناس أحيانًا. وفي تصرّفها هذا الشيء، وأنا لا ألومها، ولا أعاتبها، إنّما أدعها.. لقد كنت ممتلئًا بالأسف والحزن، وبودّي أن أخرج من القبو، ومن «قلعة» والدي، وأهيم على وجهي في طرقات مدينتي التي أفتقد لغة التفاهم معها.

ـ طبعًا أنت لم تعتد النوم على الحصير!

كان السقف عقدًا حجريًّا، والكلس الذي مرح به في عام من الأعوام قد اصفرّ، تبقّع بالرطوبة، وغدا بياضه رماديًّا كالضوء الذي يأتي من الباب والكوّة، كالأسى الذي في قلبي، كاللّون الممتقع في وجه الفتاة، ولم أعد قادرًا على الاحتمال. لتكن «التانغو» ملعونة، ومثلها رقصة الخنجر، وأنا.. لقد ألقيت نفسي في مياه الوادي العكرة، وها هو الاختناق. هناك يخنقونني، وهنا أيضًا. المرأة تشدّ على خناقي مثل والدي و«رئيس القلم». وقلت في نفسي أسوانًا: «أنا الذي رقصت لها، ودققت الأرض لأجلها!» ثم لذت بصمت أثارها فصرخت:

ـ لماذا لا تتكلّم؟ حتى السّادة يكلّمون الخدم!

ـ أنا لست سيّدًا! صرخت بدوري.

اقتربت منها. كنت أفهم ما تريد. لقد فرضت عليّ أن أصرخ في وجهها. كانت تبحث عمّن يصرخ في وجهها، لا لتسكت، بل لتصرخ بصوت أعلى. الموجة الغضوب، في اندفاعها المزبد على الشاطئ، تتشهّى صخرًا، عليه تتفتّت وتتناثر. ثم تسقط في اليمّ رذاذًا أزرق ورغاء أبيض. الموجة تفتّت الصخرة والصخرة تفتّتها. تنتشي عروق الموجة، عروق الأنثى، ويأتي الهدوء، بعد ذلك، كالنوم، بعد شبق مسعور حقّق ذاته. هي أيضًا تريد أن تحقّق ذاتها، أن تقول للدنيا عن طريقي، انّها كائنة، وانَّ لها، على الدنيا، حقّ الاعتراف بها ككائنة. كانت موجة عاصفة، وكنت صخرًا عليه أن يفتّت الموجة ويتفتّت بها، ليكون رذاذ أزرق ورغاء أبيض، وماء صاف، وأعماق رائعة، تنعكس فيها الغيوم والنجوم وزرقة السماء وأجنحة النوارس.

اقتربت منها، لامباليًا بضراوة البريق الوحشي المنبعث من عينيها. كان واضحًا أنَّ علينا، هي وأنا، أن نطلق النّار على بقعة ما، على شبح ما، على عدوّ نجهله ولكنّنا نحسّه، فالوادي غير المقدّس، العكر، الدامي، لا يُردم بهذه السهولة، ولا يجتاز لمجرد الانتقال، من إحدى ضفّتيه إلى الأخرى. كنّا من ضفّتين مختلفتين، متقابلتين ومتعاديتين، أنا

ممثّل الضفّة المعتدية التي عليها أن تتلقّى النّار، وهي ممثّلة الضفّة الأخرى، التي تجد من حقّها أن تُطلق النّار.

«ومرّة رأيت الفلاّحين في قريتنا تحت شجرة تين، ورأيت فلاّحة منهم تتلوّى من ألم في خاصرتها، وتضع على هذه الخاصرة دريئة، هي طاولة خشبيّة مستديرة بقوائم قصيرة. وكان فلاّح يركب قصبة ويعتصب بعصبة خضراء، ويعلّق في كتفه بندقيّة صيد، ويدور في الحلقة، من حول المرأة المريضة، التي جلست وسطها، ويحمحم كأنّه ينازل خصمًا.

«دار الرجل وعاين الدريئة، وهمز حصانه القصبي، وحمحم، ونسي أنَّه فلاّح على قصبة. تقمّص في صورة مقاتل. كان غضوبًا، منفعلاً كمقاتل، وأمامه في الدريئة، في خاصرة المرأة، كان العدوّ، كان الدّاء، وعليه أن يجهز على الداء، على العدوّ الذي هو الدّاء. وفي سرعة البرق، تناول بندقيّة وأطلق. . دوّى صوت، وانتشر دخان، وخافت أختي فتمسّكت بذيل سترتي، وتعالت الأصوات «قتلته» وصاح الفارس «ليس بعد. . إنّه بسبعة أرواح».

«تكرّر إطلاق النّار ثلاث مرّات، وفي كل مرّة كنت أسمع الهتاف نفسه، والجواب نفسه، وبعدها اندفع الكلّ يغنّون، ويرقصون، ورفعوا الدريئة، وأنهضوا المريضة، وترجّل الفلاّح عن القصبة صائحًا: مات التنّين! الخضر قتل التنّين. الخضر قتل التنّين».

اقتربت من المرأة حتى واجهتها. لست التنّين يا سيّدتي ولكنّني الدريئة. أطلقي نارك على الدريئة. تمرّني على الإطلاق، كالفلاّح راكب القصبة، كالخيّاط راقص الخنجر، كضابط الإيقاع الضارب على الدفّ، كالأقدام التي تدقّ الأرض، أطلقي النّار على شبح التنّين، وغدًا تطلقين على التنّين، وعند ذاك، لو بقيت حيًّا، تطلقين عليّ، أو نُطلق معًا، باتجاه «القلعة».

قالت المرأة:

ـ لست سيّدًا أنت، ولا خادم أنا..

ـ أنا لا أفكّر بهذا.. لماذا تفترضين ما لا وجود له؟

ـ لأنّك لم تنم على الحصير.. أهنتني لأنّك لم تنم على الحصير.

ـ لسوف أنام.. معكِ أنتِ أنام.. وإلاًّ فلن أفعل.

ـ لأنَّك سيّد؟ لأنَّ جدّك كان قنصلاتو؟

ـ أنا لا أفكّر بجدّي ولا بالقنصلاتو.. أفكّر بنفسي.. فيك أنتِ.. بالخيّاط، وضابط الإيقاع، ورقصة الخنجر. ولماذا عليّ، مقابل كل ذلك، أن أنام على الحصير؟

ـ لأنَّ الذين يأتون إلى هنا ينامون عليها.. هذا هو شرطي.

ـ وهذا السرير؟

ـ سريري..

«هذا السرير سريري.. وحدي عليه أنام، ومع الرّجل الذي أحبّه أنام، أمّا الذين يأتون من هناك فينامون على الحصير.. تلك إرادتي، تلك رغبتي، وفي سبيلها.. بعضهم يرفض، وأكثرهم يقبل.. وهذه الفتاة التي تبكي.. يا إلٰهي كم أتوجّع حين أراها تبكي، ولكنّني أقسمت.. لقد أهانوني.. واهتديت إلى فكرة الحصير لأهينهم.. ليس النساء بل الرّجال.. ولكنّ الرّجال ينامون مع النساء.. لا حيلة لي.. لست شرّيرة.. الخيّاط يعرف.. وأنت؟».
وأعادت سؤالها:

ـ لماذا جئت، طالما أنّك لا تريد، ولا تنام على الحصير؟

لهجتها توشّحت بالرقّة، ثم لم تلبث أن عاودتها القسوة، كان يصعب عليها أن تتراجع، كانت موجة لا تتراجع، وحدّقت فيها، بعينيها السوداوين، وقلت:

ـ لنخلص من هذا النغم.. أنت تعرفين أنَّ هذا غير لائق.

ـ غير لائق (صاحت مهتاجة) وتعيّرني؟ جئت لتعيّرني؟

رنّت صفعة على خدّي. صفعة قويّة، مفاجئة، أذهلتني،

وأضرمت نار الغضب في نفسي. كززت على أسناني. رفعت يدي، ولكنّها تجمّدت. في اللّحظة التي هممت بإنزالها تجمّدت. كان شحوب مذعور يكسو وجه المرأة، وبؤبؤا عينيها السوداوين قد اتسعا في نظرة رعب، كنظرة القاتلة التي أطلقت، في نوبة جنون، رصاص مسدّسها على رجل أمامها. خيّل إليّ أنَّ رأسها يقترب منِّي، وعينيها الواسعتين، كصحنين أبيضين في وسطهما دائرة سوداء مشعّة، قد صارتا ملاصقتين لعينيَّ، قد دخلتا عينيَّ، وامّحت المسافة بيننا فالتصقنا، ولم يبق، في مواجهتي، إلاَّ فمّ فاغر، وكفّ على الخدّ، في حركة تعبير عن الخوف والندم.

لم أضربها. ما فكّرت بالإساءة والغفران.. ولكنّي لم أضربها. هي التي ضربت نفسها. الموجة ارتطمت على الصخر، تطاير الرذاذ الأزرق والرغاء الأبيض، وبكت مثل أمّي. القوي ضعيف أيضًا، ونحن الأقوياء ضعفاء، حين لا نواجه خصمًا، حين نرتطم، كالأمواج العاصفة، على صخور الشاطئ، مدفوعين بحركة الرِّيح، فنتناثر رذاذًا، لا يصنع إلاَّ زبدًا.

لم تكن الفتاة في الغرفة، والحصير مكانها لا تزال. شعرت الآن برغبة في أن أستلقي على الحصير، أن أطمر وجهي في الحصير وأبكي، أن أفعل ذلك لأستعيد صفائي، وأنسى كل ما مرّ معي في هذه الأشهر، وما تكشّف لي من

اضطراب الحياة، وتنافرها وقسوتها وسخفها.

وقلت للمرأة التي آلمتني:

ـ هل أنت راضية، الآن؟ تريدين أن أنام على الحصير؟ تعالي.

لم تتحرّك..

ـ تعالي..

سحبتها فجاءت. جلسنا. صمتنا. اليد في اليد. ما أدفأ اليد. ما أكرم اليد. إنسان وإنسان. على الحصير، على السرير، ما همّنا الحصير، ما همّنا السرير. كنّا بعيدين عن الوحش. قتلنا الوحش، لا قلعة ولا قبو. أرض، ونستلقي على الأرض، نقول لها يا أمّنا، يا أمّنا، يا سبب سعادتنا وشقائنا، لماذا، في مدينتنا، ينشقّ غور، وفي الغور دم، وفيه دمع، وعلى طرفه قلاع، وعلى طرفه أكواخ، وجرب بين القلاع والأكواخ؟

وقلت لها:

ـ واحدة بواحدة. صفعتك الأم وصفعت الابن.. في بيتنا أُهِنْتِ، وفي بيتك أُهِنْتُ، تعادَلْنا.

اكتفت بأن وضعت أصابعها على فمي:

ـ لا تتكلّم هكذا.. لا تقل شيئًا.. دعني هادئة.

وأضافت وهي تأخذ كفّي في يديها، ورأسها مطرق:

ـ لأجلك تهون الإهانة.

ـ ولأجلك.. انظري.. علامة كفّك على خدّي.. لو واحدة أخرى، لو امرأة غيرك..

زوت حاجبيها: ـ هذا لا شيء.. أنا أحدّثك عن الإهانة.. قلت لك دعني هادئة.. يكفي.

ـ ولكنّك صفعتني..

ـ اصفعني أنت أيضًا.. اصفعني مئة مرّة.. هذا لا شيء.. أتفهم؟ ولكن أهلك.. اسمع.. دعني أنسى.. لسوف أغفر لأمّك.. وقد أغفر لأيّ إنسان، في هذا الزقاق، في هذه الحارة، أمّا في بيتكم.. لقد اعتدتم ضرب النّاس، أنتم، جدّك ووالدك وأمّك..

ـ أمّي لا.

ـ وأمّك أيضًا.. جميعكم، كلّكم تضربون النّاس، انتظروا.

ـ وأنتِ، ألا تضربين؟

ـ لسوف أفعل..

ـ تضربينني؟

ـ في ذلك اليوم.. لندع هذا الحديث..

ـ تضربينني؟

ـ قلت لك لندع هذا الحديث..

ـ تضربينني؟

صاحت بغضب:

ـ دعني هادئة.. لماذا تستثيرني؟ لا أستطيع أن أقول شيئًا.. قد لا يتهيّأ لي أن أضرب أحدًا، قد أموت، أنا، ولكنّ الآخرين..

ـ الخيّاط مثلاً؟

ـ لا تقل شيئًا عن الخيّاط..

ـ ولكنّني أحبّه.. مثلك أحبّه.

ـ ليس مثلي.

ـ بل أكثر..

ـ أقلّ.. أنت تسكن هناك.. أنت لا تعرف.. لنغلق هذا الحديث..

أغلقنا الحديث فساد الصمت من جديد.. خيّل إليّ أنَّ هذه المرأة تنطوي على حقد نهّاش يأكل معها في الصحن، وأنَّ إرغامها أمثال «رئيس القلم» على النوم على حصير في

غرفة شبه مظلمة لم يكن يحمل على الأسى، ولا على الاكتراث بخسارة زبون. . كان يحمل معنى الانتقام، في صورة بائسة لامرأة أشدّ بؤسًا، ويعطيها التعويض عمّا لحقها وأمثالها من عسف وذلّ. لا بدّ أنَّها سمعت دقّات الأرجل على الأرض، ومن المؤكّد أنَّها شاركت فيها، وأنَّ الخيّاط لا يعلّم الموسيقى فقط، ولا الرّقص فحسب، وإنّما يقوم بعمل آخر. . إنَّ شيئًا يتهيّأ، يغلي في قدر على نار، وإنَّ والدي وأمثاله من أصحاب القرى، يضعون الأحطاب في النّار، وإنَّ الانفجار لا بدّ آتٍ. . وسيكون انفجارًا داويًا، وإنّنا، في ذلك اليوم، سنتقاتل. . الذين هناك والذين هنا، وسيطلق بعضنا على بعض بغير رحمة.

أزعجتني أفكاري وبعثت فيّ قلقًا ورهبة. لقد كان جدّي سعيدًا، على طريقته، في وقت لم تكن سعادته تكلّفه شيئًا. كان يستنجد بالفراكيت الجائمة في عرض البحر. كان ذاك زمن الفراكيت الجائمة في عرض البحر، ولكن والدي لن يستطيع أن يفعل ذلك بالسهولة نفسها. . إنَّ لعبته مع المستشار رهان على رأسه. . ومن أجل ذلك يستشعر هذا الحقد على الخيّاط، ومن أجل ذلك يسيل الغضب في أسرتي على الخيّاط، لسوف يقتلونه أو يقتلهم، وهذا واضح، وسيكون عليّ، يوم الاقتتال، أن أقف في أحد الصفوف.

مدفوعًا برومانتيكيّة الشباب، قرّرت أن أكون في صفّ

الخيّاط والمرأة وضابط الإيقاع وزملائي الذين يتظاهرون ضدّ الانتداب ويطالبون بالحكم الوطني. عسير على المرء أن يخون أبطاله. كانت الثورة الفرنسيّة قد أعطتني هؤلاء الأبطال. ألفيت نفسي أقرب إلى الذين اندفعوا باتجاه الباستيل لهدمه، من الذين كانوا داخله وحاولوا الدفاع عنه. ملوّنة، زاهية، حارّة كانت حياة اليعاقبة. حتى أختي معجبة باليعاقبة. تقول: «نحن ليس لدينا Jacobistes!». بلى لدينا، هذه المرأة، هذه اليعقوبيّة. سألتها «تضربينني؟» قالت «دعني هادئة» لا تريد أن تفكّر بما سيحدث، لا تقوى على التعهّد بشيء تجهل ما سوف يكون، وكيف يكون، ولكنّها تحسّ، منذ الآن، بأنّه سيكون.

قلت لها:

ـ أنا أحبّ الخيّاط وضابط الإيقاع ورقصة الخنجر.. أحبّ الفلاّحين وأكره الوكيل. أكره التانغو، أكره الكازينو والتانغو، ولسوف أرحل، سأسافر للدراسة.. وقد لا أعود أبدًا، وسأذكر أنّك صفعتني، وأردتِ أن أنام على الحصير، وأفعل ذلك الشيء على الحصير.

انفجرت ضاحكة.

ـ أنت مجنون.. طفل ومجنون.. أنا ما أردت شيئًا. كنت أعرف أنَّك لن تنام ولن ترضى، ولو نمت ورضيت..

اسمع: الخيّاط قال لي: «لديّ فتى» لم أكترث لذلك.. من يكون؟ ماذا فيه غير ما في الآخرين؟ وقال لي: «فتاي سيرقص الخنجر».. استثار فضولي.. صعدت إلى فوق.. لا أميل للصعود إلى فوق.. الخنازير.. الجيران الذين فوق.. وامرأة الخيّاط، لولاه لضربتها بمدقّ الهاون على يافوخها.. البقرة!.. بدافع الفضول، ولكي أرضي الخيّاط، صعدت ورأيتك.. كنت ترقص.. وقفت أوّلاً إلى النافذة، قلت في نفسي: نعم، هذا فتى.. ولكن ماذا يعني قولنا: فتى؟ لا شيء. ماذا يعني قولنا: رجل؟ لا شيء أيضًا. القامة، الكتفان، الوجه، وحتى العضلات.. الجسم كلّه.. يبقى المهمّ: القلب. هل للفتى قلب؟ كلّهم يقولون: لنا قلب، لا تغرّك الأقوال. انظر في العينين.. القلب في العينين. نظرت في عينيك..

ـ فتى، قاطعتها مسرورًا.

ـ صدق الخيّاط.. ولكن أنا، في هذا القبو، في حياتي، أفهم أكثر منه في الرّجال.. لا أتسرّع في الحكم.. أريد علامة.

«قالت اليمامة لعمّها الزير سالم: «نعم يا عمّاه لديّ علامة، أمّي، (جليلة) ذهبت إلى خالي جساس وهي حامل. قُتل والدي كليب وهي حامل، فإذا كانت قد وضعت غلامًا، فلا بدّ أن يكون أخي، وإذا كانت قد أسمته الجرو فلا بدّ أن

يكون هو، وإذا كان هو فلا بدّ أن يعطي العلامة لأخته اليمامة».

قلت للمرأة:

ـ وأنت وجدتِ العلامة؟

ـ في المرّة الأولى شككت.. كنت ترقص كالمهر.. مثله تحرن ومثله تندفع.. وكنت أنا على النافذة، فدخلت. صرت على طرف الحلقة وثبَّتُّ عينيَّ فيك، ثبَّتّهما حتى رأيتني، ثم انسحبت وتحت النافذة انتظرت.. ما ظهر فيها شيء.. ظلّت خالية، وقلت في نفسي: ليس هو، ليس الفتى.. ولكنّك عدت، ومن الزقاق مررت، فتركت، منذ ذلك اليوم، بابي مفتوحًا.. لأجلك تركته مفتوحًا..

ـ وأنا جئت..

ـ كان لا بدّ أن تأتي.. كان عليك أن تأتي، اختصرت الطريق، أعطيت العلامة.

ركعت على ركبتيها، وأرسلت يدها في شعري، والأخرى على خدّي، واتّقدت عيناها بالسائل اللمّاع للتأثّر الفجائي، وقالت:

ـ نعم! أعطيت العلامة.. اعطيتها يا فتى، وكنت كريمًا.. وقد تألّمت لأجلك، تألّمت لأنَّ الجرح حدث بسببي.

ـ ولكنّي لم أُحدِث شيئًا لأجلك.

ـ لا تقل هذا، الكريم لا يفعل لأجل الآخرين.. ولكنّ الآخرين يقدِّرون.. كنت ترقص، وكان الخنجر في يمناك، وحين نظرت في عينيك، أجابتني عيناك.. قالت لي: «أنتِ» وهوى الخنجر ونفر الدم..

ـ فقدت توازني فغرزت الخنجر في ركبتي.

ـ ليس في الركبة.. لا تقل في الركبة.. كنت هناك.

ـ وكانت هناك عينان... وشفتان.. وابتسامة..

ـ أنا لم أبتسم.. لا أذكر أنّي ابتسمت..

ـ بلى، كانت هناك ابتسامة.. أنا رأيت الابتسامة..

قالت المرأة:

ـ إذن ليس لأجلي؟ كانت امرأة غيري؟

ـ لا أدري..

ـ صف لي الابتسامة، أقل لك من صاحبتها.

ـ لا أستطيع.

ـ آه يا فتى.. أنت مسحور..

ـ وهل يدوم السحر؟

ـ أنا لا أؤمن بالسحر..

ـ ولا أنا.. أنا لا أؤمن به يا سيّدتي ولكنّي أعيشه. رأيتها بعينيَّ. كانت تبتسم..

ـ أنا التي كانت تبتسم..

ـ لست أنتِ..

ـ بلى أنا.. تذكّرت. حين هوى الخنجر على ركبتك قبضتُ على معصمك.. استخلصت الخنجر وتواريت. أحسست بالذنب وبالفرح، وقلت لنفسي: «هذا فتاي، وعلى سريري أعطيته نفسي».. رحت أنتظر، ثم خطر لي أن أذهب إليك، وأسأل عنك وأعيد خنجرك إليك.. كنت أقدّر أنّ تصرّفي لن يرضي أهلك، ولعلّ هذا بالذات ما أغراني. لماذا نخاف الظهور على حقيقتنا؟ أريدك.. وليعلم الناس أنّني أريدك.. تحسب أنّ جرأتي بسبب وضعي؟ تظنّ أنّي لو كنت امرأة أخرى، في بيت آخر، أحذر أن أفعل ما فعلت؟ ربما نعم، وربما لا.. أملك الجرأة.. أثق بأنّي قادرة.. وأعرف نساء المدينة.. أعرف رجالها.. أعرف أسرارها.. وهذه الحصيرة تشهد.. وأنا أشهد.. أنا أيضًا نمت على الحصير، لكن سريري ليس لأحد.. لم يكن لأحد.. والآن هو لك.. اذهب إذا شئت.. ستعود، وتجدني.. هذا ما أقوله، ولننس كل ما عداه.

انتصبت واقفة. وقفت أنا أيضًا.. «أهذه المرأة كانت

هناك، في بيت الخيّاط، ولأجلها، بتأثيرها، انغرز الخنجر في الركبة؟» لا، ليس في الركبة، أين إذن؟ نعم، شيء ما في الداخل.. آه ما أشقى وألذّ هذا الذي في الداخل، لو كنت آلة.. ساعة مثلاً.. أنا أحيا والآلة تحيا، ومن داخلها، في أيّ وقت، يمكن إخراج شيء وإدخال شيء، وتعمل الساعة، كما كانت، بانتظام. إذا أساءت إليك عينك فاقلعها. ليست عيني. أقلعها ولكن ليست هي.. أنا لا أدري ما هي.. لست ساعة. لا شيء يخرج ولا شيء يدخل، وحتى الدم، لو أفرغ، لظلّ دمي، وفيه بلائي.

المرأة أعطتني الخيار: «اذهب إذا شئت» سأذهب.. قويّة هي، وواثقة، وقادرة على أن تعطي الخيار. ومع ذلك ليست هي التي ابتسمت، وأنا متأكّد من هذا. سأذهب الآن. أكرمتني بقولها: «سريري ليس لأحد، لم يكن لأحد، والآن هو لك». لي؟ ولم ينم عليه غيري؟ بلى ناموا.. هي لم تقل لم يناموا. قالت لم يكن لهم.. وجسمها؟ كانت تقصد جسمها لا سريرها.. منذ كم سنة في هذا القبو؟ وقبله؟ كان لها زوج؟ وكيف، إذن، صارت هكذا؟ لعلّها مثل الفتاة.. ولها مثل حكايتها. الفلاّح، والد الفتاة، قتله والدي. ليس والدي بالذّات، ولكنّه كذلك، بمعنى آخر.. ووالد المرأة؟ مات مريضًا؟ قُتل، هو الآخر، بطريقة ما، بمعنى ما؟ ووالدي.. لماذا يتهمون والدي؟ جدّي القنصلاتو أيضًا،

وجدّه.. والفراكيت؟ بقوّتها حكموا، وامتلكوا، وقتلوا، بقوّة «الباب العالي» أيضًا.. بقوّة ما.. والمرأة: بنت القتيل، مثل الفتاة، صارت من يد إلى يد، وجسمها من حصير إلى حصير.. لم يبق لها إلاّ السرير «سريري ليس لأحد، لم يكن لأحد، والآن هو لك» ولماذا لي، أنا بالذات؟ ألأنّني رقصت بالخنجر، ودققت الأرض، ابنة الكلب، النائمة؟

«اذهب إذا شئت».

سأذهب..

وذهبت..

ـ ١٦ ـ

ذهبت بشعور كدر. بنقمة على قوّة المرأة وضعفي حيالها. «اذهب إذا شئت». وبرغم المصالحة، لا مصالحة. ما بيننا أعمق: غور من الدم. أن أكون زبونًا فلا مانع، وحتى النوم على الحصير كان ميلاً إلى الثأر لا سلوكًا منافيًا للياقة. في وسعها تجاوزه، وربما، في معزّتها لي، ترفعني إلى سريرها وتبيحه لي. قالت: «لأجلك تركت بابي مفتوحًا» ولمّا دخلته أغلقته. تحدّتني أن أذهب، واثقة أنّني سأعود. «هو ذا فتى» قالت، ومع ذلك عاملتني بما يضعها فوق الفتوّة، كائنًا ما كان حجمها. وفي ذلك اليوم، اليوم الذي يحدث فيه الانفجار في مدينتنا، ستطلق عليّ إن كنت في الطرف الآخر..

الخيّاط، برغم تشابه الهدف والمشاعر، أقلّ تطرّفًا من هذه المرأة. ليس لأنَّ المجتمع قد آذاها أكثر، وأنَّ والدها قد يكون قُتل بيد أمثال والدي، بل لأنَّ لها، فوق ذلك، طريقتها الخاصّة، العنيفة، المغامرة.

وها أنا، بعد كل نواياي، أُجَابَه بشكّ من الخيّاط،

ورفض من المرأة، وأحمل إثم الطرفين المتقابلين في المدينة. في القلاع مذنب لأنّني متعاطف مع الأكواخ، وفي الأكواخ مذنب لأنّني أنتمي إلى القلاع، وفي ذاتي أحمل الإشفاق لابنة عمّي والشهوة للمرأة والحبّ لصاحبة الابتسامة، وفي تأرجحي بين كل هذه الاعتبارات أبدو ضعيفًا، فاقد الركيزة والانتماء.

ذهبت وقد خيّرتني المرأة. أنا لم أرد ذلك، ولكن كان عليّ أن أفعله لأصنع من نفسي صخرة ترتطم عليها الموجة.. عبرت الزقاق آسفًا لأنّ المرأة أمعنت في لعبة العداء والتحدّي. توقّعت أن توقفني، أن تناديني، أن تأتي بحركة تعيدني إليها، ولكنّها تركتني أمضي غير عابئة بأثر موقفها اللامبالي تجاهي.

حسنًا، قلت في ذاتي. وحاولت اصطناع اللامبالاة أنا أيضًا. حاولت قهر الرغبة في امتلاك هذه المرأة، وبذلك أخضعها أو أسلوها.

كانت المدينة هادئة وهي على مشارف الأصيل.. الهواء راكد، والنور باهت، وفي أعماقي همود وشحوب، وإحساس بالخيبة والتعاسة، وقد فقدت حماستي لكل شيء. صرت على طرف الأطراف من كل ما كان يثيرني، أشبه بالماء المتجمّع، العاجز عن شقّ طريقه، وريح شماليّة تحمل الغبار والأوراق اليابسة لتذروها على صفحته.

همت في الأزقّة والدروب، تاركًا قدميّ تقودانني عبرها. وبوصولي إلى الشارع الذي يقع فيه بيت عمّي سمعت أنغامًا تتناثر، آتية من أعلى. توقّفت تحت الشرفة، وأصغيت إلى البيانو يرسل ابتهالات عذبة، تنداح في الهواء، وتتناءى، فيمتصّها الصمت، لكنّها تظلّ حيّة في الإحساس.

راودني إغراء أمام المتعة الروحيّة التي تهمي من الشرفة إلى الشارع. كنت راغبًا عن الكلام، وبي حاجة شديدة إلى الانسحاب نحو زاوية خالية، أُخرج فيها أشيائي الداخليّة فأتفحّصها وأعيد ترتيبها. ولكنّي استسلمت إلى النغم المنداح من البيانو، ووقفت على الرصيف، معرّضًا نفسي لفضول بعض المارّة، ثم رأيت من الأفضل أن أصعد إلى ابنة عمّي، فأمكث لديها بعض الوقت.

شرعت بصعود الدرج الحجريّ الضيّق كأدراج الأبنية القديمة، وأحسست بالسكينة والطراوة وأنا في منعطفه الذيْ يحجبني عن الطريق والباب. ولأنّ أسرة عمّي تسكن وحدها الطابق الثاني، فإنَّ أحدًا لا يصعد أو يهبط على الدرج إلاَّ أن يكون من أفرادها وهم قليلون. تمهّلت وأصغيت. انقطعت الموسيقى إلاَّ من رفيف خفيف، ووجدت نفسي راغبًا عن مواصلة طريقي إلى الداخل. جلست على إحدى درجات المنحنى. هنا لن يراني أحد. قد يُفتح الباب، وفي هذه الحال أنهض وأتظاهر بأنّي صاعد. وحاولت أن أفكّر فلم

أفلح. كان كسل يسيطر على ذهني، ولامبالاة كاملة تحتويني. كنت، الآن، أكثر تعاسة من ابنة عمِّي نفسها، وشوق مبهم إلى شيء مجهول، قادم على سفينة الأيّام، يشدّني ويعذّبني. وخيّل إليّ أنّ كل من حولي أفضل منّي. فهم، جميعًا، يعرفون ما يريدون وقد أعطوا نفوسهم له. لقد تلوّنت أنغام ابنة عمّي. صارت أبهج قليلاً، وأنا الذي صنعت لها ذلك. تظاهرت بأنّني أُطلق عليها. والطيرة المسكينة صدّقت أنّني أُطلق عليها. اكتفت بالصوت دون الفعل، وفاتها أنَّ ناري خلبيّة وهذا ما أحزنني. فأن نصنع، بدافع الشفقة، أملاً عقيمًا.. أن ننبت زعرورة برِّيَّة، ثم لا ينعقد فيها، حتى ولا الزعرور البرِّي، فإنَّ عملنا يكون خسيسًا. الانتكاسة أشدّ من المرض. وهذه الفرحة الصادحة في الألحان، ليس في الألحان نفسها بل في طريقة عزفها، ستيبّس القلب حين تغيض، وستقول عنّي صاحبته إنّني نذل. قد لا يهمّني قولها، ولكن هي ستتألّم. قبل أن أمنحها المحبّة ما كنت مسؤولاً عنها، وبعد ذلك صار عليّ ألاَّ أحجبها. قبل أن أدقّ الأرض النائمة، لأوقظها، ما كنت مطالبًا، أن أفعل ذلك، ولكن بعد أن بدأت، صار توقّفي ارتدادًا، صار عارًا.. وتلك الفتاة، من ذا الذي كان يلومني إذا لم أنم معها على الحصير؟ ولكن بعد أن وعدتها بغرفة، وخزانة، وسرير، ستطمح إلى ما هو أكثر من الغرفة والخزانة والسرير، فما يكون موقفي؟ وما الفرق، عندئذ، بيني وبين

أيّ خنزير، يضاجعها كجثّة، ويدفع لها ثمنًا لشيء فرغ منه، وأحسّ بقرف حياله؟ والمرأة ذات العينين السوداوين، وسريرها الأبيض، وحبّها لإنسان كان من المفروض أن تكرهه، بكرهها لكلّ ما يمثّله أهله؟

لقد التزمتُ، على نحو ما، أمام هؤلاء جميعًا. اندفعتُ، بشعور من الضيق، خارج «القلعة»، وبشعور مماثل، اندفعتُ خارج القبو. أنقذت نفسي من التانغو التي استشعرتها كثافة تزهق روحي بلزوجتها الدبقة، برتابتها القاتلة، ببطئها المحزّ على أعصابي كزجاجة مكسورة على أرضيّة إسمنتيّة. أنقذت نفسي «برقصة الخنجر» التي وجدت فيها الشفافيّة والحركة والحماسة والفرح، وطريق الخلاص.. وها أنا أسعى لإنقاذ نفسي من رقصة الخنجر أيضًا.

إيه يا ابنة عمّي، يا عزيزتي التي في الداخل، أيّتها العازفة الماهرة، إنّني هنا، على درجك الحجري، معلّق بخيط لا يُرى، في سقف تردّدي الملعون، بين حياة مريحة، راكدة، جاهزة، صنعها جدّي القنصلاتو، وحياة متعبة، شيّقة، عليّ أن أصنعها بنفسي.

هبطت الدرج إلى الشارع دون أن أدخل البيت. سأدع ابنة عمّي في وهم سعادتها حتى تكتشف أنَّ الوهم لا يصير حقيقة. لسوف تتعذّب. وفي الظلمة، على حرير وشوك ذكرياتها تتقلَّب. ستستعيد الماضي الذي كان حاضرًا،

وتمثّل كيف أخذتها بين ذراعي، وقبّلتها ومنحتها الحكمة. ستدرك أنَّ ما حسبته طلقة صيّاد، لم يكن إلاَّ طلقة عابر سبيل، ما همّه الصيد، بل عزّ عليه أن تمرّ به الطريدة ولا يحيّيها.

إنّ لعبة الشفقة تحتاج، هي نفسها، إلى شفقة. ولسوف تفهم ابنة عمّي أنّني ما كنت قادرًا على مقارفة هذه اللعبة، وأنّها، بدورها، لا تتطلّبها. الحبّ ليس منحة! الحبّ ليس منحة! الحبّ ليس منحة! ما بقي هو أن أصارحها، أن أقول لها ذلك، ولكن ما أدراني أنَّها تبادل التمويه الذي أسعدها، بالصراحة التي تشقيها؟ لأدعها إذن. الذين يريدون الحقيقة يكتشفونها بأنفسهم.

سرت في الشّارع منتعشًا قليلاً، بفعل شعوري أنّ الحزم قد واتاني أخيرًا على مجابهة الأمور. لا ابنة عمّي ولا تلك المرأة.. لسوف أعود إلى المرأة، وسأفي بوعدي للفتاة، ولكنّ الرياح التي في رحم التكوين، هي التي ستحمل إليّ الجواب على السؤال الذي يعذّبني.. ستسوق إليّ المطر.. إنّ اشتهاء متضرّعًا، كالصلاة الحارّة، كلهفة التربة الجافّة، تكنّه سريرتي، تصعّده روحي ابتهالاً إلى الآتي، إلى الصورة التي ستخرج من الصورة، إلى التمثال الذي تدّب فيه الحياة فيدخل من النّافذة ليرقص أمام ضابط الإيقاع.

في البيت وجدت والدتي وحدها، كان والدي قد نهض

من قيلولته فتناول قهوته وذهب إلى الكازينو، وأختي غائبة في زيارة ما، وسكينة تامّة، موحشة، تنتشر بين الجدران السميكة، البغيضة، لبيتنا الذي تحوم فيه روح جدِّي وأفكاره وطقوسه.

كانت تطرز «الكانافا» على طارة المشغل جهازًا لأختي التي ستتزوّج كما تزوّجت أمّها، وأمّ أمّها من قبلها، وتعيش في بيت كبيتنا على جداره صورة جدّ كجدّنا، وفيه غرامافون يدور على إسطوانة «التانغو» مثل غرامافوننا، وعلى مائدته تتكرّر الأحاديث ذاتها عن خبث الفلاّحين، وشرههم، وسرقاتهم، وضرورة تأديبهم. وستلعب أختي «الكونكان» و«البوكر» وقد تشرب قليلاً، وربّما دخلت في مغامرة صغيرة انتقامًا من «رئيس القلم»... وهذا كلّ تميّزها بالنسبة لأمّها. ما عدا ذلك ستشبهها في كلّ شيء: الحبل، الولادة، تربية الأطفال، التطريز على المشغل، والموت حين يأتي، ثمّ نسيان «اليعاقبة الشجعان» والكتب التي تحدّثت عنهم، الكتب التي نقرأها في المدرسة ونهملها بعدها، لأنّ أفكارنا يصنعها جدودنا، ونحن، في بلادتنا نؤثر أفكار جدودنا.

أنا أحبّ أمّي. أحبّها أكثر من أبي. هي معه، شريكته في الملك والبيت وسماع التانغو وتقديس ذكرى جدّنا، ولكنّها ليست مساوية له. إنّها قطعة من أثاث البيت، شيء من الأشياء، عبدة مفرغة حتّى من نقمة العبدة. أحبّ أمّي،

وأشفق عليها، وأثور، بغير إعلان، على هذا الهوان القنوع الذي هو رضاها. وحين أفكّر بتلك السيّدة، صاحبة الأملاك، وعشيقة وكيل أملاكها، والتي تضرب الفلاّحين، وتغامر، وتقامر، أراها أكثر حياة منها. أكرهها ولكنّي أراها أكثر حياة منها.

حيّيت والدتي بغير أن أنظر إليها. كلانا كان خجلاً بعد حادث المرأة في بيتنا. وقد انقطعت عن الجلوس إلى المائدة طوال هذه المدّة. كنت، بحكم مرضي، أتناول طعامي في غرفتي، وكانت أمِّي تدخل عليّ، وتعتني بصحّتي، وتسألني عن راحتي ورغباتي، ولكنّ إحساسًا بقيام حاجز بيننا كان واضحًا في سلوكنا نحن الاثنين. لعلّها لم تعتدّ بعد على فكرة أنّني رجل يمارس الجنس مع امرأة. كان خيالها يتشبَّث بصورتي وأنا طفل. وإذ أكون طفلاً فأنا ملكها. وفجأة ألفتني رجلاً وهي امرأة، أمّ ولكن امرأة، وتأتي امرأة أخرى، غريبة، تأخذني منها، تدنّسني بجسمها، تجعل للقبلة معنى، وللجلوس في الحضن معنى، ولوجودها معي، في غرفة واحدة، والباب مغلق، معنى، وأمِّي لا تدخل في دائرة هذه المعاني، لكنّها مضطّرة إلى الإحساس بها، ومنذ أحسّت بها انطوت على شعور بأنّها فقدت صغيرها الذي كبر وصار رجلاً. أمّا أنا فقد خجلت من غيرة أمِّي، من الشرخ الذي حدث في صورة القدِّيسة التي كانتها، من مهانتها بعد أن صفعت المرأة وبكت أمامها.

ردّت والدتي تحيّتي بلهفة الأمّ التي كانتها. وألقت المشغل من يدها ونهضت وعانقتني. شممت الرائحة القديمة، الأليفة والحبيبة، التي تنبعث من عنقها. تركتها تضمّني، وتشمّني، وتلثم خدّي وعنقي، وتبكي أيضًا على كتفي، لقد فرض الصلح نفسه علينا بغير عقاب ولا اعتراف أو اعتذار. وقرّر كلّ منّا، ضمنًا، ألاَّ يأتي على ذكر الحادث. وسألتني وهي تشير إلى ركبتي:

ـ هل زال الألم نهائيًّا؟

ـ تقريبًا..

ـ ولا تضايقك في المشي؟

ـ لا أحسّ بالمضايقة.. أحيانًا يخزني الجرح، لكنّه اندمل، شفيت تمامًا.

ـ لا تمش كثيرًا.. اركب عربة، واسترح.. إنّني قلقة عليك.. فماذا حدث لك يا بنيّ؟ هل أنت بحاجة إلى شيء؟ هل يضايقك أحد..؟ لماذا تغيّرت؟.

حاولت أن تبتسم.. نجحت بصعوبة، وتحيّر الدمع في مقلتيها، ولكي أبدّد مخاوفها ابتسمت بدوري، وقلت مداريًا مشاعرها:

ـ أنا بخير.. ولا شيء يضايقني.

ـ ووالدك؟

ـ ما به؟ إنّه والدي (وأشرت إلى الجدار) وهذا جدّي. . كلّ شيء على ما يرام.

ـ سأقول لك شيئًا. . ولكن لنشرب القهوة أوّلاً. . سأعدّها بنفسي.

بانتظار عودتها احترت فيما أصنع. كنت مهتاجًا داخليًا، بخلاف رخاوة المظهر الطافية على قسماتي. كان شأني شأن من أضاع خاتمًا في الرمل، فهو يبحث عنه متمهّلاً متوتّرًا في آن، وبدت لي موجودات البيت عتيقة، أثريّة، ومحايدة بالنسبة لإنسان فُرض عليه، بحكم الانتماء العائلي، أن يكون حبيسًا مثلها، وقد كانت شيئًا في الزمن الذي عاش فيه جدّي، وربّما بقيت منها إضافة إلى زمن والدي، وها هي قد أضاعت، في زمني، كلّ قيمة لوجود لا يفعل سوى أن يبهظ أعصاب النظر. ولو صار. . وبنيت يومًا بيتًا كما أريد، جدرانه رقيقة، خشبيّة إن أمكن، ونوافذه عريضة، بحجم الجدران ذاتها، وسقفه قرميدي، يوقّع عليه المطر موسيقاه، وتحت النوافذ زهور، وعلى حوافيها عرائش سوسن. . لو بنيت مثل هذا البيت، لما احتفظت فيه بشيء قديم، ولا ضخم، ولا زائد عن حاجة الاستعمال، ولخصّصت يومًا في كلّ فصل، لتفقد هذا الزائد، وطرحه خارجًا. ولو صار هذا البيت لي، لأمرت بتفريغه وإلقاء كلّ محتوياته خارجًا، وفي

أوّلها صورة جدّي وكرباج والدي وإسطوانة التانغو اللّعينة. ولأنّ ذلك لن يكون، قريبًا على الأقلّ، فما تبقّى هو أن أخرج أنا، أن أطرح نفسي في الشّارع، وأذهب بعيدًا، باحثًا عن ذلك الشيء الذي أضعته في زمن لا أعلمه، أو ذاك الشيء الذي سأعثر عليه في زمن لا أعلمه أيضًا.

شربنا القهوة، جلوسًا في الصّالون، على الكنبة الطويلة، وأمّي تتحيّن اللّحظة المناسبة لتبدأ حديثها. شجّعتها عليه، لكي أفرغ منه وأدخل غرفتي.

ـ ما هذا الشيء (سألتها) الذي تريدين قوله؟

ـ لا أهميّة له.. ولكنّي وجدت الوقت قد حان.. أعني أنّ كلامنا عليه، قد يخفّف ما بك، ثمّ إنّ رأيك له أهميّته بالنسبة إليّ...

ـ رأيي بماذا؟

ـ بخطيب أختك.

ـ برئيس القلم؟

ـ ها أنت تسخر منه.. معنى هذا أنّه السبب..

ـ السبب في ماذا؟

ـ في نفورك من البيت.

ـ ولكنّه بيتنا وليس بيته.. وعلى هذا فليس من سبب لأن أنفر من البيت لأجله.

ـ ولكنّك لا تحبّه. .

ـ أنا لا أحترمه. . وإذا أردت الصراحة فأنا أحتقره، وأكرهه. .

ـ كنت أعرف ذلك، ولكنّي لم أتوقّع هذه القسوة منك. إنّه، بعد كلّ شيء، خطيب أختك.

ـ خطيب ابنتكم. .

ـ ليكن ما يكون. . إنّه قريبك، قصدت أنّه سيصير قريبك.

ـ لن يصير قريبي أبدًا. .

ـ حتّى ولو تزوّج أختك؟

ـ حتى ولو تزوّجها.

ـ ولماذا، يا ولدي، تكرهه بهذا المقدار؟

ـ لأنّ كفّيه وقدميه صغيرتان!

حملقت في وجهي مستغربة، مبغوتة، لسبب هو لا سبب في نظرها، وقد انصرف ذهنها إلى ما هو أهمّ، إلى ما قالته المرأة عنه.

ـ أنت تمزح، أو لا تريد أن تقول الحقيقة.

ـ قلت الحقيقة. كفّاه لا تعجباني. . هذا هو كلّ ما عندي.

ـ ولكن ليس هذا سببًا كافيًا للكره. .

ـ إنّه سبب كافٍ بالنسبة إليّ.

ـ أنا لا أصدّق. . لا أتصوّر أنّ صغر الكفيّن والقدمين يشكّل دافعًا لهذا الكره.

ـ تصوّري ذلك، ليس صغر الكفيّن والقدمين فقط، بل صغر كلّ شيء فيه، حركاته وابتساماته وكلماته أيضًا. . إنّه تافه!

ـ وكيف يقنع والدك بهذا؟

ـ ولماذا تريدين أن يقنع والدي؟ ثمّ ما يهمّني من هذا الأمر؟. . أختي التي ستتزوّجه لا أنا. .

ـ ولكنّ موقفك منه أثرّ على أختك.

ـ رفضته؟

ـ ليس تمامًا. .

ـ دعوها وما تريد.

ـ ولكن والدك يريد. .

ـ يريد ماذا؟ تحسبين أنّه معجب بشكله؟ لا. . والدي يفكّر بأملاكه، وعائلته، ورضاء المستشار عنه. . يفكّر كما فكّر جدّي، وكما فكّر، قبله، جدّه الأعلى.

سكتت مستسلمة لواقع تعرفه ولا تقوى على تغييره، أو لا تجد من حقّها أن تسعى لتغييره. تدرك، بحاسة الأنثى، أنّ أختي لا تحبّ خطيبها، ولكنّها لا ترى عدم الحبّ مانعًا من الزواج، ما دامت المقوّمات الأخرى: الملكيّة، وعراقة العائلة، والوجاهة متوفّرة. وأنا أدرك أنّ هذا الزواج سيتمّ، وأنّ أختي لن تخرج على إرادة والدي، فالعائلات المالكة يتزوّج بعضها من بعضها، وهذا عرف معمول به بحكم المصلحة والعادة والأفكار المتوارثة التي لها قوّة القانون.

ـ وأنت؟ (عادت أمّي تسأل) ألن تسافر كما يريد والدك؟

ـ سأسافر، لأنّي أريد ذلك، لا لأنّ والدي يريده.

ـ ولكنّك صغير بعد على معاكسة والدك إلى هذا الحدّ.. ثمّ هذا غير لائق.. أنا لا أفهم.. اشرح لي سبب كلّ هذا الجفاء.. قل ماذا تريد؟

ـ لا أريد شيئًا، والأصحّ لا أدري..

أطرقت مفكّرة ثمّ قالت:

ـ بلى، أنت تدري. أنت تحبّ تلك المرأة، تلك الفاسدة. ومن أجلها ذهبت إلى الخيّاط، ومن أجلها رقصت بالخنجر، وغرزته في ركبتك. أنت شاب صغير، عاطفي وغني، وقد استغلّوا فيك طيبتك فأوقعوك في فخهم. سيبتزّون مالك، ويسيئون إلى سمعتك، ويلهونك عن

دراستك، هؤلاء الأوباش، حثالة المدينة. من أجل ذلك يجب أن تسافر، أن تبتعد سنوات. وسيكون فراقك صعبًا، ولكنّه أهون من فسادك. وحين تعود تكون قد نسيت، وربّما تزوّجت فتاة باريسيّة.. وسنفتخر، عندئذٍ، بك كثيرًا. آه لو يحدث ذلك. «زوجة ابننا فرنسيّة!» كم يحلو أن نقول ذلك؟ وكم سينفتح لك طريق المستقبل! الملك والنفوذ! ستكون حفيدًا يرفع الرأس لجدّ عاش مرفوع الرأس، يزدحم النّاس على بابه، وكلمته لا تصير اثنتين.. لسوف تسافر يا ولدي، وتهجر هذه القذارة التي تلوّثت بها.. وفي كلّ صيف نزورك، نعيش معك، هناك، أيّامًا جميلة.. الحياة، هناك، جميلة. باريس، آه.. أيّ حلم!

لذت بالصمت فأضافت:

ـ أفسدت روحك.. ما كان يجب أن تعود من بيروت.. وتقضي الصيف في هذه المدينة الوسخة.

ـ ولكنّها مدينتنا.

ـ لو لم تكن أملاكنا فيها..

ـ ومع ذلك فهي مدينتنا.

ـ لولا الأملاك..

ـ كنّا نهجرها؟.. اسمعي.. ما حسبتك تقولين هذا.. أنتِ تردّدين أفكار غيرك.

ـ وأنت؟

ـ لنغلق هذا الحديث. .

نهضت مغاضبًا. أمِّي مثل الآخرين، تأكل من الأرض وتلعنها. لا تقوى على تصوّر الأحياء الفقيرة. لعلّ ذلك بسببي، ولعلّه عادة تأصلت. يكرهون الذين هناك، والذين هناك يكرهون الذين هنا. ومن العبث إجراء المصالحة أو توقّعها، ولهذا يريدونني أن أسافر، أن أبتعد عن الجوّ.

رقّت أمِّي وقد لاحظت انفعالي. عاودتها طبيعة التراجع عند الحسم، ورغبت في تخفيف حدّة الموقف الذي وتّرته من حيث أرادت ترخيته. لسوف يهاجرون يومًا. لا يشعرون إلاَّ برابط الملكيّة، فلو تحوّلت الأرض إلى شيءٍ يُحمل، لأخذوه وارتحلوا. لا يهمّهم خراب أو عمار، إلاَّ بمقدار ما يأتي الخراب أو العمار بمزيد من المال. كذلك كان جدِّي، وكذلك هو والدي، ورئيس القلم، والسيّدة عشيقة وكيلها، وأمِّي المسكينة التي سمّموها بأفكارهم. وقد تكون هذه الأفكار، بالنسبة للّذين على شاكلتهم، موضع دراسة للتنفيذ، والخطوة التنفيذيّة الأولى، بالنسبة لعائلتي، تسفيري أنا، ثمّ يأتون إليّ إذا تطوّرت الحال، ولم تعد حكومة المستشار قادرة على الاحتفاظ بوجودها عندنا.

هل أصارح أمِّي بكلّ الحقيقة، وأقول لها إنّ ما يفعله

والدي يجعلني أخجل من الظهور بين زملائي؟ ظنّي أنّها لن تفهم عليّ. في الكازينو يرون حقّ فرنسا في هذه البلاد، كحقّنا في أملاكنا، وأنّ البحث فيها، من وجهة نظر أخرى، انتهاك للحقّ المقدّس وعقوق لواجب الأسرة وخيانة لمعتقداتها!

أفضل شيء أن أكون عاقًا. لن أقول لوالدتي ما أريد.. فأنا، حتّى الآن، لا أعرف بالضبط ما أريد. يكفي، في الوقت الحاضر، أن أغادر البيت. بغيضٌ كلّ ما فيه حتّى الهواء والنور، ومقيتٌ هذا الأثاث وهذه الجدران السميكة المغلقة على نفسها كجدران سجن تركي.

قبعت في غرفتي التي أوصدت بابها عليّ. وحين بدأت أفكّر بحياة مستقلّة، شعرت أنّي محاصر، وأنّي عبد للحاجة مثل تلك الفتاة التي تنام على الحصير. فما دمت لا أعمل، فلا مجال للشعور بالحرّية. أنام على سرير في غرفة فاخرة، وألبس ثيابًا أنيقة، وأجد ما أشتهي من غذاء وشراب، ولكنّي، مقابل ذلك، أُعطي وجودي، ليتقولب وفق إرادة أهلي. والدي لا أنا، هو السيّد. إنّه صاحب المال، والعمل، والأرض، ولكي أتحرّر من نفوذه يجب أن أتحرّر من حاجتي إليه، يجب أن أعمل.. وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي خدعت نفسي عنها طويلاً.

قلَّبت الأمور على كافّة وجوهها. كنت فتيًّا لا أزال.

وكان عليّ، في مواجهة هذه الحقيقة، أن أعيّن مكاني على طرفي الغور، وأضع نفسي فيه بغير تردّد. لكنّ الأمور لم تكن بالسهولة التي حسبتها للوهلة الأولى، فما في جيبي من نقود لا يكفي لنفقات أسبوع، وخلال هذا الأسبوع عليّ أن أباشر عملاً، فماذا أعمل وأنا لا أملك شهادة ولا مهنة، ولم أعتد على تدبير معاشي أو تخطّي حواجز بيئتي؟

غامت الأشياء في نظري. كالضباب الذي يهبط كثيفًا على القمم، هبط القهر على كياني، فشعرت بالمهانة والاختناق، وأحسست أنّ النسيج العنكبوتي للعلاقات التي تحكم تصرّفات النّاس له قوّة الحديد وقسوته في الأرساغ، وأنّه لا بدّ من تمزيق هذا النسيج بخنجر ذي نصل باتر، خنجر كالذي أعطانيه الخيّاط، وعلّمني كيف أرقص به وأمزّق وجه الفضاء المعادي.

ـ ١٧ ـ

مكثت وقتًا غير قصير في غرفتي. فكّرت جادًا في الخلاص وبحثت عن طريقه من كلّ قلبي. كان على الماء الرّاكد أن يشقّ ساقية صغيرة له. وبأصابع مدماة طفقت أحفر الأرض لأفتح ساقية صغيرة أسيل منها. كانت الأرض إسمنتيّة من حولي، وبدون فأس ورفش لا سبيل إلى كسر قشرتها الصلدة.

لقد استيقظ وعيي مبكرًا. كنت شابًا، وفي السنّ التي يستيقظ فيها الوعي، ويبحث بأصابع مدمّاة عن ثغرة في جدار محبسه لينطلق منها ويحقّق ذاته. لعنت شبابي وباركته. فلو أنّ هذا الذي حدث معي تأخّر إلى ما بعد الدراسة، ولو أنّه وقع بعد أن صار مال والدي وأملاكه إليّ، لكان يسيرًا أن أقرّر ما أريد وأنفّذه. ولكن من يدري، لو أنّه تأخّر، إلى ما بعد الشباب، إلى ما بعد الدراسة، إلى أن أصير وريثًا، أنّ وعيي به يظلّ وعيًا، يظلّ حيًّا، ثائرًا، باحثًا عن التجسّد فعلاً.

كنت في السنّ المباركة والملعونة إذن، وبعدها المفترق. كنت في المفترق، ومنذئذ، وإلى الزمن الآتي، تتحدّد معالم

الطريق. طريق والدي ليس طريقي. ليس لأنّه سلفي، سار فيه جدِّي وجده، ولا لأنّه مسدود، لن يستطيع المضي فيه والدي نفسه، بل لأنّه طريق لا يلائم عصري، لا يلائم كتبي ولا حياتي وأنا لن أخون كتبي ولا حياتي، وكان عليّ أن أفعل ما يحرّرني من ربقة أسرتي، وواقعها، ومصيرها.

كذلك كنت، في منطق المقدّمات، أصل إلى النتائج. ولكن تقبّل النتائج، واحتمالها، والسير بمقتضاها، كان يعيدني، أنا الماء الرّاكد، إلى الحوض الإسمنتي الذي حُبست فيه. فما لم أملك المال لا أستطيع إتمام دراستي، والحصول على المال يتطلّب الحصول على رضا والدي، وهذا يتطلّب تغيير سلوكي، بدءًا من القبول برئيس القلم، إلى محبّة التانغو، إلى شتم الفلاّحين وضربهم، إلى مدح الحماية الفرنسيّة، ومعارضة المشاعر الوطنيّة، والإيمان بالجدّ والقنصلاتو والفراكيت، والانحناء للمستشار والظهور معه في الكازينو، ثمّ. . وهذا أسهل الأشياء وأصعبها، مقاطعة الخيّاط والمرأة ونسيان الصورة.

أُداجي؟ أُظهر غير ما أُبطن؟ أيُّ نذل أكون؟ أسرق والدي وأفرّ؟ وأين المال لأسرقه؟ ثمّ هل أفعل؟ هل أعيش بهذا الإحساس الذي يعذّبني أو يضعني على منزلق الوضاعة؟ أسأل والدتي مساعدتي؟ ولكنّها، في أسرة تتجمّع خيوط المُلك في يد الأب وحده، لن تستطيع أن تنفعني كثيرًا.

ما بقي هو أن أعمل. وهنا جابهني سؤال مخيف: ماذا أعمل؟ في مدينتنا لا يوجد ما أعمله، ولا ما يمكن أن أعمله، والحلّ الوحيد هو السفر، وبذلك أفلت من دائرة الرقابة، ومن ضغط المشاكل، وأتابع دراستي، بذلك أخطو في طريق مستقلّ، أشقّه بنفسي، وأتمرّن فيه على مواجهة الحياة وصعابها، بغير اعتماد على مال أسرتي وأملاكها.

انتهيت إلى قرار: السفر.. أهلي أيضًا يريدونه. لهم فيه مآرب أخرى. سأقول كل شيء للخيّاط، ثقتي به كبيرة، ولسوف يتفهّم دوافعي. هو نفسه سيشجّعني، مادام بقائي، وسط حقل الشوك، سيقتل الزهرة التي لاحظ مرّة وجودها. المرأة، بقميصها اللّيلكي، بسريرها الأبيض، ستنتظر فتاها، وحين تعلم أنَّه سافر ستبتسم: لقد فرّ! عندئذ تفقد الموجة صخرتها، والماء لن يتحوّل إلى رذاذ أزرق، وبجرأة، في اليوم الموعود، ستتقدّم من «القلعة» وبيدها زجاجة البترول. وابنة عمّي ستبكي. هذه لها حظّ اللحاق بي في القافلة التي ستحمل متاع الأسرة وترحل، بعد أن تكون كنوزها قد سبقتها، على متن سفن الحماية. ولن تتخلّف صورة جدّي. سيأخذونها معهم، ومن جديد، حيثما استقرّوا، يعلّقونها على الجدار. أمّا صاحبة الابتسامة فستظلّ سريرة مضمرة في الغيب، إلى أن نلتقي يوم أعود. حينذاك أكون جديرًا بها. أرقص لها، وأغزل بالخنجر دوائر نور.

قلت في نفسي إنَّ ملاقاة الشدائد بمواجهتها يحمل معنى الانتصار عليها، وفي هذا عزائي. ولقد كان عزاء مسكينًا لم يحل بيني وبين الحزن الشديد. كنت حزينًا، ذلك الأصيل، عالمًا أنَّني، في الاختيار المفروض، قد قبلت ما فُرض عليّ، وخرجت من المعركة دون أن أقاتل. الخيّاط علّمني رقصة الفرسان، منحني صداقة رجل لرجل، وفي اللحظة الحاسمة تردّدت. لم أتبعه على الطريق.. كان ذلك يضعني ضدّ أسرتي، وكنت خائفًا من هذا، ولا أريد شهوده. ليجْرِ كل شيء في غيابي، بغير إسهامي، وأنا، من بعيد، أباركه وهذا منتهى جهدي.

تسلّلت من غرفتي، عبر الصالون، وخرجت إلى الشارع. تنفّست كمن يستفيق من كابوس، ومضيت أطوف لأستهلك وقتي دون مزيد من التفكير في حالتي. وحين لفحني نسيم الأصيل، في هبوبه من ناحية البحر، أشرق حبّ كبير لمدينتي في نفسي، وعزّ عليّ أن أغادرها لأنّني غير قادر على نصرة حبّي لها، وهذا ما زاد في كرهي لكل ما يمثّله بيتنا من طحلبيّة على جدران الحياة.

أن أسافر فليس لأنّني أريد، بل لأنَّهم أرادوا. ولن أمتطي في سفري جوادًا عندميًّا. لقد ترجّل الفارس لأنّه لم يستطع التصرّف بحسم، لأنَّه كان أقلّ شجاعة من امرأة تعيش في قبو.

طفت الشوارع حتى المساء. كانت أفكاري جروحًا تتفتّح في داخلي، ودمي المالح اللزج يختلط بلعابي. كنت مشتّتًا، متمزّقًا، يائسًا من التلاؤم أو الانفصال. وكريشة، على وجه ماء راكد، تتلاعب بي ريح الحيرة في عنف واحتقار. وفي اللّحظة التي كنت فيها أتجاوز دكّان الحلاّق سمعته يناديني والمقصّ في يده:

ـ تفضّل.. لماذا لا تزورني، هل منعك ذلك الغشّاش؟

أومأت برأسي أن لا، وهممت بمتابعة الطريق. فخرج من الدكّان ولحقني:

ـ تعال! سمعت عنك أشياء كثيرة، ولم أصدّق.. محال.. كان جدّك قنصلاتو..

قلت في نفسي «نعم، وهذه مصيبتي».

ـ يقولون إنَّك تعلّمت الرقص بدل العزف...

ـ صحيح.

ـ وأنَّك سترقص في الشوارع على عزف ذلك الدجّال..

ـ صحيح أَيضًا.

حملق في وجهي، وراح يسحبني من كمّي:

ـ ادخل، ادخل، دعك من المزاح.

دخلت فاستطرد:

ـ ويقولون إنَّك غرزت الخنجر في ركبتك.

ـ نعم.

ـ وأنَّك انضممت إلى تلك العصابة التي ستقتل الملاّكين وتأخذ أملاكهم.

ـ أجل.

ـ تقتل والدك إذن؟

ـ لن أقتل والدي.

ـ سيقتلونه هم..

ـ والدي لا يموت من القتل.

عبس وفكّر، وقال كمن يخاطب نفسه:

ـ هذا هو السحر.. لقد سحرك.. ومن هذا كنت أخاف.. حذّرت والدك.. قلت له: انتبه سيجعل ابنك يقف ضدّك..

ـ وماذا قال والدي؟

ـ قال أعرف كل شيء.. سأجعل هذا الخيّاط اللعين عبرة لسواه.

ـ ولماذا أنت مسرور؟

ـ ولماذا أزعل؟ هذا اللعين يحرّض الناس. . يزعم أنَّ والدك متواطئ مع المستشار. .

لذت بالصمت. قال الحلاّق:

ـ لماذا لا تتكلّم؟ توافق الخيّاط إذن؟ وغدًا إذا جدّ الجدّ تقتله؟

ـ أقتل من؟

ـ والدك طبعًا.

ـ وما الداعي لقتله!؟

ـ وتلك العصابة؟

ـ أيّة عصابة؟

ـ ألم تقل إنّك انضممت إليها؟ وتتدرّب على استعمال الخنجر؟

ـ ولكنّك تخرّف. . اسمع. . لا أريدك أن تتدخّل بهذا الأمر. . الخيّاط لا يؤذي أحدًا. . علّمني الموسيقى. . هل تعليم الموسيقى جرم؟

ـ هه، هه، هه. . علّمك الموسيقى؟ هذا التيس، وماذا تعلّمت منها؟ هل تعزف بشرف «تاطروس»؟

ـ أنا لا أعزف بشارف. .

ـ وماذا إذن؟

ـ لا شيء.

ـ أخذ مالك ولم يعلّمك العزف، المحتال.. لسوف يؤدّبه والدك.. سأقول له كل شيء.. سأجعله يؤدّبه حتى يقلع عن أفعاله الدنيئة..

ـ وما هي أفعاله الدنيئة، ولماذا تحقد عليه؟

ـ لأنَّه لا يترك الحيّ بسلام.. يثير الشغب في المدينة، ويغوي أمثالك من الشبّان.

ـ لا يغوي أحدًا..

ـ وشريكته؟ القوّادة التي في القبو؟ تحسبني لا أعرف ما يجري حولي؟

ـ لسوف أقول لها ذلك.. سأخبرها أنّك تعرّضت لها وشتمتها.

ـ وتحسبني أخاف؟ أنت لن تقول لها، وأنا لا أخاف..

ـ بل سأقول لها.. وستأتي إلى هنا.. انتظر!

هرش برأسه، وابتلع ريقه، ثم خطا نحوي ووضع كفّيه على كتفي..

ـ أنت لن تقول لها.. وإذا فعلت.. اسمع.. تحسبني

أخاف؟ قل لها إذا شئت، ولكنّك ستندم، وخيّاطك، هذا اللّعين، سيدفع الثمن. . سأخبر عنه، وأفضحه.

كان تهديده سخيفًا ومضحكًا. وقد ارتبك، لمجرّد أن قلت له ذلك. كان لئيمًا وجبانًا، ومن النوع الذي يؤدّي خدمات مؤذية. ولكي يضمن عدم خروجي قبل تسوية الموقف، طفق يبتسم متودّدًا، ودعاني إلى الجلوس وشرب قدح من الشاي. شرع يقوم بحركات لا معنى لها، وقدّم، أخيرًا، هذا الاقتراح:

ـ لننس ما قلناه. . أنا لا أريد أن أقع في فم تلك الساقطة، اتفقنا؟

ـ لم نتّفق. .

ـ ولكنّك لا تفعلها. . أنت أكبر من ذلك. . وجدّك كان قنصلاتو. .

قلت في توكيد غايته التشفّي:

ـ بل سأفعلها. .

راق لي تعذيبه. أذناه الكبيرتان، المكوّرتان إلى أمام، وسنّه التي أحدثت فجوة في الواجهة الحنكيّة نفّرتني. كانت صلعته الكبيرة، فوق وجهه الأبرش المفلطح تعطيه شبهًا بحيوان بحري هلامي. ذكرت به «الميدوزة»[1] التي تقتلعها

---

(١) Méduse قنديل البحر.

الأمواج الجوفيّة وتحملها إلى الشاطئ في المياه العكرة. أحسست أنّه مثلها رخو ودبق، يعلق على الأجسام أو يمسّها فيثير اشمئزاز أصحابها. ولقد رأيت «الميدوزة» مقذوفة كنفاية على الرمال، فأنفت أن أدوسها. بعض المخلوقات لا تُقتل، فهي مقزّزة كالبقّة، ومع رغبتي في العراك لأنفض عن صدري بعض ضيقه، تقزّزت منه ورغبت عن شتمه أو إهانته. وبعكس ما أراد، أثار في نفسي تقديرًا للخيّاط والمرأة وحنينًا إليهما، وقلت له وأنا أهمّ بالخروج:

ـ أنا ذاهب إلى الخيّاط، وسأقول له إنّك تتهمه بتأليف عصابة للقتل، وأنّ تلك المرأة قوّادة، وأنّك ستشي بهما إلى والدي والسلطة...

ضرب على رأسه، بشكل مسرحيّ ومفاجئ، وهرول ورائي وهو يتوسّل:

ـ أرجوك، أقبّل يديك، انس ما قلته.. ليذهب التّيس إلى الجحيم.. ليفعل ما يريد.. لن أتدخّل في شؤونه بعد اليوم.. كرامة لله...

ولحقني إلى خارج الدكّان وهو يصيح:

ـ كرامة لله، لا تقل لهما شيئًا عن لساني.. كرامة لله، يا ولدي..

وبحركة ذليلة، انحنى ليقبّل يدي، فلمّا سحبتها منه

ومضيت، انكفأ إلى دكّانه وهو يضرب بكفّيه على رأسه، وقال من بعيد:

ـ إذا لم تقل شيئًا علّمتك بشرف «تاطروس»..

وأضاف: ـ بشرف «تاطروس» وفوقه «تحميلة».

ولمّا يئس من إغرائي أرسل هذه الاستغاثة:

ـ برحمة جدّك القنصلاتو..

ولمّا لم أجب بشيء، عاد يصرخ:

ـ برحمة جدّك القنصلاتو.

وفار غضبي فجأة فالتفتُّ إليه وصحت بصوت عالٍ:

ـ اللَّعنة عليك وعلى جدّي القنصلاتو!

وكرّرت وأنا أشعر بارتياح عجيب:

ـ اللّعنة عليك وعلى جدّي القنصلاتو!

ثمّ توقّفت، وقلت بصوت أعلى:

ـ اللّعنة عليك وعلى جدّي القنصلاتو... أتسمعني؟

فناح من مكانه على الباب:

ـ اسمع، تمون. ابن بك وَأكبر.. الله يديم عزّه.

وقلت في نفسي:

ـ لسوف يدوم عزّه مادام أمثالك. .

وأضفت في حقد شديد:

ـ اللّعنة على أمثالك!

هبط اللّيل رفيقًا أسوانًا. نشط من شاطئ البحر هبوب النسمات المنعشة، وفي القبّة البلّوريّة اشتعلت قناديل صغيرة. وإذ فكّرت في حالتي النفسيّة الكئيبة وجدت أنّني مريض لسبب خاص، أعمق من كل الأسباب الأخرى. كان وَجدٌ داخلي يلوب ساغبًا في أحشائي، ودودة ماسوشيَّة تقرض نبتة الفرح وتسلّمني إلى الحزن. وفي مراجعة للذات، كما أمام محلّل نفساني، توصّلت إلى يقين بأنَّ ما بي لن يشفيه البقاء ولا السفر، وأنّني عاشق من رأسي إلى أخمص قدميّ، وأنَّ التي أعشقها في دمي، وستبقى معي وتسافر معي، وأنَّ الوصول إليها لن يكون بالفرار منها، وأنَّ ما أعتزمه، هذا الأصيل، سيجعلني هزأة أمام أصحابي ونفسي.

لماذا نهرب من الواقع حين يصبح قدرًا لنا؟ أنا لست بهلوانًا أسير على حبل مشدود، حافظًا، بتوتّر باهظ الجهد، التوازن الّذي لا يمكن الحفاظ عليه. البهلوان نفسه مضطر إلى النزول إلى الأرض. يملّ لعبته ويسأم حياته. . تخونه أعصابه في النهاية. فوق ذلك هو بهلوان، وبأيّة حال لا أرغب أن أكونه. ما يلزمني هو الحزم، الموافقة أو المناقضة

لأفكار أسرتي. إقامة الصلة مع الخيّاط أو قطعها. فعل الجنس مع تلك المرأة أو الانقطاع عن زيارتها. الاعتراف بأنّني عاشق، والبحث عن معشوقتي التي هي إضمار أسطوري سيتجلّى كيانًا إنسانيًّا إذا ناديته من أعماقي، وقرعت بابه بقبضتي، ورقصت له كالفتى في المعبد، أو عزفت له كضابط الإيقاع أمام التمثال الحجري.

«أن نلعن الشرّ ـ قال الخيّاط ـ فهذا فضيلة عاجزة. لنفعل الخير ولندع الشرّ يلعننا. لنفعل ما نعتقد أنَّه حقّ، ولنخسر، بسببه، سمعتنا الحسنة... مصيبة الناس ـ يا ولدي ـ أنَّهم يخافون على سمعتهم الحسنة، ومن أجل ذلك يصبح حسن السمعة رسنًا مزوّقًا في رقاب حمير تلبس ثياب بني آدم. إنّنا نحن، الفقراء والأشراف والطيّبين من جميع الأصناف، نخاف على السمعة الحسنة، على هذا الرسن الذي صنعه الأقوياء والأشرار من جميع الأصناف، وأعطوه لنا لنضعه في رقابنا ونتمسّك به مزهوِّين. القيد ليس من حديد فقط. السمعة الحسنة قيد أيضًا. ترجمتها الطاعة. التسليم بالواقع، بالظلم، بالجوع حتى تهبط لك من السماء سلّة فيها طعام. السماء ليس فيها سلل طعام. ليس فيها مقصّات لقصّ الأغلال.. السمعة الحسنة غلّ.. أنا رفضت السمعة الحسنة. لا أحتاجها ولا أتعامل معها. أنا أصنع السمعة الحسنة. انتصر في معركة، يبرّر لك النصر سمعتك. اخسر

معركة، تسلبك الهزيمة كل سمعتك. ارقص يا بني ارقص. اضرب الأرض، أيقظها، ابنة الكلبة هذه، أيقظها».

قرّرت العودة إلى الخيّاط. عنده فقط يتبدّد الغيم المرين على روحي. سماء الخيّاط لا تغيم، تغيم وتظلّ الشمس فيها. وراء الغيم شمس، وأبدًا يبحث الخيّاط عن هذه الشمس. ليس وحده الذي يبحث، ضابط الإيقاع والفتاة، والمرأة وأنا نبحث، كلّنا نبحث، وكلٌّ منّا بطريقته يبحث.

طلبت ضابط الإيقاع فما وجدته. كان صانع لا أعرفه في الدكّان. قال لي وأنا أستند بكوعي إلى طاولة التفصيل:

ـ لقد جُنّ..

ـ كيف؟ (سألت مندهشًا) ومتى حدث ذلك؟

ـ في الأسبوع الماضي.. كان يجلس هادئًا، صموتًا، ناحلاً،.. يا الله يا سيّدي كم نحل في الشهر الأخير. كان ينذرنا، أحيانًا، بأنّه سيعود إلى مهنته. يكلّم نفسه بصوت عالٍ: «لقد خنتها» ونسأله: «من التي خنتها؟» فيدفع الإبرة في القماش بحركة اعتباطيّة، وينسلها بالطريقة نفسها، ويكزّ على أسنانه، ونرى الدم ينزّ من أصابعه.. ونعلم أنَّه لا يعي ما يفعل.. وندخل معه في عراك لكي نحمله على التوقّف، على الرّاحة، على النوم، على الأكل.. وإذ نفشل نستنجد بالخيّاط، فيأتي ويجلس قربه. يرنو إليه بحسرة وحنان،

ويترفّق به، ويبتسم له، ويقول له بضع كلمات، وينجح في انتزاع القماش من بين يديه، ثم يذهبان معًا. . يوصله إلى البيت ويعود. .

ـ وماذا يقول لكم حين يعود؟

ـ من؟ الخيّاط؟ لا يقول شيئًا. يبدو قلقًا هذه الأيّام. . أوقفوه عدّة أيّام. تحرّوا بيته، وكذلك الدكّان. يتّهمونه بتحريض الناس على الحكومة. . قالوا إنَّه يرأس عصابة. . وإنَّه يثير الفقراء على الأغنياء. . وإنَّ تعليم الموسيقى، في بيته، ليس إلاَّ ستارة. . وقد ضربوه. . آه يا سيّدي كم ضربوه! هل زرته بعد خروجه من السجن؟ كان وجهه أزرق، مكدّمًا، وعيونه محجوبة بورم محتقن، وجسده مشوّهًا. . كان كتلة متداخلة، معجونة من كثرة التعذيب.

ـ وضابط الإيقاع؟ من يعتني به في غياب الخيّاط؟ هل له أهل؟

ـ أنا لا أعرف شيئًا. . يقال إنَّه وحيد. . مرّة واحدة ذهبت إليه. طلب الخيّاط منّي أن أرافقه لأستدلّ على البيت. وقال لي: «تفقّده في غيابي، إنَّه زميل طيّب، وعازف ماهر. لقد أوقفوه في الماضي. . . عذّبوه أيضًا، وهدّدوه بقطع أصابعه. . جاؤوا بساطور لحّام، وبخشبة كالتي يفرمون عليها اللحم، وأرغموه على مدّ كفّيه فوقها، ورفعوا الساطور

وعدّوا إلى العشرة.. في السابعة أغمي عليه.. أصيب برجّة.. انتهى المسكين. صارت له عقدة خوف على أصابعه..» هذا ما قاله الخيّاط.

ـ رهيب! هل أنت متأكّد؟ الخيّاط لم يقل لي شيئًا.

ـ هذا ما قاله لي.. لقد جُنّ ضابط الإيقاع، فهل تعرفه يا سيّدي؟

ـ أعرفه.. لقد تحدّثنا هنا، وكان هادئًا ولطيفًا.

ـ يقال إنَّه عزف لك مرّة؟

ـ نعم..

ـ وإنّك، في تلك المرّة، غرزت الخنجر في ركبتك..

ـ نعم..

ـ وإنَّ والدك هو الذي أوقع بالخيّاط...

ـ والدي؟!

ـ ألا تدري إذن؟

ـ ومن قال هذا؟

ـ لماذا؟ يكفي ما جرى.. اذهب يا سيّدي، لا تحمل إلينا نكبة جديدة.

«أنا أحمل نكبة جديدة. أنا ابن عائلة تحمل للنّاس نكبات جديدة؟ ولماذا؟ ما ذنب الخيّاط وضابط الإيقاع؟ وأين هو ضابط الإيقاع؟»

سألته:

ـ أين هو الآن؟ أريد أن أراه.. أتعرف بيته؟

ـ لم يعد في بيته.. بقي فيه زمنًا.. انقطع عن الكلام والطعام. كان يعزف.. يعزف من الصباح إلى المساء.. يعزف ليلاً ونهارًا.. ويحدّق في الفضاء.. كان يحدّق في شيء لا نراه.. ويتباطأ عزفه ويتسارع، كأنَّ شخصًا يرقص أمامه.. فإذا أنهكه السهر والتعب أدخل كفّيه في عبّه، خبّأهما هناك، بغتة، وصاح بصوت كالنشيج: «لا تقطعوا أصابعي.. لا تقطعوا أصابعي!»

ـ ألا تدري أين ذهب؟

ـ لا.. الخيّاط ربما.. وتلك المرأة، التي في القبو.. هي التي كانت تحمل إليه الطعام، وهي التي ساعدت الخيّاط.. يقال إنّك تعرفها.. أنا لا أعني شيئًا.. أنا صانع في الدكّان.. ولكنّي أحبّ الخيّاط، وأحترم تلك المرأة. لتكن ما تكون.. أنا أحترمها.. أفضل من زوجته نفسها. كانت، أيّام المحنة، أفضل من زوجته نفسها، يا لها من شجاعة!

العينان السوداوان، والقميص الداخلي اللّيلكي، ونحن، الاثنين، على الحصير، وقالت لي «حين هوى الخنجر على ركبتك ومزّقها قبضت على معصمك واستخلصت الخنجر.. أحسست بالذنب وبالفرح.. علمت، منذ تلك اللحظة، أنّني

صرت لك، وعلى سريري أعطيك نفسي، لفتاي أعطي نفسي». . يا سيّدتي، يا سيّدة القبو، أيّتها المرجومة بأيدي الكفرة، لا تعطيني نفسك. أنا لا أستحقّها. حين أدخل المطهر، وأخرج نقيًّا، أستحقّها، أمّا الآن فلا أستحقّها. . لست شجاعًا كالخيّاط، ولا مجنونًا كضارب الإيقاع، ولا مخلصًا كعازفة البيان، ولا متحدِّيًا هذا الكون مثلك. . قد أصير يومًا، ولكنّي، الآن، لست كذلك، أعطي نفسك للخيّاط. دعيه على سريرك الأبيض يلقي بجسمه المتعب. خذيه إليك، هذه الفضيلة التي تنشد الفضيلة، هذه الأداة النبيلة لقضيّة نبيلة، واغمريه بالقبل، وبالمتع، فقد دفع الثمن، كان شجاعًا ودفع الثمن، ومرّات واجه الموت، كان قادرًا، ولا يزال، على مواجهة الموت. إنّنا نفتقر، يا سيّدتي، إلى الذين يواجهون الموت، نحن نخاف الموت وعلينا أن نتعلّم ألاّ نخاف الموت، وعندما ننجح يكون لنا، كما للآخرين، حقّ ووجود، وسرير أبيض، وامرأة شجاعة تنام معنا على السرير الأبيض.

هل احتقرتم يومًا أنفسكم مثلي؟ وقع لكم، في الماضي أو الحاضر، أن رأيتم الحقّ والباطل، وميّزتم بينهما، ثم وقفتم عاجزين حيالهما؟ والدي قاتل، متعاون مع المحتلّ، عينٌ له، كرباجٌ في يده، وأنا ابنه أعرف هذا، وأقف حائرًا، متردّدًا، عاجزًا، فماذا تسمّونني؟ جبان؟ حسنًا، هذه هي

الكلمة. جبان بكل المعنى المذلّ والفاجع للتسمية. كان عليّ أن أقتل والدي أو أقتل نفسي، ولأنَّ الأخلاق والأعراف وكل المواضعات الغبيّة، تمنعني من قتله، لم يبق إلاَّ أن أقتل نفسي، أن أحكم عليها وأُنفِّذ الحكم فيها.

حثثت الخطى عائدًا إلى البيت. الظلام غير كثيف. وبعض المصابيح الواهنة تنير الشوارع، وفوق الأرصفة، لصق الجدران، بعيدًا عن المارّة، سرت منسلاًّ كأنّي مطارد. تجنّبت أن أرى من يعرفني، من يوقفني، من يتحدّث معي. لن أكتب رسالة، ولن أقول كلمة. انتهت الكلمات، سخيفة الكلمات. كل ما أبغيه أن أصل قبل والدي، أن أسبق عودته من الكازينو، حيث يستمتع بالشراب والتانغو، ويفاخر بأمجاده وأملاكه، ويستعيد ذكريات جدّي القنصلاتو، ويسترخي مطمئنًّا إلى أنَّ كل شيء يجري كما يريده أن يجري.

تحت الفراش، على سريري، وضعت الخنجر الذي حملته المرأة إليّ. أنا أعرف، الآن، لماذا حملته إليّ. وضعت في يدي السلاح الذي يجب أن أستعمله. قالت «أنت فتى» وطلبت منّي العلامة. أعطيتها العلامة؟ لو أعطيتها إيّاها ما طلبتها، ما حملت الخنجر وتلقّت الإهانة. لا، العلامة أن أقتل الخيانة، المطلوب قتل الخيانة، المطلوب قتل الخيانة.

لم أجد أحدًا في البيت. فتحت لي الخادم، وتنحّت عن طريقي. دخلت كالإعصار، ولم ألق تحيّة المساء. كنت في سباق بين الوجود والعدم، وكل تأخّر سيفسد خطّتي. لقد اعتزمت أمرًا ولن أتراجع. إنّ ما أفعله هو عكس ما يجب أن أفعله، وإذ كنت عاجزًا عن قتل والدي، فلن أكون عاجزًا عن قتل نفسي، وفي هذا راحة، واحتجاج، وتعبير عن الاحتقار، وإدانة.

أوصدت الباب ورائي. لهاثي المرتفع أزعجني. لا أريد أن أكون مضطربًا، ولا أقوى على نفي اضطرابي. تمنّيت لو كانت الحياة والموت مرتبطين بزرّين كما النور والظلمة في الكهرباء. لقد ضغط إنسان ما زرّ الحياة فأتينا، وسيضغط مجهول زرّ الموت فنمضي. أين فعل الإرادة في هذه المهزلة؟ أنا من سيضغط الزرّ الأخير، وفقط لو كان موجودًا، لو كان سهلاً، وسريعًا كما زرّ الكهرباء المثبت على هذا الجدار. المسدّس بديل جيّد. فوهته في الصدغ، وضغطة سريعة على الزناد. . أين يضع والدي مسدّسه؟ لا . . البحث عنه يكلّف وقتًا، لديّ الخنجر وهو كافٍ. سيكون مؤلمًا. هل أجبن فأتراجع والنصل ينغرز في اللّحم؟ كل شيء يتوقّف على إحكام الطعنة. في القلب تمامًا. أحدّد مكانها أوّلاً . . بالخنجر أحدّد مكانها.

أرسلت يدي تحت الفراش. باردًا كان تحت الفراش. طراوة، ويدي تتغلغل في الطراوة. إلى أمام، إلى يمين، إلى

يسار.. قلبت الفراش.. أيكون سقط من الفراش؟ انحنيت أبحث تحت السّرير. فتحت الكومودينة. بعثرت محتويات الخزانة ولم أعثر على الخنجر. والدي أخفاه. لاحظ حالتي النفسيّة ولا شكّ. حدس أنَّ ذلك قد يقع. احتاط له. هو لا يريد أن يفقدني. سيروّضني أوّلاً، ثم يُعدّني الإعداد الملائم كوريث للجدّ القنصلاتو والأب الملاّك. أيّ ألم سيرافقه مدى الحياة، حين لا يبقى له وريث، ينجب بدوره وريثًا، تنتقل إليه الأملاك بالتوارث، فتظلّ في قبضة الأسرة إلى نهاية الدهر؟ لن يكون سهلاً عليه أن يهب أملاكه إلى الرحمن أو الشيطان. يريدها لنفسه، للنطفة التي كانت منه، ويعتبرها جزءًا مستمرًّا، متجزّئًا ومستمرًّا، من جيل إلى جيل، إلى نهاية العالم. للنطفة التي بها يحقّق استمراره هو، الملاّك، الذي لا يتصوّر، بأيّ شكل، خروج أملاكه عن دائرة نطفته المنتشرة في ذراريه من بعده. وأنا من سيقطع هذا التسلسل النطفي، هذا الامتداد الوراثي للملكيّة، وهو العقاب الوحيد، التكفير الوحيد الذي أستطيعه، وأريده.

واأسفاه! لم أجد في البيت أداة قاتلة. لا خنجر ولا مسدّس ولا مدية قاطعة. أعرف أنَّ السلاح موجود، ولكنّه مخبّأً. سيضعه والدي في يدي حين يستوثق من الاتجاه الذي أستخدمه فيه. ليس المكر وحده، ولا القسوة وحدها، الحذر أيضًا. والدي ابن نجيب لجدّي. وريث فعلي للأملاك والأفكار وطرق المحافظة عليها.

تعالى دقّ على الباب، وسمعت الخادم تفتح وتردّ على الزائر بأنّي موجود. غبيّة خادمنا، وهذه هي الميزة التي سمحت لها بالاستمرار في خدمتنا. لعلّها لم تلحظ هيئتي. هي لا تلحظ هيئاتنا، فقد أرغموها، هنا، على مخاطبتنا وعيناها في الأرض. إنَّ رهبة السيادة قانون، وممارستها من قبل الفلاّحين والخدم والفقراء يبعث على السعادة، على لذّة متمّمة، ومن أجل هذا لم يغفروا لتلك المرأة جرأتها. أرادوا إهانتها. ورفضت. لا تزال على رفضها. لا تريد المصالحة. من قال إنَّ الصلح سيّد الأحكام؟ لا تصالحي يا عزيزتي، يا ذات العينين السوداوين، لا تصالحي. «القلعة» لا تصالح «الكوخ»، والذئب لا يصادق الخروف. غبيّة خادمنا، وها هي، تطرق عليّ الباب: لقد فشلت الخطّة!

لم أفتح. تعالى الطرق ثانية. لم أفتح. من هو هذا الزائر اللّعين؟ ولماذا تصرّ الخادم على إخراجي إليه! لسوف أطرده، وأقول للخادم أنت غبيّة. زاد فشلي في هياج أعصابي، فاندفعت إلى الباب وأنا أصرخ بالخادم:

ـ اذهبي إلى الشيطان! لماذا قلت إنّني في البيت، لماذا؟

امتقع الزائر وهو يسمع صراخي. كان الزائر ابنة عمّي وقد تسمّرت على العتبة. حاولت الابتسام. صحت بها: «أنتِ؟» ودعوتها للدخول. لاحظت نضارتها. كانت كأنّها اغتسلت لتوّها. وفي يدها قرنفلة حمراء، وقد هبطت من سياحتها بين

السحب، ولا تزال، كما كانت فوقها، خفيفة، لطيفة، كفراشة ترفّ فوق أزهار حقل في صبيحة ربيعيّة، متمتعة بسعادة عاشقة أدركت، بعد شكّ طويل، أنّها معشوقة أيضًا. ولكنّ المفاجأة أذهلتها، ومرّت فترة قبل أن تستعيد الحالة النفسيّة التي جاءت بها.

ما فكّرت لماذا جاءت. انتهت صلاتها الابتهاليّة للربّ العزيز الذي خلق النعمة الكبرى: الحبّ! وحين ينتهي الابتهال يظلّ الوجد الذي بعثه مزهرًا، ناشدًا التحقّق بالارتواء. وَجْدُ ابنة عمّي دفعها إليّ. تُراها حدست أنّني في البيت، وحيد، شقيّ، يناديه المجهول وتعذّبه التلبية؟ تُراها فكّرت بي، أم بنفسها، أم جاءت لأنَّه كان لا بدّ أن تجيء؟

وقفنا متقابليْن. أعرف ما بها وتجهل ما بي. لقد منحتها «الحكمة» في ساعة إشفاق عابرة. طبيب أعطى مريضه زرقة مورفين. انتهى مفعول المورفين وعاد المريض يصرخ طالبًا زرقة أخرى. الطبيب لا يستطيع، والمريض لا يريد أن يفهم عدم الاستطاعة. ألم بدون لذّة، ألم تعقبه لذّة، صارت اللذّة دواء للألم. صار الدواء معروفًا، صار مطلوبًا، صرت مطالبًا، وعلى شفتي صيدليّتي، والمريضة أمامي تنتظر: «أعطني دوائي!».

أفهم قيمة هذا الطلب. أنا أسحبه على مجهول. «أعطني دوائي» أقول للمضمر في الآتي، للقادم على سفينة

المستقبل، لصاحبة الابتسامة، للتي في الصورة وستخرج من الصورة، للمحمولة على رياح ما هبّت بعد، ولكنّها، في رعشة شوقي، توقّع مبهم، يقابله، على الطرف الآخر، في بيت ما، في مدينة ما، في بلد ما، توقّع مبهم، والرِّيح المباركة، المستترة، تحملني إليه، وتحمله إليّ، ليكون اللقاء الذي ما زال وعدًا لإحساس حدسي غريب.

أعطيها الدواء؟ كم مرّة يجب أن أعطيها الدواء؟ أكون لها إذن؟ أحبّها؟ أبادلها الحبّ؟ وعندما لا يكون الحبّ؟ أتصدّق به؟ الحبّ ليس صدقة! الحبّ ليس صدقة! كان عليّ أن أقول لها ذلك، وكان عليها أن تعرفه. أعطني دوائي! وأنا أقول: أعطيني دوائي. تقولينه لي، وأقوله لسواك. مريضة أنت، ومريض أنا. آه يا ابنة عمِّي، يا صغيرتي، مريضة أنت ومريض أنا.. ولو كنت لك بالحبّ لا بالصدقة، ولو كانت صاحبة الابتسامة لي وجودًا لا وهمًا، ما كان المرض، ولمضينا كلانا، في عزم نحو غاياتنا.

قالت ابنة عمِّي:

ـ ما بك؟ حزين أنت؟

هززت كتفي. «أكثر من الحزن يا صغيرة. لو وجدت الأداة لتمّ التنفيذ. لتحرّرنا نحن الاثنين. اقتليني، حرّريني وتحرّري بي.. تنسينني. تحزنين عليّ وتنسينني. اقتليني! اقتليني!».

ـ ماذا تفعل وحيدًا في البيت؟

ـ . . .

ـ لماذا لا تزورنا؟

ـ . . .

ـ هل تؤلمك ركبتك؟

ـ قليلاً!

ـ الأفضل أن تنام . .

ـ الأفضل أن أخرج . .

ـ تذهب إلى الكازينو؟

ـ وماذا في الكازينو . . ؟

وأضفت:

ـ أرقص التانغو!؟

ـ لا يهمّ . . تتسلّى . .

صمتت. انتظرتْ أن أقول لها شيئًا. أن أدعوها للسير معي. جالت في رأسها فكرة. خافت أن أرفض الفكرة. تردّدت . . توسّلت بغير رجاء!

ـ تأتي معي لأعزف لك قليلاً؟

كدت أضحك. قليل من الموسيقى قبل الموت، اقتراح جيّد. تحسبني حزينًا لأنّ ركبتي تؤلمني، لأنّ الطقس غائم، أو لأنّني كنت أقرأ كتابًا تراجيديًّا. قليل من الموسيقى وتأتي

البهجة، أتصالح مع الأشياء، كما لو أنّني طفل يبكي، وسيضحك من خلل الدموع، ما إن توضع بين يديه دمية، أو يأتي أحدهم أمامه بحركة مضحكة. عالم ابنة عمّي لا يتّسع الآن لأكثر من هذه الرؤى. طفلة كبيرة، عاشقة، مفتونة بالموسيقى، وخارجة عن دائرة الهموم، لم تصبح كتلك السيّدة، عشيقة وكيلها. لم تصر الأملاك إليها، ولم تنعكس مفاهيمها عليها. مازالت إنسانة، ومازال تفكيرها بريئًا، موسيقيًّا، وكل شيء، بالنسبة إليها، سيكون حسنًا، سعيدًا لو وافقت على الذهاب معها، نتنزّه، نسمع الموسيقى، أو نضع الكفّ في الكفّ، ونسير، ونثرثر.

ـ ما رأيك؟ كرّرتِ السؤال بإلحاح.

ـ لنذهب..

أقفلت باب غرفتي كي لا يروا ما أحدثت فيها من تشويش. قد لا أعود الليلة. لسوف أذهب إلى تلك المرأة وأنام على الحصير. سأتيح لها أن تنتقم لنفسها. وسآخذ الفتاة بين ذراعيَّ وأقبّلها، وغدًا أذهب إلى الخيّاط، وللمرّة الأخيرة أرقص بالخنجر. سيكون ذلك رائعًا.. أموت وأنا أدقّ الأرض، وأنا أطعن التنّين، مثل ذلك الفلاّح، في قريتنا، أطعن التنّين.

ـ هل رأيت، يا ابنة عمّي، التنّين؟

ـ في الصورة؟

ـ في الواقع.

ـ لا.. ولا أرغب أن أراه..

ـ أنا رأيته..

ـ أين؟ وكيف يكون؟ ألم تخف منه؟

ـ رأيته في بيتنا..

توقّفَتْ ونظرتْ إليّ. راودها الشكّ، سألت:

ـ وكيف دخل؟

ـ لا أدري.. رأيته في البيت.. هو موجود في البيت.

ـ تقصد الأفعى التي تسكن البيوت.

ـ لا، أقصد التنّين، برؤوسه السبعة، كما في الصورة.

ـ أنت تمزح لتخيفني.. لتمنعني من زيارتكم.. يا إلَهي، لا أصدّق أنّ التنّين يعيش في بيتكم.

ـ وفي بيتكم أيضًا:

ـ ولكنّي لم أره. مرّة واحدة لم أره..

ـ هذا بسبب النظارات.

قلتها بغير قصد، فانكمشت ابنة عمّي. أطرقت، وسكتت، فندمت على زلّة لساني، وأردفت موضحًا:

ـ التنّين موجود في كلّ مكان.. والصغار، أمثالك، لا يرونه..

ـ وكيف رأيته أنت؟

ـ لأنّي لم أعد صغيرًا . .

ـ وقتلته؟

ـ لم أقتله . .

ـ وماذا ستفعل . . ؟

أقول لها سأقتل نفسي؟ أعترف بهزيمتي؟ أهزم قبل أن أقاتل؟ أخون فتوّتي؟ في الصبا وقفت ضدّ الدّيك الذي هرب قبل العراك. باركت الذي عارك وانكسر. لعنت الذي فرّ قبل العراك. أمرت بذبحه. واليوم آمر يذبح نفسي. معنى هذا أنّني، في اللاوعي، أدركت فراري، واستسلمت له، وحكمت بالنتائج المترتّبة عليه. مهزوم أنا. عدم المجابهة، بحجّة الأبوّة والبنوّة، تعلّة سخيفة. لو كان والدي، على الطرف الآخر، وبيننا إطلاق نار، لأطلق عليّ النار. الرحمة، في معاملة العدو، ضعف. وكيل السيّدة، توصل إلى الحقيقة وطبّقها. قتل الفلاّح وضاجع السيّدة. لم يرحم عدوّه، وعدوّه ما كان ليرحمه. أنا أرحم التنّين. لم أصبح عدوًّا للتنّين. . أنا تنّين صغير . .

قالت ابنة عمّي:

ـ أهلي يقولون إنَّ التنّين مات . .

ـ لا تصدّقي أهلك . .

ـ ولكنّهم أهلي. .

ـ أهلك يكذبون، وكذلك أهلي. .

ـ لا تقل هذا، لا يجوز، أهلنا لا يكذبون.

ـ بل يكذبون.

ـ يا إلٰهي! أنت لا تحبّهم.

ـ نعم لا أحبّهم.

ـ هذه خطيئة. .

ـ أنا خاطئ!

كنّا نمضي الهوينا، واسترخاء مفاجئ قد حلّ محلّ التوتّر، وإحساس بالرفض وبالعداء، ورغبة في أن أتخطّى حدود المدينة، وأستبطن الليل وأذوب سائلاً فيه، تتملّكني. وفي اللحظة التي أستشعر ضرورة وجود ابنة عمّي إلى جانبي، وطيبتها التي تمسح على جراحي، أستشعر حالة من التفتّت في أعصابي والضيق في روحي، إلى درجة الصراخ في وجهها: «دعيني! لا تعودي إليّ، لا تأملي بي، أنا أشفق عليك ولكنّي لا أحبّك». وقد لاحظت هي أنّ شيئًا يضايقني، وأنّني أسير معها، بقربها، ولٰكنّني بعيد عنها، وأنَّ قولتي «أنا خاطئ» تعبير عن سخط، عن ملل، عن عذاب، فأمسكتني من ذراعي، وقالت قلقة، خائفة عليّ:

ـ لماذا تقول هذا؟ أنت طيّب، فلماذا تقول هذا؟

وكرّرت بما يشبه الهمس:

ـ أنت طيّب، نعم أنت طيّب، فلماذا تقول هذا؟

من فوق قماش الكمّ، أحسست بشفتيها تقبّلان ذراعي، كطفلة أغضبت والدها وتريد مصالحته، تريد لثم يده فيأبى، فتتعلّق به وتلثم ذراعه. لقد توهّمت أنّني تعيس بسببها، وأتحمّل كيلا أنتهرها، كي أتقبّلها ولا أرفض النظر إلى عويناتها. حسبت، المسكينة، نفسها مذنبة، وأنّ تبرّمي بأهلها ناشئ عن كرهي لها، وانقلبت المشاعر السعيدة إلى شقيّة، عبّرت عنها بدموع ظنّت اللّيل يخفيها.

لفحني تيّار من الإشفاق عليها. بهذا التعبير عن شقائها شاركتني شقائي، بدت أضعف منّي فتقوّى بذلك ضعفي. بعثت العزاء في نفسي، وشدّتني فقرّبتني منها، وبلا إرادة، وجدت يدي على يديها الممسكتين بذراعي، وقلت ملاطفًا:

ـ حسنًا، صدّقيهم إذا أردت.. لقد مات التنّين كما قالوا!

ـ ولكنّك رأيته، وأنا أصدّقك، مع أنّني، في الصورة، رأيت التنّين يُطعن بالحربة، وفي المدرسة شرحت لنا الراهبة ذلك.

ـ نعم قُتل التنّين الكبير.. ولكنّ التنانين الصغيرة...

ـ أنت تخيفني.. تقول ذلك لتخيفني.

ـ لا أريدك أن تخافي..

ـ وأنت؟ ألم تخف؟

ـ خفت.. قبل أن تأتي كنت خائفًا.. كنت وحيدًا

وخائفًا، والآن تشجّعت.. هيّا.. لنذهب إلى البيت، وهناك اعزفي لي قليلاً، اعزفي كما كنت تفعلين اليوم، بعد الظهر، وسأكون مسرورًا. لقد سمعتك تعزفين. كنت مارًّا تحت الشرفة وسمعت العزف. صعدت وجلست على الدرج، ما هو اسم اللّحن؟

ـ لا اسم له.. ليس من النوتة.. عزفت لنفسي، كيفما اتفق..

ـ هيّا إذن.. اعزفي مرّة أخرى كيفما اتفق.. ألقي بنوتاتك العتيقة كجدّنا، كلها في السلّة..

ـ أرجوك.. لا تقل شيئًا عن جدّنا.. ونظرت إليّ عبر غلالة الظلمة وأضافت:

ـ هل يزعجك جدّنا؟

ـ كثيرًا..

ـ أنت لا تحبّ صور الأموات في البيت؟

ـ نعم.. والأجداد خاصّة!

ـ ولكنّهم أجدادنا..

هل أقول لها إن بليّتنا بأجدادنا؟ لا، إنّني راغب عن النقاش.. وربما كان الصمت، الآن، أفضل من الكلام.

اكتفيت بسحبها من ذراعها، وقلت وأنا أحثّ الخطى:

ـ هيّا يا عزيزتي، لنسرع إلى البيت.

- ١٨ -

أسرعنا، ابنة عمّي وأنا، في طريق العودة. كنت كظمآن يحثّ الخطى إلى الماء، ولشدّة انفعالي كنت قادرًا أن أبكي وأصلّي وأضحك وأرقص أيضًا. أسفت لأنّني لم أصطحبها إلى الخيّاط لتتعلّم معزوفة الخنجر. سوف أسجّل هذه المعزوفة يومًا، وفي غرفة مغلقة، في حديقة بين الزهور، على رمل الصحراء، في الظلمة، تحت ضوء القمر، حيثما شعرت بالحاجة إلى معانقة اللّذّة العنيفة أدير أسطوانتي وأرقص.

ابنة عمّي لا تعزف رقصة الخنجر، ابنة عمّي لا تعزف نوتاتها. قالت إنّها عزفت لنفسها، كيفما اتفق، أنا بحاجة إلى العزف كيفما اتفق، إلى ابتهالات من الروح، إلى بوح قلب معذّب، يمتصّه قلبي المعذّب. إنّ شيئًا ما يفور في داخلي، ولعلّ الموسيقى أن تطفئه، وتعيد إليّ هدوئي.

وقفت، كعادتي، إلى النافذة، بعد أن رجوت ابنة عمّي أن تعزف. قلت لها: «يا عزيزتي: لا أريد سوى أن أسمع.. هبي أنّني غير موجود، واعزفي لنفسك، كما كنت تفعلين هذا الأصيل».

جلست وهي تبذل أقصى جهدها لإرضائي. كانت تدرك حالتي، وتحاول إدخال السرور إلى نفسي، ومن أجل ذلك عزفت لي مقطوعات فرحة، ونثرت في الجوّ أنغامًا مهدهدة، كأمّ صغيرة تغنّي لطفلها، كراعٍ يتقدّم خرافه عند الغروب. ثمّ شرعت نداءاتها تتصاعد. أنّت الدعسات تحت أناملها متوسّلة، وطغى فجأة حزن على النغم، كأنّها تعزف لنفسها وتبكي في وحدتها. أحسّت، ربما، أنَّها أضاعتني، أو أنّها أصلاً لم تجدني، وها هي، من جديد، كالخيّاط والمرأة وضابط الإيقاع، تبحث وراء الغيم عن شمسها الموعودة.

«يا شمسنا الموعودة، يا شمسنا الموعودة، متى تشرقين إذن؟ وهذا الغيم، وهذا الضباب، رمل الصحراء الذي ارتفع مع إعصار الزمن، متى يغسله المطر؟ متى تحدث العاصفة ويغسلنا المطر؟».

من الشرفة، بقعة من السماء تبين. وسحب. أرغن، ومع الأرغن، كانت هي، وكمصلّية تركع أمام شمعة، وتنفصل عمّا حولها، وترتفع، وتسبح في الفضاء، وتغيب في الفضاء، ارتفعت وسبحت وغابت ابنة عمّي. نامت ابنة عمّي. حلمت أنّها تطير، طارت. بقيت وحيدًا، كما في جلستي على الدرج، وأمامي ذراعان يتحرّكان، وأنامل تتنقّل، وكتفان يهتزّان، في توافق انفعالي، كأنّها نسيت وجودي، أو عانقته، واندغمت فيه، وصارت معه كلاً واحدًا.

لسوف تبكي ابنة عمّي هذه اللّيلة. ستهبط من وهم التحليق بين الغيوم وترتطم بأرض البشر. ستطلبني فلا تجدني، كما أطلب صاحبة الابتسامة فلا أجدها، وليلة بعد ليلة، مثلي ومثل الآخرين، ستغزل أشواقها آمالاً معذّبة، وتتعلّم أن تسعد بآمالها المعذّبة، أو تنساها.

من الشرفة بقعة من السماء تبين. غيوم. لا نجوم. وريح غربيّة. ستمطر. سيأتي المطر. وستكون عاصفة. غابتنا العتيقة، ستمرّ بها العاصفة. هرمت غابتنا. وهرمت مدينتنا، وهرم كذلك بيتنا وأرضنا، ونفوسنا التي شاخت قبل الأوان.

ضجّت القاعة بضربة قرار من البيانو. دوّى النغم وحوّم. وفي أقصى السماء، انفجر رعد مخيف، وتدحرج فوقنا على السطح، وارتجّت النوافذ والجدران، وانهمر المطر.. وعلى الصفحة المقابلة، من وجه ابنة عمِّي، لاح شحوب متوتّر.

ـ ماذا يحدث؟ صاحت ويداها مبسوطتان على البيانو.

ـ مركبة إيليا تصعد إلى فوق.

ـ أنت لا تؤمن بإيليا الذي فوق.

ـ أؤمن بإيليا الذي تحت.

ـ هذه خطيئة.

لتكن (قلت وأنا أنهض) لتكن خطيئة، أحبّ الخطايا..

فتحت النافذة فاندفعت منها الرِّيح والمطر. تنفّست عميقًا

وأنا أستقبل الرِّيح والمطر، فتصاعدت وتشهّت اهتياجاتي. كنت تحت وطأة انفعال محموم لا ينفع معه جهد ابنة عمّي لتهدئتي. وكمن يشرب خمرة للنسيان فتزيد ذكرياته حدّة، زادت الأنغام في تفجير أساي، وجاءت العاصفة بريحها ورعدها وبرقها لتصنع لي، في الفضاء الواسع، عرسًا جنّيًّا أرقص فيه رقصتي الأخيرة وأنتهي.

أحسست بارتعاش شوقي لا يقاوم. صرت كالمجنون الذي أدركته النوبة فاختلج لها، وبات عليه أن ينطلق هائمًا أو ينخطف في الصرع. ومن بعيد سمعت نداء يدعوني، نداء يقول لي: «تعال.. أسرع!» وخيّل إليّ أنّ تلبية النداء هي وحدها القادرة على جلب الراحة لنفسي. وفي أقصى الأفق، حيث يلتمع البرق، ذراعان تنتظرانني، وأنّهما ستمتدّان بين الغيوم وترفعانني، وأنَّ الغيوم ستحملني، وبمخمليّتها تلفّني.

ألقيت نظرة عبر الفضاء. كانت ظلمة وريح ومطر، واشتدّ، مع كل ثانية، شوقي إلى السفر في الظلمة والرِّيح والمطر، فقلت لابنة عمّي وأنا أهمّ بالخروج:

ـ وداعًا..

صاحت ابنة عمّي:

ـ إلى أين، وفي هذا المطر؟

قلت:

ـ سأتعمّد في المطر..

قالت:

ـ أنت مجنون، يا إلٰهي، وفي هذا الجوّ؟

نهضت عن البيانو لتقطع عليّ الطريق، ولكنّني سبقتها وفتحت الباب، وسمعت صوتها المذعور ورائي:

ـ لا تخرج، لا تخرج.. لا تتركني، أنا خائفة.. خا.. ئ..

تركتها..

هبطت الدرج مندفعًا، وركضت في الشارع، لا أدري. إلى أين. كانت الأسواق مقفلة، والمدينة مقفرة، والمياه تغمر الطرقات، والبحر يهدر، والرِّيح هوجاء، والمطر وأنا.. وأنا كنت أخبّ، غير مبال بشيء. ما كنت أحسّ بشيء، ولا أتوقّف لأتّقي شيئًا. ما همّني المطر الذي بلّل ثيابي، ولا الرِّيح التي بعثرت شعري. ركضت على طول الساحل، وراء النداء المجهول، وكلّما تقدّمت تلاشى، حتى انقطع، أخيرًا، ولم أعد أسمعه. لم ترفعني الرِّيح، ولا احتوتني الغيوم، ولا البرق أحرقني، وكل الصواعق التي أرسلتها سقطت في البحر ولم تمسّني.

رجعت أدراجي وقد أنهكني التعب. استندت إلى جدار على الشاطئ ورحت أحدّق في البحر، خائبًا كطفل أفلت منه عصفور في جبل، فراح يطارده من دغل إلى دغل، حتى تخدّشت يداه وتمزّقت ثيابه، ولم يحصل على شيء. أنا لم

أحصل على شيء. والبرق الذي كان، وأنا أركض إليه، ابتسامة فاتنة، غدا شررًا نيزكيًا، وهو يغوص، عند الأفق، في البحر. وفي هذه اللّحظة، أكثر من كل لحظات الأزمة، صار الموت مبرّرًا بالإخفاق الكامل، لكنّني في هذه اللّحظة، صرت بعيدًا عن فكرة الموت أكثر من كل ما سبق. شعرت باستسلام جسدي، ورغبة في عدم التفكير بشيء، وبالخوف من الجنون الذي عصف بي هذه الليلة، ومن البحر الهائج المزبد الذي بدا وحشًا يفغر فكّيه ليبتلعني.

عدت أتشبّث بالحياة. أرعبتني فكرة الفناء الذي كنت سائرًا إليه لو عثرت على الخنجر أو وجدت قطعة سلاح أو أداة قاتلة. واستعدت، كمن يفيق من كابوس، ما مرّ معي. شرع ندم مصنوع من يقظة الصحو يخجلني بسبب ضعفي أمام أوّل مواجهة للحياة... لم تخرج عن نطاق التصوّر لما يكون عليه حالي بدون حماية عائلتي.

لم ينقص كرهي لما تمثّله عائلتنا من معانٍ مخجلة في تعاونها مع الأعداء، وفي قسوتها على الفلاّحين وتآمرها مع السلطة للبطش بالآخرين، ولكنّي أقررت بحساسيّتي المفرطة حيال كل ذلك، عندما قارنت نفسي بأبناء الأسر التي هي مثل أسرتي، وأدركت أنَّ انفعالي بلغ درجة السوداويّة، إثر سماعي ما حلّ بضابط الإيقاع، وبسجن الخيّاط، وأنّ موتي، لو تمّ، لكان تهوّرًا، وأنَّ عليّ، برغم كلّ شيء، أن

أبقى وأستمرّ، كما قال الخيّاط، وأفعل ما أريده أنا لا ما يريده أهلي.

كان المطر، في هذه الليلة الخريفيّة، لا يزال... والعاصفة التي حدثت في غير أوانها تزمجر، حين مشيت مبهوظًا بالتعب والندم والأسف لما حدث. تراءت لي ابنة عمّي وهي تنهض مذعورة وتلحق بي على الدرج. لقد عبّرت بعفويّة، عن خوف حقيقي عليّ، خوف لا يصدر إلاَّ عن قلب محبّ تجاه حبيب مشرف على الهلاك. وقد عزَّاني موقفها هذا. ما أسعد الإنسان في محنته، إذا كان ثمّة قلب يشاركه هذه المحنة! إنَّ عرفان الجميل قد يترجم عن نفسه بالإعزاز، ولكنّ المعزّة غير المحبّة، ومن أسف أنّ ما كان لديّ، لابنة عمّي، هو المعزّة فقط، وكان حبّي، حبّي كله، لسواها، للتي خيّل إليّ أنَّها تناديني من الغيب، وفي ومض البرق شبّهت لي ابتسامتها الفاتنة. وأقرب إليّ من أمّي وأختي، كانت امرأة القبو في هذه الليلة، ومن عجب أنّني لم أذهب إليها، مع أنّي فكّرت فيها، واعتزمت النزول عند إرادتها.

عاودني الانفعال كرّة أخرى. كان انفعالاً مغايرًا الآن، انفعالاً للحياة لا للموت، فرحت أمشي مترنّحًا، مشوّقًا، حتى وصلت بابها، وطرقت عليه بعنف، بإصرار على أن تسمع وتفتح.

ـ من؟

جاءني صوتها من الداخل. وقلت متوسّلاً:

ـ أنا..

عرّفتها بنفسي، ففتحت الباب وهي تتمتم:

ـ ادخل، ادخل، كيف خرجت في مثل هذه الساعة؟

وقادتني إلى الداخل، إلى الغرفة القبويّة المستطيلة، حيث المصباح الغازي على طاولة في الزاوية، يرسل نورًا شاحبًا، والجدران العارية تعكس وحشة خرساء، والأثاث بفقره، والسرير ببياضه، كما تركته، لم يفتح ولم ينم عليه أحد.

خلعت عن كتفيها معطفًا ادّثرت به اتّقاء للمطر. كان قميصها مفتوحًا عند الصدر، بغير أكمام، وبفعل حركة ذراعيها، وهي تلقي بالمعطف على كرسي قريب، ارتجّ نهداها، وانشمر القميص عن أعلى الركبتين حين رفعت يديها لتسوّي شعرها. فتحت صندوقها فأخرجت منشفة، وجاءت إليّ، وكنت قرب الخوان، وجسّت ثيابي، وهتفت دهشة:

ـ يا ولدي، يا فتاي، بأيّ نهر غطست؟ ستمرض.. أنت إسفنجة وستمرض، ولا نار لديّ، ولا ثياب، كيف أفعل؟ اخلع ثيابك، دعني أساعدك في خلعها.. لماذا تقف هكذا جامدًا؟ ماذا جرى؟ تكلّم. لماذا جئت؟

فمها سأل، وقلبها أجاب. كانت تعرف لماذا جئت، وكانت سعيدة لأنّي جئت، ولعلّها كانت تحدس وتنتظر مجيئي. عيناي قالتا: «أن يأتي المرء مع العاصفة فلا يسأل،

بعد، لماذا أتى؟» وعيناها فهمتا. ما خابت فراستهما. «اذهب وستعود». . وها قد عدت.

ـ اخلع ثيابك. .

«وماذا بعد خلع الثياب؟ أنام على الحصير؟ أنا جئت لأنام على الحصير. كفّارة يا سيّدتي كفّارة. اخرجي ودعيني. لا تتأمّليني، حذار أن تتأمّليني، لا تتّهميني. بالعذاب تعمّدت، بالظلمة والرِّيح والمطر تعمّدت، وسأفعل ما أعرف أنّ عليّ أن أفعل، ولكن حذار أن تقولي افعل. . لم تبق بيننا مسافة، اليوم طويت المسافة، ولن يطلق أحدنا على الآخر، لأنَّه لم يبق بيننا واحد وآخر. لقد مات جدّي يا سيّدتي، اليوم مات جدّي يا سيّدتي».

ـ اخلع ثيابك. . .

لحظة صمت، وأضافت:

ـ اخلع نعليك أيضًا. . سأشعل النار في القبو، لديّ هناك بعض الأخشاب والكراسي العتيقة، وسأسخّن لك الماء، سأغسل قدميك بالماء. . وأطهو لك شيئًا حارًّا.

خلعت سترتي وألقيتها في العتبة. كان قميصي مبلّلاً فخلعته، وتردّدت قبل أن أنزع قميصي الداخلي. رجوت أن يكون جافًّا، ولكنّ المطر كان قد نفذ إليه، فأخرجته بهدوء من رأسي، وتوقّفت عاريًا من جذعي إلى فوق، وهي ترنو إليّ بعينيها السوداوين البرّاقتين، وطيف ابتسامة على شفتيها.

ـ ماذا دهاك؟ صاحت، هل أنت فتاة؟ هيّا. . سآخذ ثيابك فأعصرها وأنشّفها. . استدر لأجفّف لك شعرك وظهرك، انزع ما تبقّى، ثم ائتزر بهذا الشرشف.

قالتها وخطت إلى السرير. . إلى السرير ذي البياض الناصع، وسحبت الشرشف وناولتنيه، وشرعت، بيديها الاثنتين، تمسح ظهري بالمنشفة، تجفّفه، تمسّده، ثمّ، فجأة، اندفعت تقبّله، وأحاطتني بذراعيها وغمغمت:

ـ هذا أدفأ من النار، هذا أدفأ من النار. .

أوقفت خلع بقيّة ثيابي واستدرت إليها. . كانت أمامي بكلّ فتنتها، دافئة، شهيّة، شبه عارية. وقبل أن أقرّر ما أفعل، طوّقتني، من خاصرتي، ورمت برأسها على صدري، وصاحت:

ـ قليلاً وتشتعل النار، افعل كما أفعل، طوّقني. .

طوّقتها. كانت ليّنة فهصرتها. كانت حارّة، رخصة، وأليفة، وشعرها الأسود، انفرش كغطاء صوفي على صدري، وراحت شفتاها تزحفان نافثتي الدفء في ضلوعي، وتتصاعدان على جسر الرقبة، إلى الوجه، إلى الفكّين، باحثتين عن فمي، وغمغمت سكرى: «قبّلني».

قبّلتها! كان وجهها في هالة من الشعر الأسود، ثم تراخى كله. الشعر الأسود صار إطارًا، وفي الإطار وجه، وشفتان ترتعشان، شفتان محمومتان، وعينان وحشيّتان، تشعّان،

تبتهلان، تصرخان، وكفّها على القذال، وأصابعها تتخلّل القذال، تضغط على الشعر المبلّل فيه... ثم افترقنا. قالت ضاحكة:

ـ ابن مدرسة!

ـ والامتحان صعب..

ـ لا صعب ولا سهل.. بعض التمارين، وتأخذ في الامتحان علامة جيّدة..

ـ وهذا؟ أكان اختبارًا؟

قالت ضاحكة:

ـ هذا للتدفئة.. لتحريك الدم.. خذ..

ألقت بالمنشفة إليّ، وتدثّرت بالمعطف وخرجت، أكملت نزع ملابسي، وجفّفت يديَّ، ولففت جسمي بالشرشف، واقتربت من المرآة.. كان منظري كشبح أبيض في خربة مهجورة.

بعد ساعة أو يزيد، كنت قرب النّار، أتناول حساء حارًّا، وكان بخار يتصاعد من ملابسي وهي تجفّفها. ورأيت شيئًا يتحرّك في أحد تجاويف القبو ثم برز وانعكس عليه وهج النّار. كان هذا هو الحمار الأسود الذي أرعبني في زيارتي الأولى. وعلى مقربة من النّار كانت حصيرة، وفي الزاوية كوز ماء.. ولم يكن ثمّة مخلوق.. وتساءلت في ذاتي «أين

ذهبت الفتاة؟» لقد وعدتها بغرفة وخزانة وسرير، وسأشتري لها الخزانة والسرير، وأستأجر غرفة وأزورها في الغرفة. . نعم سأزورها في الغرفة.

استغرقني، فيما أنا ألقي بالأخشاب إلى النّار، التفكير بالفتاة، وبغتة سمعت صوتي يسأل:

ـ أين ذهبت الفتاة؟

ـ لا أدري. .

ـ كيف؟ أما أخبرتك؟

ـ ولماذا تخبرني؟ لست أمّها، ولا مسؤولة عنها.

وأمسكت عن طرح الأسئلة. وتحفّظت في إثارة ريبتها، وانصرفت إلى تكسير غصن يابس بين الأحطاب، فإذا بها تقترب وتسألني:

ـ يهمّك أمرها؟. .

ـ أحسّ بالشفقة عليها.

ـ أنت تكذب. .

هززت كتفي وقلت:

ـ أنا لا أكذب.

صاحت:

ـ بل أنت تكذب.

ـ دعيني، لا رغبة لي في المشاكسة.

ـ تخدع نفسك. .

ـ قلت لك لا رغبة لي في المشاكسة.

ـ جبان إذن.

حدّقت فيها مستثارًا بالإهانة غير المتوقعة وقلت:

ـ ألأنّي جئت؟

ـ لأنّك جبان.

ـ أنا لا أرغب في العراك. . فكّري بما تقولين. . كوني لطيفة. .

ـ لماذا لم تقبّلها إذن؟

ـ أقبّل من؟

ـ الفتاة التي تشفق عليها.

ـ ليست بحاجة إلى ذلك.

ـ ومن قال هذا؟

ـ أنا. .

ـ أنتَ أهنتها. . رشوتها لتبتلع الإهانة. . أعطيتها السلسلة الذهبيّة لتسكت عن إهانتك. . أنتم ماهرون في توجيه الإهانات. .

ـ وأنتِ ماهرة في توجيه التهم.

مدّت يدها فنزعت الشرشف عن كتفي بحركة غاضبة وقالت:

ـ اسمع، أنا لا أتّهمك. لا أملك هذه العقليّة. كن صريحًا وقل إنَّك خفت منها، خفت عدواها، حسبتها مسلولة، وهي، المسكينة، تعاني من هذا الظنّ، من نذالة النّاس، من نظرتهم الخائفة إليها بسبب هزالها.

قلت حانقًا:

ـ وأنتِ؟ ألم تعاني من احتقارك لها؟ كوني صريحة أيضًا.. تكلّمي، ألم ترغميها على النوم عارية على حصير قذر.. ألم تكوني قاسية معها.

ثم أردفت وأنا أقف لأواجهها:

ـ كنت رهيبة معها، وكان عليها أن تقتلك، ولكنّها لم تفعل.. كانت إنسانة. هي وحدها، بيننا، الإنسانة.

رددت الشرشف على كتفي العارية، وذهبت فقرفصت من جديد قرب النّار، أقلّب البنطلون ليجفّ. لم أعد أنظر إلى المرأة. صرت راغبًا عن العراك معها، لا لأنّها كفّت، بل لأنّني كنت جبانًا، نذلاً، كما قالت. كان شيء ما ينقصني لأكون شجاعًا وطيّبًا، شيء أحسّه، وأتعذّب لأجله، ولا أستطيع بلوغه، وهي تعرفه، والخيّاط يعرفه، وأنا أعرفه..

سكتت المرأة وتركتني. رغبت عن العراك بدورها، لا لأنّها اكتفت بما قالته، بل لأنّها وُوجهت بحقيقة قسوتها على الفتاة، برغم كل المبرّرات التي تصطنعها لنفسها.

خيّم صمت ثقيل. وفي ذاتي كنت أعترف: «أنا جبان،

ووكيل تلك السيّدة أفضل منّي. على الأقلّ لا يتردّد مثلي، ولا يمارس الشفقة أو يتظاهر بها».

«الحبّ أو البغض ـ قال الخيّاط ـ الشجاعة أو الجبن، ولا توسّط بينهما. يتذبذب الموقف، وكذلك لسان الميزان، ولكنّه يتبع حركة الثقل التي تحكمه، وكذلك ينحسم الموقف. . » اليعاقبة، أولئك الذين تتحدّث عنهم أختي، حسموا الموقف، دفعوا الثورة إلى حافّتها الأخرى.

بربرت النّار. كانت النأمة الوحيدة التي قطعت حبل الصمت المتوتّر. والمرأة من الطرف الآخر، تنظر إليّ وتفكّر، وأنا أفكّر. كلانا اكتشف أنّ ما قاله صاحبه حقّ، فقد مارست القسوة مع الفتاة، ومارستُ الجبن معها. هي انتقمت من غيرها بها، وأنا أشفقت على ضعفي من خلالها، هي آوتها لتتخذها وسيلة، وأنا أعطيتها السلسلة لتكون وسيلة.

غابت المرأة قليلاً، وعادت فوقفَتْ ورائي. لاحظتُ شيئًا يتأرجح فوق رأسي وأنا مقرفص، منصرف إلى وقد النّار. كانت السلسلة تتدلّى من يدها، فتذهب وتجيء مثل رقّاص الساعة أمام وجهي، وكان ظلّها الناشئ عن الوهج يمرّ على جبهتي وشعري. تركتها تفعل ما تريد، وقد خالجني شعور مبهم، فيه سخط وعتب، على المرأة والفتاة معًا. وقلت في نفسي إنّ عاطفة أختي لم تُفهم ولم تُقدّر على حقيقتها. تساوت هي ونقود والدي. هديّة من القلب لم يفهمها قلب

أيّ منهما، فانقلبت إلى أعطية مدخولة، إلى صدقة مرفوضة على نحو مؤلم.

وقالت المرأة في نبرة ليّنة، مغرية بالطاعة:

ـ افتح يدك.

فتحتها. أسقطت فيها السلسلة وقالت:

ـ أعدها إلى أصحابها.

جمعتها في راحتي. أطبقتها عليها. لهوت بها. ثمّ قذفتها في النّار..

ـ لماذا؟ صاحت.

ـ هكذا، مادام لا أحد يريدها.

ـ ومن هو هذا الأحد؟ أنت أعطيتها للفتاة، وهي لا تريدها. طلبت منّي أن أعيدها إليك، وها أنا أفعل.. لمن هذه السلسلة؟ اشتريتها؟

ـ لا.. لم أشترها.. ما خطر لي ذلك.. حملتها إليك، هديّة من أختي.

ـ لي أنا؟ ومن أختك؟ ولماذا؟ بأيّة مناسبة؟ تعويض عن الإهانة؟

تكلّمت بتأثّر، كأنّما لنفسها، ووشى صوتها برغبتها في أن تعرف كيف أرسلت أختي لها السلسلة، ولماذا أعطيتها أنا للفتاة. وحين اقتربت منّي أخذت يدها بين راحتي وقلت:

ـ ليست هذه تعويضًا عن الإهانة. لا أختي ولا أنا فكّرنا بهذا. بالعكس، رفضنا شيئًا ظننا فيه إهانة.. فقد جاء والدي، في اليوم التالي للحادث، ووضع نقودًا على الكومودينة، قرب سريري، قائلاً إنّها لك.. ولمّا دخلت عليّ أختي طلبت منها أن تلقي النقود خارجًا، تعطيها صدقة أو تشعل بها شموعًا. أقرّتني على رأيي. أخذت النقود وعادت تحمل هذه السلسلة قائلة: «هذه لي، فقدّمها إليها باسمي، تعبيرًا عن شكري على موقفها منّي». ووجدت عاطفتها صادقة. كانت ممتلئة بعرفان الجميل لك، وتريد أن تعبّر عن ذلك ولا سبيل إليه، فأرسلت لك سلسلتها..

أسبلت المرأة جفنيها مفكّرة. رقّت ملامح وجهها واتّشحت بغبطة داخليّة فعل من يتلقّى تحيّة جميلة أو يسمع كلمة طيّبة. ولم تسألني لماذا أعطيت السلسلة للفتاة. حزرت الضرورة التي ألجأتني إلى ذلك، ورضيت عنها. ثم قالت:

ـ في هذه الحال، ما كان يجوز أن تلقيها في النّار.

قلت:

ـ لننته منها.. كنت مخطئًا.. وعدت الفتاة بغرفة، وخزانة وسرير.. لم أكن سيّئًا معها. لم أنم معها، ولا قبّلتها، ولكنّي لم أكن سيّئًا معها. أشفقت عليها، ولكنّها لم تكن بحاجة إلى شفقتي، وها هي قد ذهبت.

ـ لا أحد بحاجة إلى شفقة أحد.

ـ أفهم ما تقولين. .

ـ مادمت قد فهمت فاعتبر أنّ السلسلة وصلتني. . أشكر مرسلتها. . ولنغلق هذا الحديث، هيّا إلى النوم. .

قالتها وتناولت كوز الماء، وسكبته بهدوء على النّار. وقبل أن تخبو، وتلفّنا الظلمة، قلتُ لها:

ـ لنأخذ الحصيرة إلى الغرفة الأخرى. .

تقدّمتني في الخروج. كانت ساكنة، عذبة، لا أثر للشراسة في حركاتها، ولا رغبة لها الآن، في المشاكسة. كنّا نرغب في النوم، في أن يضع كلٌّ منّا رأسه في عبّ الآخر، وذراعيه من حوله، ونقضي، هكذا، ليلنا.

داخل العتبة، وثيابي المجفّفة تحت إبطي، والحصير بيدي، استدارت المرأة إليّ، وتناولت الحصيرة منّي، ثم فتحت الباب، وألقتها في الباحة. كشفت، بعد ذلك، السرير، وأطفأت الضوء واحتوتني. . تحت الغطاء بذراعيها احتوتني. كنّا عاريين، وتهزهز السرير، في بطء أوّلاً، ثم بعنف، ثمّ بعنف أشدّ، ودوّى رعد في الخارج، وعلى نور البرق خيّل إليّ أنّني أبصرت عينيها، وكغاية مجهولة، مخيفة ولذيذة دخلت عينيها، وغبت في عينيها، ولم أرجع إلاّ على شهقة بطيئة بطيئة كتنهّدة عميقة، بغير قرار.

كففنا عن الحركة وما انفصلنا. ما همدنا ولا صخبنا، بقينا متعانقين دافئين، نستمتع بالاحتواء المرتوي الحارّ،

للجسد السخيّ، الشهي، الذي تنفث مسامه الآن عطرًا عنبريًا، خاصًا به وحده، من نشوته وسعادته وجبلته، وحرارته أيضًا.

تركتني أصرّها في حضني. أحتفظ بها لنفسي، وأنعم بدفئها وملاستها. ما فكّرنا بالنهوض، ولا تساءلنا عن الوقت، ولا الغدّ، ولا المشاكل، أو الأحزان. أغفينا، هكذا، ونسينا.. وظلّ المطر، في الخارج، بإيقاع رتيب، يعزف على هواه، لحنه المهدهد الناعم.. ثم، فجأة، انتبهنا على صرخة حادّة كقذيفة، أصابت زجاج الصمت وحطّمته، وسمعنا ارتطامًا على الباب المجاور، وخبطة على الأرض، ووقع أقدام تركض في الزقاق الضيّق.. وانبعثت، على الفور، صرخات ملهوفة من النوافذ المجاورة، واختلطت الأصوات بعضها ببعض، ولم نعد قادرين على التمييز..

قفزت المرأة عارية من السرير، وفتحت الباب غير عابئة بشيء، وعندئذ سمعنا امرأة الخيّاط تصيح:

ـ قتلوه.. قتلوه..

ازداد الضجيج واللّغط في الزقاق، بينما كنّا نحاول، كيفما اتفق، أن نحشر أنفسنا في ثيابنا. ثم سمعنا بكاء وصوتًا يصرخ:

ـ قتلوه، قتلوا الخيّاط، قتلوا الرجل الطيّب، يا ويلاه..
المرأة، تحت المطر، ركضت. بقميص على جسدها ودون

حذاء ركضت. خببت وراءها في الماء المتجمّع، وانطلقنا من الباب الخارجي. لحقنا بالمتراكضين الداخلين على الدرج إلى بيت الخيّاط.

صاح صوت:

ـ الضوء! أشعلوا الضوء!

ركض إنسان ما، بفانوسه الغازي، من الطرف الآخر للدار، لكنّه لم يصل. أطفأته الرّيح. أشعل بعضهم أعواد ثقاب وقدّاحات، وعبر الأرجل والأقدام، على باب البيت، أبصرت جسمًا متمدّدًا، والدم يلطّخ صدره، ورجالاً ينحنون فوقه ليرفعوه، وكلمات مولولة ناشجة، تقول:

ـ مات.. مات..

وكلمات أخرى، تصيح:

ـ أدخلوه إلى البيت.. أدخلوه إلى البيت.. واشعلوا الضوء..

وقال صوت:

ـ أحضروا الطبيب، ربما فيه نَفَس..

وقال آخر:

ـ لا فائدة، لم يعد فيه نَفَس.

تدافع الجميع عبر الباب، في اللحظة التي اشتعل فيها الضوء، ولم أستطع الدخول، ولا رأيت المرأة، بل وقفت

في العراء، وشعرت بحاجة إلى البكاء. . . ثم، تحت المطر، بكيت.

لم يعرفني أحد، ولم يأبه لشأني أحد. كانوا مذعورين، يتكلّمون، ويضجّون، ويتدافعون على الباب والنافذة. . . وفي الغرفة، في المكان الذي رقصت فيه، في الحلقة التي دققت فيها الأرض، ابنة الكلب النائمة، لأوقظها، أغفى الخيّاط إغفاءته الأبديّة. . وتحلّق الناس من حوله كما تحلّقوا من حولي، وشرع بعضهم بخلع ثيابه ليروا مكان الجرح، مكان الخنجر الذي أُغمد في صدره، فوق القلب.

واستمرّ المطر يهطل، واللّغط يتصاعد، وأنا واقف، أتخيّل وجه المعلّم وهو يعزف، وأنا أرقص، والتصفيق يتعالى، والابتسامة تشعّ، فأرتفع في الهواء، وأنحطّ على الأرض، ركبتي ممدودة، والأخرى مثنّاة، والخنجر في اليد، يغزل دوائر نور، لكي لا تكون ظلمة من بعد. ثم أستعيد صوته وهو يقول لي: «اعزف بقدمك، دقّ بها الأرض، اثقبها» وها هم قد ثقبوا قلبه. . حذفوه لكي لا يكون، ولكي لا يعلّم، ولكنّه قد كان وعلّم، وعلى باحته التي رقصت عليها رقص الكثيرون، دقّوا الأرض بأقدامهم، وسمع الآخرون الدقّ، وشرعوا بدورهم يدقّون. . والمرأة، ذات العينين السوداوين، ركضت بقميص ودون حذاء. . لقد سمعت واستجابت، والأكواخ، أيضًا، سمعت

واستجابت. . وصاحبة الابتسامة، الصورة التي ستخرج من الصورة، ستسمع وتستجيب، «وكل شيء يا بني ـ قال لي الخيّاط يومًا ـ يتوقّف على الاستمرار».

لماذا اعتراني شعور بالغربة، فوقفت، هكذا، خارجًا؟ قد كان الخيّاط لي، كما كان لهم، علّمني الرقص كما علّمهم، وأسمعني كلماته كما أسمعهم. والمرأة، هذه الليلة، ألقت بالحصيرة في الباحة، وعلى سريرها احتوتني، وصاحبة الابتسامة، في ومض البرق، طالعتني، وهذا الجثمان الممدّد هناك، والذي أبكيه هنا، لماذا لا أدخل وأمسح على جرحه، كما دخلت المرأة لتمسح على جرحه؟ ولماذا لا أكون قربه، كما هي بقربه، أنا الذي وثقتْ بي، وأكرمتني بأكثر ممّا أستحقّ؟

تقدّمت باتجاه الباب، وكلّي عزم ورغبة في أن أحتضن المعلّم فأقبّله وأودّعه، لكنّني سمعت فجأة اسم أبي يتردّد. .

كانت هذه امرأة الخيّاط تصرخ:

ـ قتلوه لأجله. . لأنّه علّمه الرقص. . الحلاّق أنذرني، قال لي: «انتبهي، جدّه قنصلاتو وأبوه يهزّ السراي، ولن يغفر لزوجك فعلته، وسيؤذيه إذا استمرّ». .

ارتجفت لهول الصدمة. كان ذلك واقعًا. كان صحيحًا. ولكنّي رفضت التصديق. ما كنت قادرًا على التصديق.

وبالهيجان نفسه الذي انطلقت به من بيت عمّي، في قلب العاصفة، انطلقت من بيت الخيّاط، راكضًا إلى البيت، لأسأل والدي، وأحاسبه. وقبل بلوغ الباب، أبصرت رجلين يخرجان منه، ويسرعان فيختفيان في الظلام.

تأكّد ما قالته امرأة الخيّاط. والدي القاتل وأنا سبب القتل. لم يغفر له، لم يغفروا لرجل يعلّم الناس دقّ الأرض لإيقاظها. سفكوا دمه، وزادوا، بذلك، الغور اتساعًا.

دققت الباب بعنف. بكلتا يديَّ، مع أنّ المفتاح كان معي. فتح لي والدي. كان في ثياب النوم، وقد صعق لمرآي على الصورة التي دخلت فيها. لم يقل شيئًا. أدرك أنّني عرفت، وأنّ شيئًا في الدنيا لن يجعلني أغفر له.

نظرت إليه بقسوة، بتحديقة لا تعرف الرحمة، وصحت في وجهه بحقد وجنون:

ـ قاتل!

وصاح بي، باللّهجة والحدّة نفسها:

ـ اخرس!

وانطفأ الضوء..

وسادت بيننا الظلمة.

مؤلّفات حنّا مينة

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرّحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفم الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائراً
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملتُ القلم؟
البحر والسفينة... وهي!
حين مات النهد
شرف قاطع طريق
الذئب الأسود
الغجريّة والأرقش
النار بين أصابع امرأة

تصميم الغلاف رفيق الجندي

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ – ١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-027-2
9 789953 890272